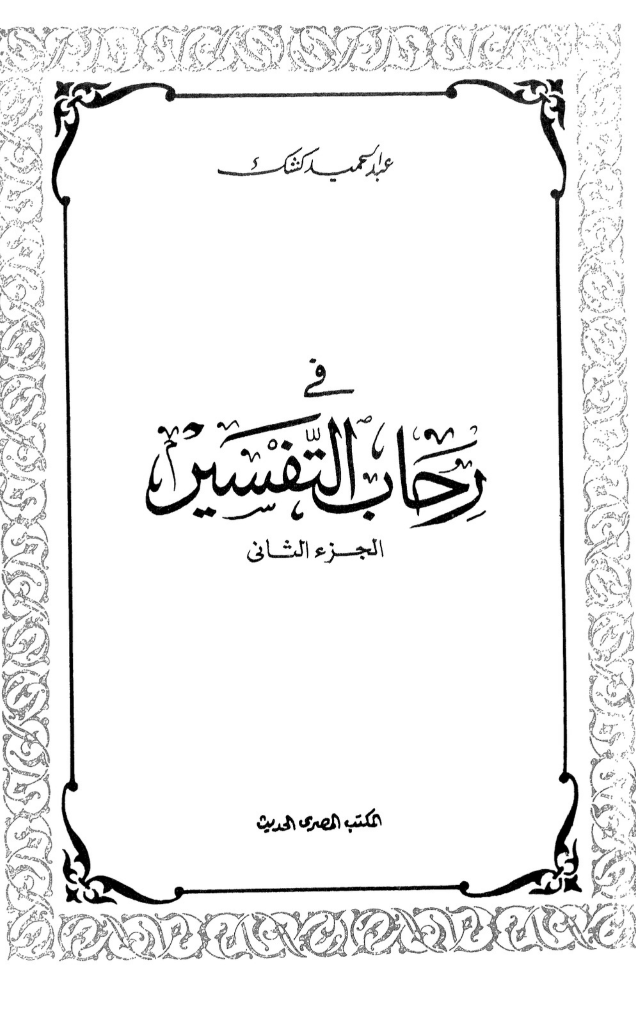


عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

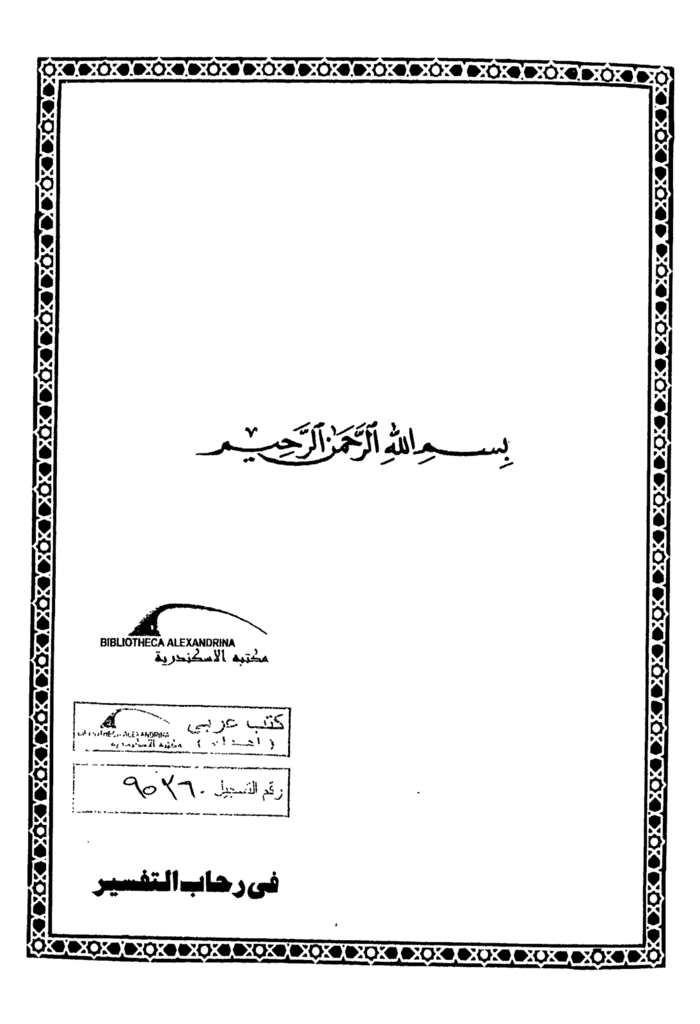
الجزء الثانى

المكتب المصرى الحديث

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

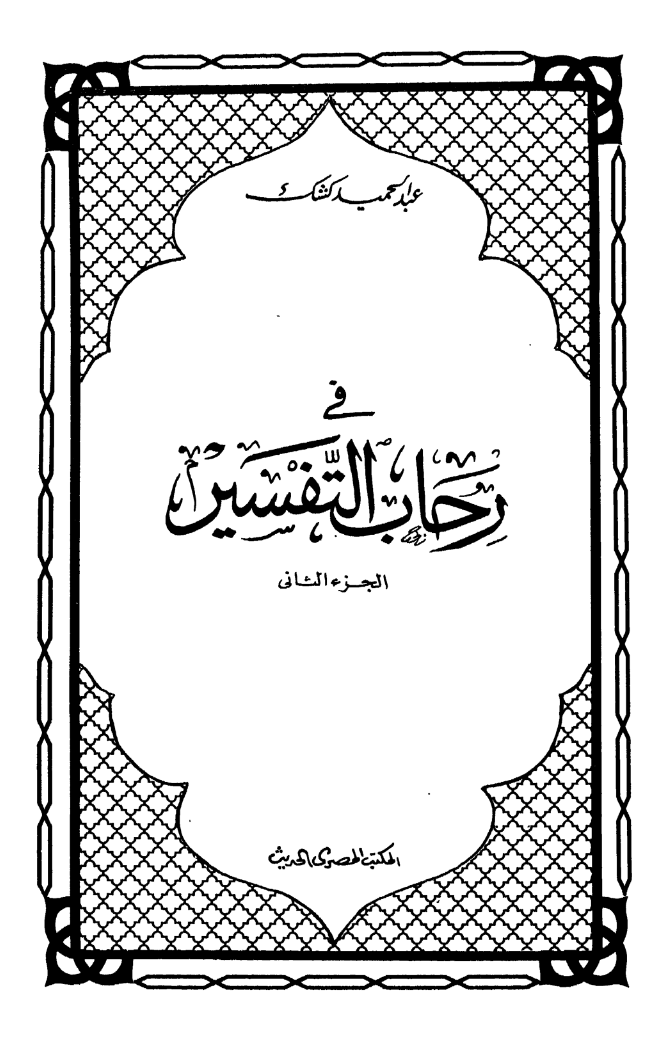
الاسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب التفسير

الناشر: المكتب المصري الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢



عبد الحميد كشك
في رحاب التفسير
الجزء الثاني
المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مجمع البحوث الاسلامية
الادارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السيد الاستاذ / مدير دار الكتب المصرى الحديث

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

فبالاشارة الى الطلب المقدم منكم لفحص كتاب (فى رحاب التفسير) للشيخ عبدالحميد كشك ..

نفيدكم بان هذا الكتاب صالح للطبع والنشر شريطة ان تصور الآيات القرآنية من مصحف معتمد من الادارة ..

رجاء العلم والاحاطة .... ومرافق النسخة ..

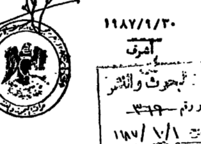
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

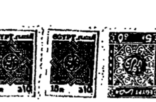
مدير عام
البحوث والتأليف والترجمة

" فتح الله يس جزر "

١٩٨٧/٩/٣٠







تحويل القبلة

* ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

المراد بالسفهاء ها هنا مشركو العرب وأحبار اليهود والمنافقون : والسفه : خفة فى العقل وطيش فى الأحلام . وقد روى البخارى رضى الله عنه فى سبب نزول هذه الآية : عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ؛ وأن أول صلاة صلاها هى العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قِبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت ، وكان من قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالٌ قتلوا لم ندر ما نقول فيهم ؟ فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ . وروى الإمام مسلم بسنده عن الإمام البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ ، فقال رجال من المسلمين : وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ . وقال السفهاء من الناس ، وهم أهل الكتاب : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله ﴿ **سيقول السفهاء من الناس** ﴾ إلى آخر الآية . وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس .

ولقد جاء الأمر بتحويل القبلة نحو المسجد الحرام والرسول ﷺ قد صلى ركعتين من فريضة الظهر فى مسجد بنى سلمة ، ولذا سمى « مسجد القبلتين » : ووصلت الأخبار بعد ذلك إلى مسجد قباء فى صلاة الفجر من اليوم الثانى ، كما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة

فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[١] . ولما تم ذلك ثارت ثائرة اليهود وتحركت ثعابين الشك فى قلوبهم ، وهاجت عقارب التشكيك فى صدورهم ، وتساءلوا : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ ما الذى دفع هؤلاء الناس أن يغيروا قبلتهم ؟ وأخذوا ينفثون سمومهم محاولين تشكيك المسلمين فى عقيدتهم ، لكن الله ، جلت قدرته ، حسم القضية حسماً لا يحتمل ريبة ولا شكاً ، قال : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . وما دفع اليهود إلى هذا الموقف إلا الحسد الدفين فى نفوسهم على الإسلام ونبى الإسلام ؛ إذ أن الجميع يعلم ما بين اليهود ومابين المسلمين من سموم الحقد ، وزاد القرآن الموقف جلاءً ووضوحاً ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

وقد بين الرسول ﷺ ما فى نفوس اليهود من حسد وحقد على هذا الدين ، فقال فى أهل الكتاب : (إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام آمين)[٢] . إن سر قوة هذه الأمة الإسلامية كامن فى قوة التوحيد . إنها أمة . . الله ربها ، ومحمد نبيها ، والمصحف كتابها ، والكعبة قبلتها ، فكيف لا تكون قوية وهذه أسسها وأركانها ؟ الله نور السموات والأرض . ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾[٣] . ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[٤] . ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾[٥] . ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[٦] . وإذا كان اليهود قد تحالفوا مع المشركين والمنافقين فى فجر الإسلام وظهر الإسلام وعصر الإسلام ، فإنهم لا يكفون عن الدس ضد الإسلام ونبى الإسلام وكتاب الإسلام وقبلة الإسلام . لقد تحالفوا قديماً مع المشركين والمنافقين ، واليوم يتحالفون مع الشيوعيين والصليبيين ، وصار الإسلام يواجه الثالوث المدمر : شيوعية عالمية ، صهيونية عالمية ، وصليبية عالمية . والإسلام ينادى على أبنائه ويقول : —

ما للمنازل أصبحت لا أهلها ... أهلى ولا جيرانها جيرانى

ولو كان حافظ إبراهيم موجوداً بيننا الآن لقال على لسان الإسلام :

أمن العدل أنهم يردون الماء صفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الأسد منهم وأن تقيد أسدى
نظر الله لى فأرشد أبنائى فشدوا إلى العلا أى شد
إنما الحق قوة من قوى الديان أمضى من كل أبيض هندى
نحن نجتاز موقفا تعثر الآراء فيه ، وعثرة الرأى تردى

(١) تفسير ابن كثير حـ١ صـ ٢٧٣ ، ٢٧٤ ط دار الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير حـ ١ صـ ٢٧٥ ط دار الشعب .
(٣) سورة يونس آية : ٥٧ .
(٤) سورة المائدة آية : ١٥ .
(٥) سورة التغابن آية : ٨ .
(٦) سورة الشورى آية : ٥٢ .

قد وعدت العلا بكل أبى من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى
وارفعوا دعوتى على العلم والأخلاق فالعلم وحده ليس يجدى

ولو كان شوقى حياً بيننا لقال فى الإسلام :

شهيد الحق قم تره يتيماً بأرض ضيعت فيها اليتامى
أقام على الشفاه بها غريباً ومر على القلوب فما أقاما

على الأمة أن تحذر مايحاك لها من مؤامرات فى الظلام . فقد وقف المستر جلادستون رئيس وزراء بريطانيا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، وقف فى مجلس العموم البريطانى وبيده كتاب الله ونادى أعضاء المجلس وقال لهم : إننا لن نستطيع القضاء على الإسلام إلا إذا قضينا على ثلاثة أشياء هذا الكتاب ، وصلاة الجمعة ، وعرفات . فهب أحد الأعضاء مذعوراً وخطف المصحف من يده ومزقه ، فغضب رئيس الوزراء وقال له : ما أحمقك ، وما أردت تمزيق أوراقه ، إنما أردت تمزيق مبادئه من صدور المسلمين . أعلمتم أيها المسلمون ماذا يراد بكم ؟

يا أخا الإسلام .

إذا زرت بعد البيت قبر محمد وأبصرت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة لأحمدَ بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية وفاح أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله ياخير مرسل ابثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق ثبات
بأيمانهم نوران : ذكر وسنة فما بالهم فى حالك الظلمات

إننى لا أخشى على الإسلام من أعدائه ، فقد شهد التاريخ وأثبتت الحقائق أنه انتصر على جميع أعدائه فى كل المعارك والمواطن والمواقع ؛ انتصر على المشركين فى كل الغزوات ، وانتصر على الصليبيين فى مواقع مع الروم ، وعلى رأسها موقعة اليرموك ، وانتصر على الفرس فى كل المواقع ، وعلى رأسها القادسية ونهاوند ، إنما أخشى على الإسلام من أدعيائه الذين قال فيهم رب العزة : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾[1] . وليست الفتنة هنا مقصورة على فتنة النساء ، وإنما هى أعم وأشمل ؛ فإن منها فتنة المال ، قال تعالى : فى شأن هؤلاء الأدعياء : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا

---

(١) سورة التوبة الآيات : ٤٦ - ٤٩ .

من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون *قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون * قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾[1] قال ﷺ : (أخوف ما أخاف على أمتى منافق عليم اللسان)[2] .

ولما أُفحم هؤلاء الأعداء وألقموا الحجارة فى أفواههم ، بقول الله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، وجه الخطاب إلى الأمة الإسلامية وأتباع مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ أى عدولا وخيارا ، فأنتم ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، وأنتم شهداء الله فى الأرض ، وأنتم الشهداء على الأمم يوم القيامة ، والرسول الكريم هو الذى قال الله له : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ وهو الذى قال الله له : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾[3] .

يا رسول الله :

أنت الــذى قـاد الجيــوش محـطماً	عهــد الضــلال وأدب السفـهــاء
وسمـوت بـالبشـر الـذين تعلمــوا	سنن الشـريعـة فـارتقـوا سعــداء

قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ . قال الرسول ﷺ : يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقـال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . قال فنزل قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ . قال : والوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم . رواه البخارى .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : (يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم . فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا) . فذلك قوله عز وجل : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال : عدلا ، ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

وقال ﷺ : (أنا وأمتى يوم القيامة على كومة مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحـد إلا ودّ أنه منا ؟! وما من نبى كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل) .

(١) سورة التوبة الآيات : ٥٠ - ٥٢ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ١ ط دار الفكر .
(٣) سورة النحل آية : ٨٩ .

وعن جابر بن عبد الله قال : شهد رسول الله ﷺ جنازة فى بنى مسلمة ، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم : والله يا رسول الله لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفاً مسلماً ، وكان . . . وأثنوا عليه خيراً ، فقال رسول الله ﷺ : أنت بما تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذى بدا لنا منه فذاك . فقال النبى ﷺ : وجبت . ثم شهد جنازة فى بنى حارثة ، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم : يا رسول الله بئس المرء كان ، إنه كان فظاً غليظاً ، فأثنوا عليه شراً . فقال رسول الله ﷺ لبعضهم : أنت بالذى تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذى بدا لنا منه فذاك . فقال رسول الله ﷺ : وجبت . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب : صدق رسول الله ﷺ ، ثم قرأ : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ . ثم قال الحاكم : (هذا حديث صحيح الإسناد) .

وعن أبى الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها ، وقد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتاً ذريعاً فجلست إلى عمرَ بن الخطاب ، فمرت به جنازة فأُثنى عليها خير . فقال : وجبت . ثم مر بأخرى فأثنى عليها شر . فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ﷺ : أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة . قال فقلنا : وثلاثة ؟. قال فقال : وثلاثة . قال فقلنا : واثنان ؟ قال : واثنان ، ثم لم نسأله عن الواحد . وقال ﷺ : (يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم . قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيىء . أنتم شهداء الله فى الأرض)[1] .

ثم بين الله تبارك اسمه الحكمة من تحويل القبلة فقال : ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله** ﴾ ، أى وما أمرناك بالتوجه إلى الكعبة بعدما كنت تصلى إلى بيت المقدس ، ما فعلنا هذا إلا ليظهر مدلول علمنا وليعلمَ الناسُ مواقف العباد من الذى يتبع ومن الذى ينقلب ، فعلمنا قديم أزلى . فالله جلت قدرته علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . فقوله تعالى : ﴿ **لنعلم** ﴾ أى ليظهر مدلول علمنا ، فنعلم الناس الحكمة مما جعلنا . وشتان ثم شتان ، وهيهات هيهات بين الاتباع والانقلاب ؛ فالاتباع التزام وسمع وطاعة ، ولذلك لما وصل الخبر بتحويل القبلة إلى المصلين فى مسجد قباء ، كانوا راكعين فتحولوا إلى الكعبة وهم راكعون التزاما وسمعا وطاعة لأمر الله جل شأنه . أما الانقلاب على العقب ، فالعقب هو مؤخر القدم ، والانقلاب عليه هو الارتكاس والانتكاس . قوله جل شأنه : ﴿ **وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله** ﴾ ، أى لقد كان تحويل القبلة أمرا عظيما وشاقا على النفوس المؤمنة الواثقة التى امتلأت يقينا ونورا ، فإنها تقف من أوامر الله موقف التسليم والإذعان والرضا . وفى القرآن الكريم آيات تبين لنا مواقف الفريقين من أوامر الله تعالى ، قال عز وجل ﴿ وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ۞ وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ط الشعب .

وهم كافرون ﴾(١) . وقال سبحانه : ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنـه الحق من ربهم وأما الـذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾(٢) . وقال تبارك اسمه : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾(٣) . وقال تبارك وتعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفـاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى ﴾(٤) . ولابد من الاختبار حتى يمحص الله الذين آمنـوا ويمحق الكافرين . ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾(٥) . ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾(٦) .

قوله جل شأنه : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ، المراد بالإيمان هنا الصلاة ، لأنها أعظم الأركان ، وهى الفريضة التى فرضت على الرسول فى السموات العلى ؛والمقصود : ما كان الله ليضيع صلاتكم التى صليتموها إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة . وفى الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم فى ذلك ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ . وعن ابن عباس : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ، أى بالقبلة الأولى(٧) ، وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أى ليعطيكم أجرهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ ، أى عظيم الرأفة ، كثير الرحمة بكم . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيا من السبى أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها ، فقال رسول الله ﷺ : (أترون هذه طارحة ولدها فى النار ، وهى تقدر على ألا تطرحه . قالوا : لا يا رسول الله . قال : فوالله . . لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها(٨)) .

أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضى له الحاجات ؟ . .

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ يدفع الألم والضر عنهم رحيم بهم ، يدفع عنهم البـلاء ويجلب الإحسان .

الإذن بتحويل القبلة

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ

(١) سورة التوبة الآيتان : ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٦ .
(٣) سورة الإسراء آية : ٨٢ .
(٤) سورة فصلت آية : ٤٤ .
(٥) سورة العنكبوت الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١٤٢ .
(٧) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .
(٨) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ **تقلب وجهك فى السماء** ﴾ : تردده طلبا للوحى والتجاء إلى الله ، ﴿ **فلنولينك** ﴾ : فلنوجهنك جهتها ، ﴿ **فول وجهك** ﴾ : فوجه وجهك ، ﴿ **شطر المسجد الحرام** ﴾ : يعنى جهته ، ﴿ **الممترين** ﴾ : الشاكين .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء** ﴾ ، إلى قوله ﴿ **فولوا وجوهكم شطره** ﴾ ، فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها . قل لله المشرق والمغرب** ﴾ وقال : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ . وروى ابن مروان عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء . فأنزل الله ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ إلى الكعبة ، إلى الميزاب ، يؤم به جبرائيل عليه السلام[1] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض إلى مشارقها ومغاربها من أمتى)[2] .

قوله تعالى : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ ، أى وجه وجهك جهته ، وهذا أمر موجه إلى قائد الأمة ، ثم وجه الأمر بعد ذلك إلى أمته لما فى ذلك من الشأن العظيم فقال : ﴿ **وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ . واستقبال القبلة شرط من شروط صحة الصلاة للمسلمين فى مشارق الأرض

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٥٤١ جـ ١ الشعب .

ومغاربها ، شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، ولا يستثنى من هذا شىء سوى صلاة النافلة فى حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه ، وقلبه نحو الكعبة ، وكذا فى حال القتال والتحام الصفوف ، يصلى على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده ، وإن كان مخطئا فى نفس الأمر ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وهنا مسألة : استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده ، كما ذهب إليه الشافعى وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : لقوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ، فلو نـظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء ، وهو ينافى كمال القيام . وقال بعضهم : ينظر المصلى فى قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضى : ينظر فى حالة قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة ، لأنه أبلغ فى الخضوع وآكد فى الخشوع . وقد ورد به الحديث ، وأما فى حالة ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفى موضع سجوده إلى موضع أنفه ، وفى حالة قعوده إلى حجره .

قوله جل شأنه : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ . وهذا تسجيل عليهم لما أتوه من الفعال الشنيعة . لقد علموا علم اليقين أن تحويل القبلة أمر سيكون ، وذلك من كتبهم ، ولكنهم وهم يعلمون أنه حق ثابت لا مراء فيه ، ارتابوا وشكوا وشككوا وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، أى ما الذى حرفهم عنها ، لذلك جاء ختام الآية تهديدا ووعيدا لما فعلوه من إنكار الحق وكتمانه ، والجدال بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا . ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون .

قوله جل شأنه : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ . كان رسول الله ﷺ حريصا على هداية اليهود ، لأنهم لو أسلموا لكان فى إسلامهم خير كثير . فقد ذكرت أوصاف الرسول فى كتابهم التوراة ، وثبتت رسالته عندهم من غير شك ، فأراد ربك سبحانه وتعالى أن يخفف عن نفس رسوله ما يعانيه فى هذه السبيل ، فأخبره عما فى قلوبهم ، والله به عليم بأن هؤلاء الناس جُبلوا على العناد وصارت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة ، فلو جئتهم بكل آية سواء أكانت آيات كونية أم آيات قرآنية ، مااتبعوا قبلتك ، لأنهم قد ملأ الكبر نفوسهم ، وهاج الحسد فى قلوبهم ، وحيث إنك يا محمد على الحق المبين فلن تتبع قبلتهم أبدا ، بل إن بعض أهل الكتاب ليس بتابع قبلة البعض الآخر ، فلا اليهود يصلون إلى قبلة النصارى ، ولا النصارى يصلون إلى قبلة اليهود . قال تعالى : ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ . قوله جل شأنه : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين ﴾ . هذا خطاب موجه إلى الرسول ﷺ بصفته رئيس الأمة ، والمراد به أمته ، لأن الله تعالى عصمه عن التلبس بأى منهى عنه . والأهواء جمع هوى ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر ، وهو داء قد أعيا الأطباء ؛ فمن يتبع أهواء الظالمين وقد جاءه العلم من قبل الله جلت قدرته ، فهو منهم ، والله جل جلاله يبين الآيات ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسة وَمن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

قوله جل شأنه : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ . هذه حجة قاطعة دمغ الله بها أهل الكتاب ، فإنهم يعرفون أن محمداً حق ، وأن الله قد أخبرهم بذلك فى كتابهم ، بل إنهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم كتموا هذا الحق وأنكروه ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلاتعقلون * أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾[(١)] . والمراد الفريق فى الآية الكريمة هم العلماء منهم وغير العلماء تبع لهم ، ويوم القيامة سيتبرأ كل منهم من الآخر ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم ، كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[(٢)] . قيل لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإننى لا أدرى من ابنى ما كان من أمه . قلت وقد يكون المراد ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمترى فى معرفة ابنه إذا رآه بين أبناء الناس كلهم . قوله تعالى : ﴿ الحق من ربك ﴾ ، هذا إخبار من الحق جل جلاله بالحق عن الحق ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ فثبت للرسول الكريم وأصحابه بأنهم الأمة الناجية والفرقة التى كتب الله لها فى كتابه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[(٣)] .

مسائل تتعلق بالقبلة

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ

(١) سورة البقرة الآيتان : ٧٦ ، ٧٧ .
(٢) سورة البقرة الآيتان : ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٣) سورة النور آية : ٥٥ .

﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

المفردات : ﴿ فاستبقوا ﴾ : تسابقوا . ، ﴿ الحكمة ﴾ : العلم النافع مع العمل ، كل هذا تأييد للدعوى وبطلان لكلام المنكرين .

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين معه بالتوجه إلى البيت الحرام ، بيّن سبحانه أن لكل فرقة وجهة تتوجه إليها : فلليهود وجهة ، وللنصارى كذلك ، وللمسلمين ، وليست العبرة بأن يتشبث كل فريق بوجهته ، إنما العبرة باستباق الخيرات إلى الحق ، لأن القبلة إنما تأتى بإذن من الله ، فهى أمر توقيفى لا مجال للاجتهاد البشرى فيه . فيامن وليتم وجوهكم قبل المشرق والمغرب من اليهود والنصارى أنسيتم أن البر ليس فى أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ؟ وهل يتحقق إيمان بالله مع مخالفة أمره وعدم الامتثال لإذنه ؟ ليس هذا هو البر . واعلموا أنتم أنكم أينما توجهتم ، فإن الله تعالى محيط بكم أينما تكونوا ، وإن تفرقتم فى شعاب الأرض وسرتم فى مناكبها فإن الله قادر على أن يجمعكم فى أقل من لمح البصر . فأى فائدة فى أن تولوا وجوهكم قبلة لم يأذن الله بها وأنتم تقرءون فى كتبكم أن النبى حق وسوف يوجه إلى قبلة الحق ؟ ثم ذكر تعالى بعد ذلك الأمر بالتوجه إلى شطر المسجد الحرام مرة ثانية وثالثة . فقال : ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ . وقال بعد ذلك : ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة** ﴾ .

ولسائل أن يقول : لماذا تكرر الأمر باستقبال الكعبة ؟ ونقول : ذلك لحكمة بالغة اقتضتها العناية الإلهية ، فهذا أول نسخ ورد بإزالة حكم بحكم آخر متأخر عنه . فقد نسخ الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس بالأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام ، فاقتضى ذلك التوقيت حتى لا تكون هناك فتنة أو تردد إلا عند الذين ظلموا . وثانياً : لأن كل آية من هذه الآيات لم تخل من فائدة ، مع الآية الأولى ، قرن الله الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله : ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ ، وفى الآية الثانية قرن الله تعالى الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله : ﴿ **وإنه للحق من ربك** ﴾ . وفى الآية الثالثة قرن الله الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله مبينا الحكمة من ذلك : ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة** ﴾ . ويرى بعض المفسرين أن التكرار جاء لفائدة عظمى . فالآية الأولى : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ خطاب لمن فى المسجد ، والآية الثانية ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ خطاب لأهل الحرم ، والآية الثالثة ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ خطاب لمن هم خارج الحرم فى مشارق الأرض ومغاربها . ومن هنا فقد أفاد التكرار فوائد جمة . وسبحان من قال فى كتابه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[1] . ونأخذ من الآية الحكمة من تحويل القبلة ، كما نصت

---

(١) سورة هود آية : ١ .

على ذلك الآية . فالحكمة الأولى : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ . هذا قطع لمعاذير المبطلين.لقد علموا أن الحق فى ما أمر الله به ورسوله وبان لهم ذلك ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾[١] . فهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد . أما الظالمون فإنهم فى طغيانهم يعمهون ، وفى غيهم سادرون ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾[٢] ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[٣] . الحكمة الثانية قوله تعالى : ﴿ فلا تخشوهم واخشونى ﴾ . . إنكم يا أمة محمد على حق ، وهم على الباطل ، وصاحب الحق لا يخشى أحداً إلا الله ، فالحق أبلج والباطل لجلج ؛ فأنتم كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وهم كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . أنتم الذين تبلغون رسالات الله وتخشونه ولا تخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً . الحكمة الثالثة قوله تعالى : ﴿ ولأتم نعمتى عليكم ﴾ ومن تمام النعمة أنه تعالى قد عرفكم كيف تتجهون فى صلاتكم حتى توحدوا صفوفكم وتكونوا على قلب رجل واحد (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) . فالمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يتوجهون فى صلاتهم إلى الكعبة مهما بعدت مواقعهم .

ولست أدرى سوى الإسلام لى وطناً   الشـام فيـه ووادى النيـل سيـان
وكـلما ذكـر اسـم الله فى بـلد   عـددت أركانـه من لب أوطـانى

والحكمة الرابعة قوله تعالى : ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ ، وكلمة «لعل» هنا يراد بها «اللام» الدالة على الغاية ، أى ولتهتدوا ، لأن الترجى يفيد توقع حصول الأمر المحبوب ، والتوقع يفيد الجهل بالمستقبل ، والجهل على الله محال ونعمة الهداية من أجل النعم ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾[٤] ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[٥] ﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[٦] . قوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ . «الكاف» هنا بمعنى لام التعليل كما فى قوله تعالى : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[٧] ، وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾[٨] . ويكون المعنى على هذا : لتهتدوا بسبب إرسالنا فيكم رسولاً منكم ، وتلك نعمة كبرى جعلها الله منة منه على المؤمنين ، فهو الرسول المعظم والرئيس المقدم . ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[٩] ، والمراد بالكتاب ، القرآن ، وبالحكمة السنة . ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[١٠] . وهنا قال

(١) سورة التوبة آية : ٤٨ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٢٥ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .
(٤) سورة الإسراء آية : ٩٧ .
(٥) سورة الأنعام آية : ٩٠ .
(٦) سورة الحج آية : ٥٤ .
(٧) سورة الإسراء آية : ٢٤ .
(٨) سورة الأنعام آية : ١١٠ .
(٩) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .
(١٠) سورة الحشر آية : ٧ .

﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ . وكم علم الرسول وكم تخرج فى مدرسته من مصلح عظيم كأبى بكر ، وزعيم ملهم كعمر ، وعاقل كريم كعثمان ، وعبقرى فذ كعلى ، وقائد جبار كخالد ، ومحدث جليل كأبى هريرة ، وزاهد صادق كأبى ذر ، وفيلسوف بارع كسلمان . إذا كان ذلك كذلك من إتمام نعمة وهداية وإرسال وتلاوة وتزكية وتعليم ، ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ .

ومن أجل النعم التى يشكر الله عليها . . محمد ﷺ ، ولذلك ذم الله من جحد هذه النعمة فقال : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار ﴾[1] . قال ابن عباس : المراد بنعمة الله هنا محمد ﷺ .

عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : (تذكرنى ولا تنسانى ، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى) .

قال بعض السلف : إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره . وقال بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . قيل لابن عمر : أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله وقد قال الله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ : قال : إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت . وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ قال اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى . وعن سعيد ابن جبير : اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى ؛ وفى رواية : برحمتى . . .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله : أنا عند ظن عبدى بى[2] وأنا معه[3] إذا ذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه[4] ذكرته فى نفسى[5] وإن ذكرنى فى ملأ[6] ذكرته فى ملأ خير منهم وإن تقرب إلىَّ شبرا ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)[7] .

فالذكر هو استحضار عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، والشكر هو تسخير كل ما وهبك الله لطاعته جل فى علاه . فالصحة والمال والحسب والسلطان إذا سخرتها فى طاعة الله فأنت شاكر . قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ .

إذا كنت فى نعمة فارعها	فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله	فإن الإله سريع النقم

---

(١) سورة ابراهيم آية : ٢٨ .
(٢) أنا عند ظن عبدى بى : أى أعامله حسب اعتقاده .
(٣) أنا معه : أى بالتوفيق والرحمة والنصر .
(٤) ذكرنى فى نفسه : أى ذكرنى سرا .
(٥) ذكرته فى نفسى : أى أثبته ورحمته .
(٦) ذكرنى فى ملأ : أى جماعة .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٧١ حـ ١ وزارة الأوقاف .

توجيهات ربانية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

المفردات : الصلاة فى اللغة الدعاء ، وهى من الملائكة الاستغفار ومن الله الرحمة .
والصبر : هو مقاومة النفس للهوى لئلا تنقاد للقبائح .
لنبلونكم : لنمحصنكم والمراد نصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم : الخوف ؛ ضد الأمن
نقص من الأموال : ذهاب بعضها . نقص الأنفس : موت الأنفس .
نقص الثمرات : قلتها ، وقيل موت الأولاد .

خطاب إلهى كريم إلى الجماعة المؤمنة أن تطلب العون من الله على أذى المعاندين الجاحدين الذين ناصبوهم العداء . وقال السفهاء منهم : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ وكتموا الحق ﷺصم يعلمون أنه الحق ، وتشابهت قلوبهم . . فمواقف العداء واحدة وإن اختلفت مللها ونحلها من يهود ونصارى ومشركين . نعم أمر الله الجماعة المؤمنة أن تطلب العون بالصبر والصلاة . ففى الصبر النصر ، وفى الصلاة النجاة ، وفى كليهما الفوز المبين . وإنما قدم الصبر على الصلاة لأنه الأعم الأشمل ، فهو فى العبادات روحها ، يسرى فيها سريان ماء الورد فى الورد ، وهو فى المعاملات جمالها ، يزينها بلباس التقوى ، وهو فى العقائد سياجها الذى يحميها من عوادى المعتدين .

ويكفى الصابرين فخرا أن الله تعالى معهم قال جلّ شأنه : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ومعية الله حفظ ورعاية وصيانة وعصمة من الناس . فمن كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ لما جمع الله تعالى بين يوسف وإخوته والتقوا بعد طول فراق ودخلوا عليه وهو متربع على عرش مصر بعدما رفعه الله من غيابة الجب إلى غاية الحب ، قالوا له : ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف[1] ﴾ وكأنه فى نفوسهم سؤال حائر يطلب الجواب عليه ، وكان هذا السؤال : ما الذى رفعك إلى تلك المكانة العالية ؟ فكان الجواب : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[2] . وإنما قال تعالى : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ولم

(١) سورة يوسف آية : ٩٠ .
(٢) سورة يوسف آية : ٩٠ .

يقل « مع المصلين » مع أنه تعالى أمر بالصبر والصلاة ، لأن الصبر روح الصلاة وصلاة بلا صبر جسد بلا روح ، ومن ثمَّ فمعية الله للصابرين يدخل فيها الذين عرفوا الله فصبروا عند البلاء ورضوا بالقضاء وشكروا فى الرخاء .

عن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء[١] شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء[٢] صبر فكان خيرا له)[٣] .

وللصبر حقيقة ، وأقسام ، وفضل ؛ فما حقيقته ؟ : الصبر هو ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات لئلا يتردى فى القبائح . وقيل هو احتمال الكد وقيل هو حبس النفس على ما تكره ، وقيل هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنساق وراء الشهوات . وكل هذه التعريفات مجتمعة تكون حقيقة الصبر فى أجلى معانيها وأكمل صورها . وللصبر فضل ، وللصابرين درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . قال تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾[٤]. وقال حجة الإسلام الإمام الغزالى فى فضل الصبر كلاما جليلا جاء فى كتاب الإحياء ، ونسوق مما ذكره الإمام الغزالى فى هذا الباب بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدور حول بيان فضل الصبر والصابرين . قال رحمه الله تعالى : « وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ، فقال عز من قائل : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾[٥] . وقال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾[٦] . وقال تعالى : ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٧] . وقال تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٨] قال ﷺ فى بيان عظم مكانة الصبر : (الصبر نصف الإيمان) وقال صلوات ربى وسلامه عليه : (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ؛ فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه) . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٩] . وروى جابر أن النبى ﷺ سئل عن الإيمان فقال : (الصبر والسماحة) . وقال أيضا : (الصبر كنز من كنوز الجنة) . وقال أيضا ﷺ : (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس) . وقيل : (أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور) . وقال رسول الله ﷺ : (لو كان الصبر رجلا لكان كريما ، والله يحب الصابرين)[١٠] .

---

(١) سراء : أى نعمة .
(٢) ضراء : أى شدة .
(٣) الترغيب والترهيب ص ٤ ص ١٦٢ ط الشعب .
(٤) سورة هود آية : ١١
(٥) سورة السجدة آية : ٢٤
(٦) سورة الأعراف آية : ١٢٧
(٧) سورة النمل آية : ٩٦
(٨) سورة الزمر آية : ١٠
(٩) سورة النحل آية : ٩٦
(١٠) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى جـ ١٢ ص ٢١٧ ط الشعب

والأخبار فى هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى ، واعلم أن الصبر ملاك الإيمان . وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر .

وقال علىّ كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له .

وينقسم الصبر انقسامات عديدة باعتبار أحواله . ونحن هنا نختار ذلك التعريف الذى يقسم الصبر إلى قسمين : أحدهما بدنى : كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل : كتعاطى الأعمال الشاقة (إما من العبادات أو من غيرها) ، وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ، ولكن المحمود التام هو القسم الآخر ، وهو صبر النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى : فإن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة ؛ وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر : فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى البطر ؛ وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ، ويضاده الجبن ؛ وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، ويضاده التذمر ؛ وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مُضجرة سمى سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ؛ وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما ؛ وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، ويضاده الحرص ؛ وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، ويضاده الشره ؛ فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر .

وبعد هذا الطواف المبارك فى مجال الصبر ينتقل بنا النظم الكريم إلى مجال الشهادة وكأن بينهما تمام ارتباط ؛ فالصبر والجهاد قرينان متلازمان : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[1] .

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

هناك صبر على كيد الكائدين ، ولكن قد يكون العدو لئيما ينـظر إلى صبر المؤمن عـلى أنه ضعف فيستأسد عليه . هنا يقول تعالى : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾[2] ولكى يكون هناك انتصار لابد أن يكون هناك استشهاد ، فلا يفل الحديد إلا الحديد .

قال جل شأنه : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[3] .

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠٠
(٢) سورة الشورى : ٣٩
(٣) سورة آل عمران الآيات : ١٤٠ ـ ١٤٢

إن طريق الوصول إلى الحق محفوف بالصبر والجهاد ، مزين بدماء الشهداء ؛ فإذا كان فى الصبر حياة للنفوس ، فإن فى الشهادة حياة كاملة لا يشوبها نقص ولا يطرأ عليها قدرة تغير من صفائها وبهائها وروائها وجمالها . ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ﴾ ، أى لا تقولـوا هم أموات ﴿ بـل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ . ذلك لأن ما وراء البرزخ محيط أعنف من أن يمخر عبابه سباح ماهر . وقد منح الله الشهداء من أوسمة الشرف ونياشين الرفعة وسمو الدرجة ما يجعل الشهيد يسأل الله العودة إلى الدنيا حتى يقتل مرة أخرى . وما من أحد يطلب من الله هذا الطلب إلا الشهيد . ولما تمثلت روح الشهيد عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله ، قال له الله : تمنَّ علىّ ياعبد الله . قال : يارب أتمنى أن أعود إلى الدنيا لأخبر إخوانى بما أنا فيه من النعيم المقيم . قال له الله : لقد سبق القول منى أنهم إليها لا يرجعون . قال : يارب فمن يخبر إخوانى ؟ قال له الله : أنا الذى أخبرهم . فنزل الأمين جبريل بقوله جل شأنه : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] .

إن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، ويرى مكانه فى الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعين من أهل بيته ، ويزُوج باثنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها . جاء فى صحيح مسلم أن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : ياربنا وأى شىء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يُسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ؛ لما يرون من ثواب الشهادة . فيقول الرب جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

وقد اقتضت سنة الله تعالى فى خلقه أن يبتليهم بأنواع من البلاء ليتبين الصابر من الجزع ، وليجزى الصابرين ويوفيهم أجرهم بغير حساب . وقد تتعدد ألوان البلاء من جـوع وخوف ونقص من الأمـوال والأنفس والثمرات . وما من شك فى أن هذه الأنواع التى وردت فى قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ . ما من شك أنها جاءت مخففة ، وذلك من لطف الله بعباده . وجاء التعبير فى الآية ﴿ بشىء ﴾ ولم يقل ولنبلونكم بالخوف والجوع وإبادة الأموال والأنفس والثمرات . ذلك كله دليل على أن الله لطيف بعباده . وجاء التعقيب فى آية البلاء مبشرا للصابرين . وهنا يعلم الله الصابرين ماذا يقولون عند حلول البلاء فيقول : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبـة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

قال عمر رضى الله عنه : « ما أصابتنى مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم : الأولى أنها لم تكن فى دينى . الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت . الثالثة : أن الله يجازى عليها الجزاء الكبير . ثم تلا قوله تعالى :

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٦٩ ، ١٧٠

﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ . قال عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ فهذان العدلان ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ فهذه العلاوة ، وهى ما توضع بين العدلين ، وهى زيادة فى الحمل ؛ فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا .

قال ﷺ : (إذا مات ولد لعبد ، قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد)[١] .

وقال على بن الحسين زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد : أين الصـابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة ـ فيقولون : إلى أين يابنى آدم ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا ، قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٢] وقال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول الله : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة : عن أم سلمة قالت : أتانى أبو سلمة يوما من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سررت به قال : (لا يصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها) ، ثم رجعت إلى نفسى . فقلت من أين لى خير من أبى سلمة ؟ فلما انقضت عدتى استأذن علىّ رسول الله ﷺ وأنا أبغى إهاباً لى ، فغسلت يدى من القرظ وأذنت له ، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف ، فقعد عليها فخطبنى إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته قلت : يارسول الله ما بى أن لا يكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة فىّ غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى شيئا يعذبنى الله به ، وأنا امرأة قد دخلت فى السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : (أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عزّ وجلّ عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالـك عيالى) قالت : فقد سلمت لرسول الله ﷺ . . فتزوجها رسول الله ﷺ ، فقالت أم سلمة بعد : أبدلنى الله بأبى سبلمة خيرا منه : رسول الله ﷺ[٣] .

يروى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجدين الوجع فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه . . وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ١٣١ ط دار الفكر .
(٢) سورة الزمر آية : ١٠
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٥ ط الشعب .

بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات .

وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر . ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾(١) وقال عزّ وجلّ : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾(٢)

قال ﷺ : (اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير) .

واعلم بأن الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . وقد قيل فى معناه :

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

وقيل :

الصبر يجمل فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

الصفا والمروة

* ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨)

بعدما أمر الله تعالى الجماعة المسلمة بالتوجه إلى المسجد الحرام بمكة ، ناسب ذلك أن يبين بعض أفضال هذا البلد الأمين ، فوجه الأنظار إلى بعض شعائر الحج . ولما كان الحج إلى البيت الحرام بمكة ، فإن السعى بين الصفا والمروة من شعائر الحج . فى هذا البلد الذى أمر الله بالتوجه إليه فى الصلوات ، ولكل مسلم مهما بعدت دياره ، فالقبلة واحدة للأمة كلها فى مشارق الأرض ومغاربها . ولنأخذ فى بيان المفردات

الصفا والمروة : جبلان . **شعائر الله** : جمع شعيرة ، وهى العلامة . والمراد بشعائر الله هنا : مناسك الحج .

حج البيت أو اعتمر : الحج فى اللغة : القصد ، وفى الشرع : قصد مكة لأداء النسك . والعمرة : الزيارة ، واعتمر : زار ، وفى عرف الشارع هى كالحج فى الطواف والسعى ، لكن ليس فيها وقوف بعرفة ، وليس لها زمان محدود . **فلا جناح** : فلا إثم . **تطوع** .. فعل الطاعة فرضا أو نفلاً .

وقد وردت أحاديث نبوية فى سبب نزول هذه الآية نذكر بعضها لتتضح الصورة ويتبين القصد : روى الإمام أحمد بسنده عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : « أرأيت قول الله تعالى ﴿ إن الصفا والمروة من

(١) سورة المنافقون آية : ٩ (٢) سورة التغابن آية : ١٤

شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ قلت فو الله ما على أحد جناح أن يطوف بهما . فقالت عائشة : بئسما قلت ياابن أختى ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه ، لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت لأن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل ، وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة . فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقالوا : يارسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية . فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ قالت عائشة ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما » أخرجه الصحيحان .

وقال رجال من أهل العلم : يقولون إن الناس ، إلا من ذكرت عائشة ، كانوا يقولون : إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة . فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فلعلها نزلت فى هؤلاء وهؤلاء .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل : صح أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ثم قال (أبدأ بما بدأ الله به) .

وكان رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة يقول للناس : (اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى)[1] . ومن هذه الأحاديث رأى الشافعى ورواية عن أحمد والمشهور من مذهب مالك أن السعى بينهما ركن من أركان الحج . ورأى بعض الفقهاء أنه واجب ، فإن تركه لزمه دم . ورأى أبو حنيفة أنه مستحب ، والراجح الرأى الذى يرى أنه ركن ، وذلك لأن الأدلة تساعده .

ولقد سعى رسول الله ﷺ وقال : (لتأخذوا عنى مناسككم) . وقد ورد عن ابن عباس أن أصل ذلك السعى مأخوذ من طواف هاجر وطلبها وترددها بين الصفا والمروة فى طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك وليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفد ما عندهما ، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل ، فلم تزل تتردد فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطربة فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التى ماؤها « طعام طعم وشفاء سقم » . فعلى الساعى بينهما أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله فى هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يتجه إلى الله عز وجل لتفريج ماهو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصى إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام[2] .

قوله تعالى : ﴿ من شعائر الله ﴾ أى مما شرع الله ، أما قوله جل شأنه : ﴿ من تطوع خيرا ﴾ ، فهذا

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٧ ، و ٢٨٨ ط الشعب .

النص يشمل جميع العبادات ، أى فمن زاد عن الفريضة فى الصلوات والزكاة والصيام والحج ﴿ فإن الله شاكر ﴾ يجزى الجزاء الأوفى ، فيكافىء على الحسنة مكافأة كبيرة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[١] .

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾[٢] .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

وما من شك فى أن التطوع فى العبادات كلها له عند الله منزلة عليا . أخبر مولانا جل جلاله فى الحديث القدسى الجليل : (ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها) .

والمحسنون لهم على إحسانهم ... يوم الإثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن ... عدد وعن وزن وعن مكيال

النهى عن كتمان العلم

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

المفردات ﴿ يكتمون ﴾ الكتمان : الإخفاء والستر . ﴿ يُنْظَرُون ﴾ : يمهلون .

العلم أمانة ، والأمانة واجبة الأداء ، فمن كتم العلم فقد خان الأمانة . وقد قال مولانا جل جلاله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[٣] والعالم الذى يؤدى الأمانة ويبلغ العلم للناس يرفعه الله درجات ؛ قال النبى ﷺ : (بلغوا عنى ولو آية)[٤] وقال : (نضر الله امرأً سمع مقالتى فوعاها ثم أداها كما سمعها . . فرب مبلغ أوعى من سامع)[٥] واعلم بأن الله تعالى وملائكته وحملة

(١) سورة الأنعام آية : ١٦٠ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٦١ .
(٣) سورة الأنفال آية : ٢٧
(٤) الجامع الصغير جـ١ ص٤٨٨ ط دار الفكر .
(٥) المصدر السابق جـ٢ ص٦٧٤ ط دار الفكر .

عرشه ، حتى النملة فى جحرها والحوت فى البحر ، يصلون على معلم الناس الخير . هذا جانب مشرق مضىء ، يقابله على الجانب الآخر كتمان العلم ، وهو جانب مظلم معتم ؛ قال فيه النبى ﷺ (من سأل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[١] .

وجاء فى الصحيح عن أبى هريرة قال : لولا آية فى كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى . . . ﴾[٢] .

وقد أخذ الله العهد على العلماء أن يبينوا ما فى الكتاب ونهاهم عن كتمانه ، قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾[٣] والذين كتموا أو يكتمون ما أنزل الله من البينات والدلائل على صدق رسول الله ﷺ وإثبات نبوته وما أنزل الله من طرق الهدى والرشاد ، بعدما وضح الله كل ذلك فى كتبه ، وظهر للناس واضحاً جلياً ، كان على العلماء أن يرشدوا ويبينوا ويبلغوا رسالات الله ، كما قال تعالى : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾[٤] . واثنان إن صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الأمة : العلماء والأمراء ؛ وقد رفع الله مكانة العلماء ، حيث جعلهم مع الذين شهدوا أنه لاإله إلا الله حيث قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لاإله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٥] ، وقال فيهم رسـول الله ﷺ (العلماء ورثة الأنبيـاء)[٦] وجعلهم الله تعالى أهل خشيته فقال : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[٧] .

إذا كان هذا الفضل للعلماءالعاملين المبلغين ، فإن الذين يكتمون العلم استحقوا من الله أن يلعنوا ، واستحقوا أن يلعنهم كل شىء ، حتى الحوت فى الماء والطيرفى الهواء ، وليس اللعن أمراً سهلاً ، إنما هوطرد من رحمة الله ؛ ومع هذا كله فقد اقتضت سنة الله تعالى ألا يقنط الناس من رحمته ، ففتح باب التوبة ؛ وسبحانه وسعت رحمته كل شىء ، والذنب كالداء ، والتوبة كالدواء ، ولكل داء دواء يستطب به . . فما توبة هؤلاء الكاتمين للعلم ؟ .

قال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم ﴾ أى أقبل منهم توبتهم وأرضى عنهم ، وذلك شأن من شئون الله فإنه هو التواب الرحيم : أما الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، فإنهم لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به ، أولئك مأواهم النار ومالهم من ناصرين . وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وجزاؤهم كذلك خلود فى النار لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون ، أى لا يمهلون ، أى يدخلون النار عقب موتهم : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[٨] وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص٦٠٨ ط الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٨٢ ط. الشعب .
(٣) سورة آل عمران آية :١٨٧ .
(٤) سورة الأحزاب آية :٣٩ .
(٥) سورة آل عمران آية :١٨ .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص١٩٠ ط الشعب .
(٧) سورة فاطر آيه : ٢٨ .
(٨) سورة الأنفال الآيتان : ٥٠ ، ٥١ .

بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾[١] وقال تعالى فى شأن قوم نوح : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾[٢] .

وفى شأن آل فرعون قال تعالى : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غُدُوا وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[٣] . فهل هناك إمهال لهؤلاء الظالمين ؟ إنهم يبدءون العذاب وهم فى سكرات الموت .

﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾[٤] .

فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

التوحيد وأدلته

وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

المفردات : ﴿ وإلهكم ﴾ الإله : المعبود بحق أو باطل ، والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين (الفلك) ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع . وبث : فرق ونشر ومنه كالفراش المبثوث . ﴿ دابة ﴾ الدابة فى اللغة : كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان مأخوذ من الدبيب ، وهو المشى رويداً ، وقد خصه العرف بالحيوان ، ويدل على المعنى اللغوى قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنة ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ﴾[٥] ، فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان.﴿ تصريف الرياح ﴾ : الرياح جمع ريح ، وهى نسيم الهواء ، وتصريفها : تقليبها فى الجهات ونقلها من حال إلى حال ، فتهب حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وملقحة للنبات وعقيماً ﴿ المسخر ﴾ : من التسخير ، وهو التذليل والتيسير .

قضية التوحيد فطرية مركوزة فى طباع الخلائق ، قال سبحانه : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾[٦] . ولقد أقام القرآن الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على هذه القضية الصادقة التى كانت الركن الأول من رسالات الأنبياء . قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن

(١) سورة الأنعام آية : ٩٣ .
(٢) سورة نوح آية : ٢٥ .
(٣) سورة غافر آية : ٤٦ .
(٤) سورة الأنعام آية : ٩٣ .
(٥) سورة النور آية : ٤٥ .
(٦) سورة الروم الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

أنذر قومك من قبل أن يـأتيهم عذاب أليم * قـال يا قـوم إنى لكم نذيـر مبين * أن اعبـدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾(١) ، وقال جل شأنه : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾(٢) . ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال اعبـدوا الله مالكم من إلـه غيره هـو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾(٣) ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾(٤) . وقال جل شأنه ، حكاية عن موسى وفرعون : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون * قال لإن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾(٥) .. الخ .

وغنى عن البيان ما دار بين إبراهيم وقومه فى قوله جل شأنه : ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ . والآية الجامعة لرسالات الأنبياء نجدها واضحة الدلالة على أن التوحيد رائدهم ، قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين(٦) ﴾ . ولقد قال النبى ﷺ فى شأن كلمة التوحيد : (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة(٧)) ، وقال : (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله(٨)) . ويبين القرآن الكريم أن رسالات الأنبياء كانت تقوم على التوحيد ، قـال تعالى : ﴿ ينـزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾(٩) ، وقال جلت قدرته : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون(١٠) ﴾ . ولعظم هذه الكلمة فإن الله أكد بها قضية التوحيد ، فبعد ما قال وإلهكم إله واحد ، أكدها بقوله لا إله إلا هو ، فهو المعبود بحق ، المستغنى عمن سواه ، المفتقر إليه جميع من عداه ، لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، ومجير كل ملهوف ، وقوة كل ضعيف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ، واحد بلا عدد ، قائم بلا عمد ، دائم بلا أمد ؛ تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ؛ معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ؛ بالبر معروف وبالإحسـان موصوف ؛ أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ؛ ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزىء ، ولا متناه ولا متكيف ، ولا متلون ؛ لا يسأل عنه بمتى كان ؛ لأنه خالق الزمان . قيل للإمام على كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ قال : ومتى لم يكن ؟ هو الأول فلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه ، الباطن فلا شىء دونه ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * له

(١) سورة نوح الآيات : ١ ـ ٣ .
(٢) سورة الأعراف آية : ٦٥ .
(٣) سورة هود آية : ٦١ .
(٤) سورة هود آية : ٨٤ .
(٥) سورة الشعراء الآيات : ٢٣ ـ ٢٩ .
(٦) سورة النحل آية : ٣٦ .
(٧) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٦٢٨ ط دار الفكر .
(٨) المصدر السابق .. جـ٢ ص٤١٢ ..
(٩) سورة النمل آية : ٢ .
(١٠) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على شىء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾(١) .

قيل للإمام الشافعى رضى الله عنه : ما الدليل على وحدانية الله ؟ فقال : ورقة التوت : تـأكلها الدودة فتخرجها حريرا ، ويأكلها الغزال فيخرجها مسكاً ، وتأكلها الشاة فتخرجها بعراً وتأكلهـا النحلة فتخرجها شهداً ، فمن الذى نوع الأشياء والأصل واحد ؟ .

الشمس والبـدر من أنـوار حكمتـه   والبـر والبحـر فيض من عـطايـاه
الـوحش مجّـده والـطير سبّحـه   والمـوجُ كبّـره والحـوت نـاجـاه
والنمل تحت الصخور الصم قـدّسه   والنحـل يهتف حمـداً فى خـلايـاه
والنـاس يعصونـه جهـراً فيستـرهم   والعبـد ينسـى وربى ليس ينسـاه

إننى ما زلت أذكر ، ونحن فى مراحل التعليم الأولى ، وكنا أطفالاً صغاراً ، هذه الأناشيد التى نرددها فى الصباح ، قبل استقبال الدراسة ، وكانت تفيض إيماناً وتوحيدا ونوراً وتشع جمالاً وجلالا وكمالاً :

انـظر لـتـلك الـشـجـرة   ذات الـغـصـون الـنـضـرة
كـيـف نمـت مـن حـبـة   وكـيـف صـارت شـجـرة
فـانـظر وقـل مـن ذا الـذى   يخـرج مـنـهـا الـثـمـرة
ذاك هـو الله الـذى   أنـعـمـه مـنـهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة   وقـدرة مـقـتـدرة

* * *

وانـظر إلى المـرء وقـل   مـن شق فـيـه بـصـره
مـن الـذى جـهـزه   بـقـدرة مـفـتـكـرة
ذاك هـو الـذى   أنـعـمـه مـنـهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة   وقـدرة مـقـتـدرة

* * *

وانـظر إلى الـشـمس الـتـى   جـذوتهـا مـسـتـعـرة
فـيـهـا ضـيـاء وبهـا   حـرارة مـنـتـشـرة
مـن ذا الـذى أوجـدهـا   فـى الجـو مـثـل الـشـررة
ذاك هـو الله الـذى   أنـعـمـه مـنـهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة   وقـدرة مـقـتـدرة

* * *

(١) سورة الحديد الآيات : ١ - ٣ .

وانظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم كالدرر المنتشرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

إن هذه الأبيات إنما ترشدنا إلى قاعدة أصيلة دارت حولها الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً ، وأنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، واحد فى ذاته لا قسيم له ، واحد فى صفاته لا شبيه له ، واحد فى أفعاله لا شريك له ، لا يسأل عنه سؤال إحاطة بأين هو ؛ لأنه خالق المكان ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾[1] ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾[2] . إن هذا الدليل الذى عقد عليه المفكرون أدلتهم ، هو دلالة الأثر على المؤثر ، وتحت هذا القانون تندرج أدلة فرعية هى : دليل التكوين ودليل الارتباط ودليل الإتقان ودليل العناية ، ودليل الواجب الذى قال به الفلاسفة ، ودليل الشكل الذى قال به رينيه ديكارت ؛ وما أغنانا عن كل هذه الأدلة بجانب قوله جل شأنه : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[3]هذه الآية جمعت فأوعت ودلت فصدقت وبينت فأحكمت ، ولا شك أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . إن الله جلت قدرته لما قرر أدلة التوحيد سبقها بصفتين كريمتين من صفاته ، فقال ﴿ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾أى أنه هو المالك المتصرف فى ملكه ، إلا أنه وصف نفسه بالرحمة ، فهو رحمن الدنيا الذى رحم الجميع وشملهم بلطفه وبره ، ورحيم الآخرة الذى اختصت رحمته بالمؤمنين . قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[4] ، فمن حق هذا الواحد الأحد أن يُعبد وحده وألا تقابل رحمته بالجحود والإنكار . ولنأخذ الآن فى بيان الأدلة :

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والأفلاك ومدارها ، والأرض واتساعها ، والبحار وأمواجها ؛ الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ، ويسبح بحمده ، ويعلن بشكره ولا يغفل عن ذكره .

ولقد بدأت الأدلة فى تلك الآية بذكر الكونين : الكون المكانى والكون الزمانى ، فالكون المكانى جاء فى خلق السموات والأرض ، والكون الزمانى جاء فى اختلاف الليل والنهار ، واختلافهما يدور حول الطول والقصر والحر والبرد والظلمة والضوء ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها

(١) سورة الشورى آية : ١١
(٢) سورة طه آية : ١١٠
(٣) سورة البقرة آية : ١٦٤
(٤) سورة الأحزاب آية : ٤٣

أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[١] . ثم تنتقل بنا الآيات من الكون إلى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس من البضائع والسلع والتجارة والصناعة وغير ذلك ، وإنها لسفن عظيمة تمخر عباب الماء طولاً وعرضاً ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٢] .

ونأتى بعد ذلك إلى عالم الماء والرياح والسحاب ، فنستمع إلى منطق العلم ولغة الحقائق تحدثنا عن هذه الآيات ؛ تقول الحقائق العلمية : فما هو السحاب ؟ هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العليا كما يتكاثف الضباب فى الطبقات القريبة من الأرض ، ولابد لتكوين السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرهما فى الهواء العلوى : الأول أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار ، والثانى أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكل هواء يكفى فى زيادة تشبعه أن يبرد تبريدا كافياً ، لكن من الواضح أنه كلما كانت نسبة الرطوبة فى الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر . فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الأساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء ، وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجو فى تلك المناطق ، وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا ، فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدريج كلما زاد الارتفاع ، ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع ؛ أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد ، لأنه يتمدد أثناء صعوده ويزداد كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها ؛ فالهواء إذا صعد يبرد مرتين : مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ، ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معا ، حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد وكونت سحبا عظيمة ، قاعدتها أفقية ، حيث ابتداء التشبع ، وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو ، وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل من تمددها ؛ هذا هو السحاب الركام ويكثر فى العواصف الرعدية ويكون عندئذ عظيم العمق والارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية ، فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الأولى وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيراً ما تكون فوق مقدرة الريحين أن تحملاها فى درجة الحرارة الناتجة ، أى كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين دافئة وباردة ، ريح واحدة فوق المشبعة ، وقد كان الريحان من قبل غير مشبعتين .

وقد تمر الباردة من تحت الساخنة فى الطبقات العلوية فيتكون السحاب بينهما عند محتكهما ويكون السحاب آنئذ متموجا الهواء عند ملتقى الريحين ، وللرياح فضل عظيم فى تكوين السحاب وتوزيعه ، لكن سر الرياح وتقلباتها لم يدرك العلم غوره إلى الآن .

---

(١) سورة يس الآيات : ٣٧ ـ ٤٠

(٢) سورة النحل آية : ١٤

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال ، وهذه تفعل فعلها بطريقتين : طريق تبريد الرياح الأفقية التى تصطدم بأعاليها ، لأن أعالى الجبال الشامخة شديدة البرودة ، فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع ، وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ويصبح الماء يسيل على جوانب الجبال . هذا طريق ، والطريق الثانى طريق مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها . فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية ، حيث يتكاثف بخارها سحاباً ، ويتكاثف سحابها مطرا على أعالى تلك الجبال . لكن التبريد إلى ما فوق التشبع لا يكفى وحده فى تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغاً عظيماً ، بخلاف ما إذا كان فى الهواء ما يتكاثف البخار حوله كالغبار ، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلاً عن درجة التشبع أو درجة (الندى) ، كما يسمونها ، وجسيمات الغبار الخفية والمرئية ليست هى كل ما يتكاثف عليه بخار الماء فى الهواء ، ولو كانت هى كل ما يمكن أن يصلح ندى لقطيرات الماء فى الهواء فوق المشبع ، لعز تكوين السحاب ولاقتصر على المناطق التى يكثر فى أجوائها العليا هذا الغبار . لكن الذى قدر الأشياء وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء جعل مما يتكاثف عليه البخار فى أعالى الجو أشياء أخرى غير الهواء ، هى الذرات والجزيئات الغازية المجهرية المعروفة بالأيونات أو الأويلبات ، جمع الأويلب تصغير آلب من الفعل ألب بمعنى ساق وجمع واجتمع وأسرع كما فى القاموس .

وعوامل أولين أو تأيين الهواء ، أى تكوين الأيونات أو الأويلبات ، فيه متعددة : منها النيران ، فإن النار ، فيها غازات محملة بالنوعين ، الموجب والسالب . ومنها الضوء فإن أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء أيّنته أو أولبته ، فيتكون فى مسار كل شعاع عدد كبير أو صغير من الأيونات ، ومنها الأشعة النفاذة الجيمية التى تخرج من العناصر الشعاعة الموجودة فى القشرة الأرضية ، أو الأشعة النفاذة الكهربائية المصدر ؛ المعروفة بأشعة رنتجن ، ومنها احتكاك الماء فى البحار بتلاطم الأمواج بعضها ببعض ، وبالساحل أو بالصخور . فقد عرف أن الكهرباء تتولد بالاحتكاك ، والبخار الذى يتصاعد من المياه المتلاطمة يحمل هذه الكهرباء ، بعضها أو كلها ، إلى الطبقات الجوية ، وكل جزء من جزئيات هذا البخار المكهرب ، كغيره من الأيونات ، يصلح أن يكون نواة يتكاثف عليها البخار . فأنت ترى أن جميع ما يساعد على تكوين السحاب موجود فى الطبقات العليا الجوية سواء أكان من ناحية البرودة أم من ناحية النويات اللازمة لتكاثف البخار إذا تجاوز الهواء درجة التشبع ولو قليلاً بالتبريد .

إن هذه الآية الكريمة كأنها أسطول قرآنى استعرض قطعه على أمواج بحر زاخر ، واشتمل هذا الأسطول على ست قطع كلها ترفع رايات التوحيد : خلق السموات والأرض ، ثم اختلاف الليل والنهار ، ثم الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، ثم وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، ثم تصريف الرياح ، ثم السحاب المسخر بين السماء والأرض . ولقد تبين لنا مما قاله العلم الصلة الوثيقة بين السحاب والرياح ، ومعنى تصريفها ، أى تنوعها واختلافها ، ولنذكر الآن عن المطر الذى ينزل من السماء .

إن تكوّن السحاب لا ينفع الناس شيئاً إذا لم يكن فى الإمكان أن ينزل ماؤه عليهم مـطرا ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا نمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء . إن القطيرات السحابية خاضعة طبتاً للجاذبية ، فهى تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ، ولو كان ساكنا ، يقاوم مرورها فيه . والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء . إن الجاذبية إنما تؤدى مهمتها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية ، وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية ، وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

وقد ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ ، الآيات هى البراهين والدلائل لمن كان له قلب يعقل به أو ألقى السمع وهو شهيد ، فمن لم يعقل هذه الآيات فقد فقد كل شىء : فقد القلب والعقل ، فقد الفكر والتدبر ، وهنا ينطبق عليه قوله جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[1] .

لا محل للمصادفة فى هذا الكون

إن كوناً يقوم على العناية والقصد والإرادة الإلهية والإتقان ، لا يمكن أن يكون للمصادفة محل فيه ؛ ولقد وقع [illegible] جسيماً عندما قالوا إن العالم نشأ مصادفة ، حيث تجمعت الجزئيات لتكون الذرة مصادفة [illegible] الذرات على نسب وأوضاع مخصوصة لتكون العناصر الأصلية مصادفة ، ثم تلاقت العناصر الأصلية [illegible] بنسب صالحة وفى مدد كافية وفى أجواء ملائمة ، فكان الإنسان وكل الحيوانات والنباتات [illegible] مصادفة .

وبأيسر [illegible] الأمثلة . يتضح لنا بطلان ما نادى به الماديون الملحدون ، وقد ساق الأستاذ نديم الجسر [illegible] قصة [illegible] العلم والفلسفة » أمثلة أبطل بها ما يقوله هؤلاء الذين صدق فيهم قوله تعالى : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ۞ الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾[2] يقول الأستاذ نديم الجسر : لو أعطينا رجلاً عاقلاً مبصراً صندوقاً به مئات الآلاف من حروف الطباعة ، وطلبنا منه بعد إغلاقه أن يستمر فى تحريكه لأى مدة شاء وليأت لنا فى النهاية بقصيدة لامرئ القيس أو لعنترة ، فهل يمكن بالمصادفة أن يحدث ذلك ؟ إننا نقول لمن يجيب بنعم أن يبدأ بإجراء التجربة إلى نهاية عمره وليقل لنا ما هى النتيجة ؟ وإذا كانت المصادفة مع الأشياء المتزاحمة المحدودة مستحيلة فكيف يتصور عاقل حدوث هذا الكون بالمصادفة ؟

يقول « كريس موريسون » الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك : « إن الأكسجين والهيدروجين وثانى أكسيد الكربون والكربون هى العناصر الرئيسية البيولوجية ، وهى عين الأساس الذى تقوم عليه

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .

(٢) سورة الكهف الآيتان : ١٠٠ ، ١٠١ .

الحياة ، غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضى بأن تكون كلها فى وقت واحد ومن كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة ، وليس لدى العلماء إيضاح بهذه الحقائق ، وأما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية » .

ويقول جون أدولف بوهلر أستاذ الكيمياء بكلية أندرسون : « عندما يطبق الإنسان قوانين المصادفة لمعرفة احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى الطبيعة مثل تكون جزىء واحد من جزيئات البروتين من العناصر التى تدخل فى تركيبه ، فإننا نجد أن عمر الأرض الذى يقدر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو أكثر ، لا يعتبر زمناً كافياً لحدوث هذه الظاهرة وتكوين هذا الجزىء عن طريق المصادفة » .

ويقول سوارتزن عضو جمعية علم التربة بأمريكا بعد حديث طويل عن الكون والنظام فيه : « من الطبيعى أن يتساءل الإنسان بعد ذلك : لماذا وجدت هذه القوانين ولماذا قامت بين الأشياء المختلفة ومن بينها التربة والنبات ؟ تلك العلاقات العديدة التى تتسم بذلك التوافق الرائع بين القوانين ، مما يؤدى إلى تحقيق النفع والفائدة . كيف نفسر كل ذلك الإبداع الذى يسود هذا الكون ؟ هنالك حالان : فإما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة ، وهو مالا يتفق مع المنطق أو الخبرة ، ومالا يتفق فى الوقت نفسه مع قوانين الديناميكا الحرارية التى يأخذ بها الحديثون من رجال العلم ؛ وإما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبر ، وهو الرأى الذى يقبله العقل والمنطق . وهكذا نرى أن العلاقة بين النبات والتربة تشير إلى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره » .

بطلان القول بالطبيعة

يقول صاحب كتاب « فى العقيدة الإسلامية والأخلاق » : من الغريب أن أى انتصار يحققه عالم مادى فى مجال المادة يجعله فخوراً مزهواً بنفسه . وهو يقول : لقد قهرت الطبيعة . بينما هو فى نفس الوقت يعتقد أن الطبيعة هى خالقة كل ما فى الوجود ، أو هى التى تمنح الحياة لكل حى فى الكون . فكيف يكون إلها ذلك الذى يقهره الإنسان ، ومن ثم يعبده ؟ إن القول بالطبيعة عود بالعقل البشرى إلى الوثنية الأولى ، فلقد فكر الإنسان الأول فيما حوله ، وحاول تفسير ما يحيط به من أشياء ، وحينما سيطر الغموض عليه شعر بضعفه وكان له أن يلتمس العون من قوى أخر ، فألَّه الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار والأبقار » .

وجاءت الرسالات السماوية لتنير الطريق أمام البشر ولتجعلهم سادة على كل ما فى الكون ؛ إلا أن بعض العقول لا ترضى بالسيادة ، بل تطمح وتعشق العبودية ، ولهذا راحت فى عصرنا الحاضر تجمع الأوثان السابقة تحت اسم الطبيعة وتدعى أنها هى الخالقة .

ولنا أن نسأل : ما هى الطبيعة ؟ أهى الماء والنار والتراب والهواء ؟ أهى الأرض والشمس والقمر والكواكب الأخرى ؟ أهى القوانين التى يخضع لها الكون من الذرة إلى المجرة ؟ أهى الصفات والخصائص التى تلازم المادة من حركة وسكون واجتماع وافتراق وقابلية للنمو والتغذى والتوالد والتكون ؟ أهى الزمان والمكان وما يحدث فيهما ؟

وللحقيقة ، فأيا كان الجواب ، فنحن نسأل سؤالاً آخر : ما هو الإنسان ؟ والإجابة نعرفها جميعاً : إنه حيوان ناطق مريد . ولقد اقتضى النطق أن يكون مفكراً حياً سميعاً بصيراً ذا إحساس خاص ، فهو وحده الذى يفرق بين العدل والظلم والفضيلة والرذيلة ، واقتضت الإرادة أن يكون ذا ضمير ونوازع ورغبات وآمال .

وبالعقل والإرادة استطاع الإنسان أن يخضع الطبيعة وأن يسخرها لخدمته ، ونعنى بالطبيعة هنا كل المفاهيم التى يقول بها الماديون .

وإذا كان الإنسان له هذه القدرات والصفات ، فهل استطاع أن يخلق أى شىء ، وهو جزء من الطبيعة وأرقى ما فيها ؟ وهل استطاع أن يفسر كل ما يحيط به وأن يصل إلى كل القوانين التى تحكم الكون ؟ لقد أثبت القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الكون مخلوق وعلى هذا نكرر السؤال : من خلقه ؟.

والإنسان ، وهو السيد العاقل المدبر المختزن للمعلومات والمسخر لكل الآلات ، لم يخلقه لأنه مخلوق ، فهل يعقل أن تخلق المادة الصماء نفسها ؟ وهل يعقل أن تصنع المادة كل هذه التنظيمات فى الكون ؟ وهل يعقل أن تخلق المادة الصماء ــ مع كل ما يحيط بها من قوانين ــ الإنسان العاقل ؟.

إن فاقد الشىء لا يعطيه ، والطبيعة جاهلة لا تعى شيئاً ، وعلى هذا نقول : إنه من المستحيل أن يكون العقل فى الإنسان ممن لا عقل له ، والإرادة فى الإنسان ممن لا إرادة له ، والسمع فى الإنسان ممن لا سمع له ، والبصر فى الإنسان ممن لا بصر له ، والمشاعر والأحاسيس والأحكام والأخلاق ممن لا مشاعر ولاأحاسيس ولا أحكام ولا أخلاق له .

إن القول بالطبيعة قول بإلغاء العقل فى الإنسان ، وبإلغاء قانون النسبية وقانون التناقض . . فالأرض تخلق الأرض والشمس تخلق الشمس والنبات يخلق النبات والإنسان يخلق الإنسان وهكذا ، أو قل ــ إن شئت ــ إن صفات الإنسان تخلق الإنسان ، وصفات الأرض تخلق الأرض ، ويعنى هذا أن المعدوم يخلق وجوده والوجود يوجد نفسه وهذا ظاهر البطلان .

يقول سيسيل هافان العالم الجيولوجى بجامعات أمريكا : (الحق من قطرة الماء التى رأينا تحت المجهر ، إلى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر ، لا يسع الإنسان إلا أن يمجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه ، ولولا ثقة الإنسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها لما أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها ، ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها عن المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة ، فأى تقدم كان يمكن أن يحققه الإنسان ؟ لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى ، فليس مما يقبله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم مبدع ، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادى قائلاً : إن الله هو الخالق وليس الإنسان إلا مستكشفاً) .

ويرد سانتلانا على من يقول بأن الطبيعة هى الخالقة قائلاً : أما القول بالطبيعة وأن لا شىء غيرها ، فهو لا يرضى العقل المتبصر .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول ، وكيف اجتمعت تلك الأجزاء وكيف تآلفت على اختلاف أشكالها وتباين مواردها ؟ وكيف بقيت على تآلفها ؟ وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟ . هذا . . إذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شىء سواها ، فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه ؟ وهى مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ ، من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم . . هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة والمآخذ العميقة وما خفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء ؟ .

إن المادة غير قادرة لأن تكون علة نفسها ، فمن باب أولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً فى درجة الوجود ، وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .

ونختم الكلام عن الطبيعة بقول كلووم هاتاواى ، مصمم العقل الالكترونى للجمعية العالمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلى فيلد : (إن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها . . إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين ولابد له من سبب أولى لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولابد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته ، إنه هو الله اللطيف الخبير) .

صدقت يارب العالمين إذ قلت : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾[١] .

نشهد أنك أنت الواحد لا شريك لك وأنت القائل وقولك الحق : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾[٢] وصدقت وقولك الحق : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ . ولو أخذنا نعدد آلاءك وكلماتك ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، ولما استطعنا أن نصل إلى شاطىء البحر الخضم .

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾[٣] . ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا

---

(١) سورة العنكبوت الآيات : ٤٣ - ٤٥ .
(٢) الآيتان ١٠ ، ١١ سورة لقمان .
(٣) سورة لقمان الآية : ٢٧ .

بمثله مددا * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[1] قال موسى : يارب علمنى شيئاً أدعوك وأذكرك به . قال له يا موسى قل : لا إله إلا الله قال موسى : يارب كل عبادك يقولونها . قال : يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة لمالت بهن لا إله إلا الله .

المشركون وآلهتهم

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

المفردات : ﴿ أنداداً ﴾ : جمع ند وهو المماثل ، والمراد بها الأوثان والأصنام .

﴿ أسباب ﴾ : جمع سبب ، وأصله الحبل ، والمراد بـه ما يكـون بين النـاس من روابط كالنسب والصداقة .

﴿ كرة ﴾ : الكرة الرجعة والعودة إلى الحالة التى كان فيها .

﴿ حسرات ﴾ : جمع حسرة ، وهى أشد الندم على شىء فائت ، وفى التنزيل : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ﴾ .

وبعد وضوح الأدلة وقوة البراهين على وحدانية الله ، يخبر تعالى أن هناك من الناس فريقاً أشرك معه غيره ، فاتخذ أنداداً وأصناماً وأوثاناً أحبوهم كحب الله وهم يعلمون أنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؛ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون . وإن تدعوهم فلن يسمعوا ولن يبصروا . قال جل جلاله : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾[2] .

أما الذين آمنوا فهم أشد حباً لله ، فهو صاحب الإنعام والإكرام ، هو الرحمن الرحيم ، هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور . ولو أن هؤلاء الظالمين رأوا

(١) سورة الكهف الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) سورة فاطر آية : ١٤ .

العذاب لعلموا أن القوة لله جميعاً ، فهو القوى المتين المتصف بصفات الكمال والجلال : ﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد ﴾(١) ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ فالقوة لـه جميعاً وهـو شديـد العذاب : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً * وجاء ربك والملك صفاً صفاً * وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنَّى له الذكرى * يقول ياليتنى قدمت لحياتى * فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد ﴾(٢) .

أما حال هؤلاء فى الآخرة فإنها حال تدعو إلى الأسى والألم ، فالأسياد منهم والمستكبرون يتبرأون من الأتباع المستضعفين : ﴿ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾(٣) . وتقطعت الصلات بين الضعفاء والمستكبرين فتمنى الأتباع لو يعودون إلى الدنيا مرة أخـرى ليتبرأوا من المتبـوعين ، ولكن هيهـات . . هيهات ؛ إنها الحسرة ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنا كلٌ فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾(٤) . نعم إن حكم الله عادل ، نعم إنها كلمة الله وما هم بخارجين من النار ﴿ وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب * قالـوا أو لم تك تـأتيكم رسلكم بالبينـات قالـوا بلى قـالوا فـادعوا ومـا دعاء الكـافرين إلا فى ضلال ﴾(٥) ، إنهم بعد ذلك يتوجهون إلى خازن النار ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون(٦) ﴾ فيتوجهون بعد ذلك إلى الجبار جل جلاله و ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظـالمون * قـال اخسئوا فيهـا ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون * إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾(٧) . وهكذا تنفصم العرى بين قوم اجتمعوا على ما يغضب الله فلا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون .

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾(٨) .

فيا أيها العاقل الرشيد لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقى ؛ واعلم بأن خير الأصحاب من إذا ذكر الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ؛ وشـر الأصحاب من إذا ذكـر الله لا يعينك ، وإذا نسيت لا يذكرك . فاللهم إنا نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يـوم الحشر ، ولـذة النظر إلى وجهك الكريم .

---

(١) سورة البروج الآيتان : ١٢ ، ١٣ .
(٢) سورة . الفجر الآيات : ٢١ - ٢٦ .
(٣) سورة إبراهيم آية : ٢١ .
(٤) سورة غافر الآيتان : ٤٧ - ٤٨ .
(٥) سورة غافر الآيتان : ٤٩ - ٥٠ .
(٦) سورة الزخرف الآيتان : ٧٧ - ٧٨ .
(٧) سورة المؤمنون الآيات : ١٠٦ - ١١١ .
(٨) سورة الزخرف الآيات : ٦٧ - ٦٩ .

إن الدنيا ساعة فاجعلها طاعة ، والنفس طماعة عودها القناعة .

تـزود مـن حيـاتـك لـلمعـاد وقـم لله واجمـع خـير زاد
ولا تـركـن إلى الـدنيـا كثيـراً فـإن الـمـال يجـمـع للنـفـاد
أتـرضـى أن تكـون رفيـق قـوم لـهـم زاد وأنـت بـغـير زاد

﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾[1] ، واعلم بـأن كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ؛ واسأل الله حسن الخاتمة ، وأكثر من قول : يا حى يا قيوم بـرحمتك أستغيث يـاذا الجلال والإكرام ، أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحدٍ أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾[2] .

توجيه وإرشاد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

المفردات : ﴿ خطوات الشيطان ﴾ : جمع خطوة ، وهى فى الأصل ما بين القدمين عند المشى ، وتستعمل مجازاً فى تتبع الآثار . السوء : أصل السوء ما يسوء الإنسان ، أى يحزنه ، ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً ، لأنها تسوء صاحبها ، أى تحزنه فى الحال أو المآل . و ﴿ الفحشاء ﴾ : ما يستعظم ويستفحش من المعاصى ، فهى أقبح أنواع المعاصى . ﴿ ألفَيْنا ﴾ : وجدنا ، ومنه ﴿ وألفيا سيدها ﴾[3] ، ﴿ إنهم ألفَوْا آباءهم ضالين ﴾[4] ، أى وجدوا . ﴿ ينعق ﴾ : يصيح . يقال : نعق الراعى بغنمه نعيقاً ، إذا صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

فانعق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

(١) سورة البقرة آية : ١٩٧
(٢) سورة النور آية : ٢١ .
(٣) سورة يوسف آية : ٢٥ .
(٤) سورة الصافات آية : ٦٩ .

بعد ما بين الله حال فريق من الناس اتخذ من دون الله أنداداً أحبهم كحب الله ؛ والأنداد قد يكونون بشراً أحلوا لأتباعهم أشياء وحرموا عليهم أشياء ، وأطاعهم الأتباع فضلوا وأضلوا . قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يُؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾(١) .

وقد يكون الأنداد أوثاناً عبدوها واعتقدوا أنها تقربهم إلى الله زلفى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾(٢) .

وكلا الفريقين ضال مضل ؛ فالحكم لله وحده ، والتحريم منه وحده : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالاً وحراما قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾(٣) . أما الذين اتخذوا الأنداد وسائط وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فإن الله تعالى يبطل حججهم ويدحض أدلتهم فيقول : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾(٤) ، ويقول : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾(٥) . هؤلاء المتبوعون والتابعون سيكونون أعداء يوم القيامة : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾(٦) ، وتكون العاقبة أن يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم كما سيكون المصير خلوداً فى النار وبئس القرار .

ويتوجه النداء الربَّانى بعد ذلك إلى الناس آمراً وناهياً : أما الأمر : ﴿ **كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً** ﴾ ، وأما النهى : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين** ﴾ . أما الحلال فهو ما أحله الله ، وهو طيب . قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾(٧) . وقد كانت الزوجة المسلمة توصى زوجها وهو ذاهب يستقبل يومه لكسب لقمة عيشه وتقول له : يافلان اتق الله ولا تأكل حراماً ، فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

والحرام ضد الحلال ؛ وقد يكون الحرام محرماً لذاته أو لأمر عارض ، وسيأتى بيان المحرم لذاته فى قوله تعالى : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾(٨) ، وفى قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلىَّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أُهِلَّ لغير الله به ﴾(٩) ، وقد يكون الحرام لأمر عارض كاستغلال النفوذ لأكل أموال الناس بالباطل ، وكما قال

(١) سورة التوبة الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .
(٢) سورة العنكبوت آية : ٢٥ .
(٣) سورة يونس الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٨٦ .
(٥) سورة ق آية ١٦ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٦٦ .
(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .
(٨) سورة النحل آية : ١١٥ .
(٩) سورة الأنعام آية : ١٤٥ .

تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمـون ﴾[١] ، ويدخـل فى ذلك دخـولاً أوّليًا « الـرشوة » ، قـال ﷺ : (لعن الله الـراشى والمـرتشى والرائش)[٢] .

قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرَّم الله ، ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾[٣] . ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾[٤] . وقال جلت قدرته : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾[٥] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾[٦] . وكيف يتبع العقلاء آثار الشيطان وخطواته وقد حذرنا الله من عداوته البينة : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٧] .

إن الذين يتبعون خطوات الشيطان قد ضلوا سواء السبيل ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾[٨] . وإنما نهى الله عن اتباع الخطوات لأن الشيطان لكى يوقع ابن آدم فى المعصية ، فإنه يتدرج به خطوة خطوة بعد ما يزين له سوء عمله فيراه حسنا . قال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾[٩] ، ومن ثم فإن للشيطان خطوات ومقدمات يمهد بها الطريق أمام من يريد إغواءه ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾[١٠] . وقال تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدَيْن فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾[١١] .

وهل نهانا الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان إلا لأن ذلك فيه نفعنا وصلاحنا ؟ ولأن اتباع خطواته فيه شقاؤنا وضلالنا ؟ ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتـوب عليكم والله عليم

(١) سورة البقرة آية : ١٨٨ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٤٠٦ ط دار الفكر .
(٣) سورة المائدة آية : ١٠٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٣٩ .
(٥) سورة النحل الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .
(٦) سورة المائدة الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .
(٧) سورة فاطر آية : ٦ .
(٨) سورة النور آية ٢١ .
(٩) سورة فاطر آية : ٨ .
(١٠) سورة إبراهيم آية : ٢٦ .
(١١) سورة الحشر الآيتان : ١٦ ، ١٧ .

حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾(١) .

قال تعالى مبيناً حكمة النهى عن اتباع الخطوات : ﴿ إنه لكم عدوٌ مبين ﴾ ، وكأن سائلاً قال : بم يأمرنا هذا العدو المبين ؟ فبينَّ الله لنا الحكمة البالغة بأسلوب يفيد الحصر والقصر فقال : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ ، فكأن أمره مقصور على السوء ، وهو كل ما يسيئك فعله من الذنوب ، والفحشاء : وهو كل ما فحش من الموبقات المهلكات بحيث أصبح شنيعاً . وقد تطلق الفحشاء ويراد بها البخل كما فى قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾(٢) .

والفحشاء أشد جرماً من السوء . قال تعالى فى شأن يوسف الصديق لما راودته امرأة العزيز عن نفسه : ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله ﴾(٣) ، قال جل جلاله بعد ذلك : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾(٤) .

ورأى بعض المفسرين أن السوء : هو الشروع فى الذنب ، أى مقدماته ، والفحشاء هو الذنب نفسه ، وهذا قول يوضح الفرق بينهما . وكما يأمر الشيطان بالسوء والفحشاء ، كذلك يأمر أتباعه أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، أى يقولون على الله بالجهل : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾(٥) . وقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لِمَا تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾(٦) . وكما يأمرهم أن يقولوا على الله بغير علم فى الشرائع ، كذلك يأمرهم أن يقولوا على الله بغير علم فى العقائد ، بأن يقولوا إن لله تعالى صاحبة وولدا : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾(٧) ؛ كذلك يأمرهم الشيطان أن يقلدوا الآباء فى الكفر ويسيروا على نهجهم فى الشرك . ومما يزيد الأمر سفهاً وقبحاً أنهم إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ ، أى أيتبعونهم ولو كان الآباء لا يعقلون أى شىء ولا يفقهون ولا يهتدون إلى سبيل الحق ؟ وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾(٨) . وقال جل شأنه : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أَوَلَوْ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾(٩) . ولما كان تقليد هؤلاء القوم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، بينَّ الله حالهم وصفتهم فى مَثَل ضربه لهم ، والمثل يُجاء به لبيان الحال ، حتى إنه يجعل من الأمور المعقولة كأنها أمور محسوسة لشدة وضوحها وبيانها ، قال تعالى : ﴿ ومَثَل الذين كفروا كمثل الذى

---

(١) سورة النساء الآيات : ٢٦ - ٢٨ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٦٨ .
(٣) سورة يوسف آية : ٢٣ .
(٤) سورة يوسف آية : ٢٤ .
(٥) سورة الشورى آية : ٢١ .
(٦) سورة النحل آية : ١١٦ .
(٧) سورة التوبة آية : ٣٠ .
(٨) سورة الزخرف الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .
(٩) سورة لقمان آية : ٢١ .

ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ﴾ ، أى مثلهم فى التقليد واتباع كل ناعق كمثل الراعى الـذى يصيح بالعجماوات التى لا تعقل ، وإنما تسمع الدعاء والنداء فتقبل مرة وتدبر أخرى دونما تعَقّل أو تدَبُّر أو فكر ؛ فهؤلاء الذين عطلوا حواسهم وعقولهم ، وأغلقوا نوافذ المعرفة فقلدوا الباطل ، هؤلاء صم لايسمعون ، بكم لايتكلمون ، عمى لا يبصرون ؛ وفوق ذلك كله لايعقلون . قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكـون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعـون بها فـإنها لاتعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾(١) ، وقال جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(٢) .

نداء إلى المؤمنين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

المفردات : الإهلال : رفـع الصوت ، وكـانوا إذا ذبحـوا لآلهتهم يرفعـون أصواتهم بـذكرهـا ، ويقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ؛ ثم قيل لكل ذابح (مُهِل) وإن لم يجهر بالتسمية ، والباغى الطالب للشىء الراغب فيه ، والعادى المتجاوز قدر الضرورة ، كما جاء فى التنزيل : ﴿ ولا تعد عينـاك عنهم ﴾(٣) ، أى لا تتجاوز إلى غيرهم ، والإثم : الذنب والمعصية .

بعد ما أمر الله تعالى الناس أن يأكلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، خص المؤمنين بالذكر ، وأمرهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله ، ذلك لأنهم أسرع الناس امتثالا لأمر الله واجتنابا لنهيه ، فقال : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾ . وعظمة الإسلام تتجلى فى أنه دين الفطرة ، يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فهو دين الله الذى يعلم مَن خَلَق : ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ . قيل لأعرابى : لِمَ آمنت بمحمد ؟ فقال بإيجاز وجيز : لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء وقال العقل ليته ما نهى .

ولقد شرع الله لعباده من الطيبات مُا يصلح به أبدانهم ونفوسهم ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان الذى حرم على زبانيته ما أحل ، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وكما حرم على أتباعه أكل ما فيه روح أو ما اتخذ مما فيه روح ، ويسمون ذلك صياما . الله تعالى يعلم أن الشياطين لهم شهوة وليس لهم عقل ، وأن

(١) سورة الحج آية : ٤٦ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .
(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .

الملائكة جواهر مجردة من الشهوة ، فهم أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة ، وأن الإنسان مزيج من الجسد والروح . فغذاء الروح من لطائف المعارف ، وفى رياض ذكر الله ، وغذاء البدن فى الأكل والشرب من طيبات رزق الله : ﴿ قل مَن حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾(١) .

ثم أمرهم تعالى بالشكر على نعمائه ، وهل الشكر إلا تسخير الإنسان كل عضو فيه فى طاعة الله : فشكر العينين البكاء ، وشكر الأذنين الإصغاء ، وشكر اليدين العطاء ، وشكر اللسان الثناء ، وشكر الروح الخوف والرجاء ، وشكر القلب التسليم والرضاء . قال موسى : يارب كيف أشكرك ؟ قال : تذكرنى ولا تنسانى ، إنك إن ذكرتنى شكرتنى ، وإن نسيتنى كفرتنى . . اقرءوا إن شئتم : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾(٢) . ولما للشكر من مكانة ، فقد جعله الله تعالى شرطاً فى إخلاص العبادة له فقال : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ . وهل العبادة إلا خضوع مصحوب بالتقديس والتعظيم ؟ ولا يكون ذلك إلا لله وحده .

ثم عدد الله بعد ذلك أنواعا من المطعومات حرمها على عباده ، فقد حرم الميتة ، والميتة ما مات حتف أنفه ، أو ما لم يُذَكَّ ذكاة شرعية ، كما حرم الدم المسفوح . ومن أنواع الميتة : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . وقد أحلَّ الله لنا ميتتين ودمين : السمك والجراد ، والكبد والطحال . كذلك حرَّم علينا لحم الخنزير لما فيه من الأضرار الصحية التى سنبينها فيما بعد . كذلك حرَّم علينا ما يتعلق بانحراف فى العقيدة عند ذبحه ، كأن يذكر عليه اسم غير اسم الله .

وبعد ما بيَّن الله هذه المحرمات من الأطعمة قال : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ ، أى دون بغى أو تجاوز للحدود ، بل كان مضطراً ألجأته الحاجة والضرورة التى بيَّنها الله تعالى فى قوله : ﴿ فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾(٣) ، فمن اضطرته الحاجة فى حال الضرورة إلى أكل شىء من هذه المطعومات ، فإن الله غفور لهذا العمل الذى أتاه المرء دون أن يكون منه بغى ولا عدوان ؛ فالضرورات تبيح المحظورات ، لكن يجب أن يُعلم أن الضرورة تقدر بقدرها بأن تكون بقدر الحاجة دون زيادة عليها ، والله تعالى رحيم بعباده ، لا يكلفهم بما لا يطيقون ، بل يشرع لهم من الدين ما اقتضته رحمته بهم ، وجعل اليسر من خصائص التشريع ، قال تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾(٤) ، وقال جل شأنه : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾(٥) . وما حرم الله شيئا إلا وفيه من وراء التحريم حكمة : ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾(٦) . ولنصغ إلى لسان العلم يحدثنا بتلك الحقائق ، فقد جاء فى كتاب الغذاء والدواء فى القرآن الكريم ما نصه : حرَّم القرآن الكريم لحكمة سامية أكل الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والذبح للأوثان . وورد

(١) سورة الأعراف آية : ٣٢ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٥٢ .
(٣) سورة المائدة آية : ٣ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٨٥ .
(٥) سورة الحج آية : ٧٨ .
(٦) سورة الأنعام آية : ١٤٩ .

هذا التحريم فى الآيات الآتية : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهِلّ به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾، ﴿ حرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ﴾[1] ، ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أودما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أوفسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴾[2] .

وما حرم الله كل ذلك إلا لحكمة ما ولتجنيب الإنسان الأضرار التى تنشأ عن أكلها ، وجميع أنواع اللحوم عدا لحم الخنزير حلال أكلها إذا ذبحت وذكيت بالطريقة المشروعة وذكر عليها اسم الله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم مؤمنين ﴾[3] ، ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾[4] . وعلاوة على أن هذه أمور تعبدية ، يجب على المؤمن الحق أن يمتثل لأوامر الله ونواهيه ويطيع جميع أوامره ، إلا أنها بالإضافة إلى ذلك أسس ولبنات التغذية الصحية ، وكل هذه النواهى إنما كانت من المولى القدير لحكمة بالغة يدركها الإنسان كلما اتسعت مدارك علمه ، وأظهر له البحث والعلم ما فى هذه الأمور من ضرر بالغ يتلف صحته ويودى بحياته ، فالله سبحانه وتعالى أحل الطيبات وحرَّم الخبائث لصالح البشرية وسعادتها . ﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث ﴾[5] . وقد يكون موت الحيوان نتيجة لشيخوخة أو مرض عضوى أو طفيلى، أو نتيجة لتسممه من مصدر خارجى ، ومن ثم يشتمل لحمه على مواد تؤذى من يأكله ، هذا فضلا عن أن الحيوان الذى يموت دون تذكية ينحبس فيه الدم ، وقد يمضى على موته وقت طويل لا يُستطاع تحديده فيتعرض جسمه للتحلل والفساد .

وعند موت الحيونات بمرض ما ، يكون هذا المرض قد استنفد من الحيوان فى مكافحة قواه الحيوية للتخلص منه ، ولما لم يستطع مات بعد أن اضطربت أعضاؤه بتأثير العوامل التى ولدت المرض ، كالجراثيم والسموم الناشئة من فساد أنسجة الحيوان أو قصور أجهزته الإفرازية كالكلى للتخلص من السموم التى تتراكم بلحومها وأعضائها ، ولذلك كان هذا اللحم وتلك الأعضاء مصدرا للضرر بصحة آكليها ، وقد تكون الجراثيم مسببة المرض والوفاة فى الميتة والتى تنتقل بدورها إلى الإنسان فتفتك به .

والدم : هو السائل الذى يتجول فى جميع أجزاء الجسم ويقوم بوظائف فسيولوجية عديدة ، فيأخذ من أنسجة الجسم فضلاتها من سموم وغازات بعد أن يكون قد أوصل لهذه الأنسجة المواد الغذائية لتكوين الخلايا وبناء الجسم ، ويبدو الدم مفعما بالجراثيم فى معظم أمراض الحيوان ، لأن الدم يعتبر مزرعة مناسبة لنمو الكثير منها ، وبيئة صالحة لنمو الميكروبات ، وهو أسرع وسائل عدوى الأمراض ، ولذلك كان التغذى به يعرض الإنسان لانتقال الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان وهى عديدة ، وتنتقل عن طريق الدم

(١) سورة المائدة آية : ٣ .
(٢) سورة النحل آية : ١١٥ .
(٣) سورة الأنعام آية : ١١٨ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٢١ .
(٥) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

الموبوء والذى يعتبر مخزنا لعديد من الجراثيم الضارة . ويزيد من خطر استعمال الدم فى الغذاء صعوبة اكتشاف أكثر الجراثيم والميكروبات التى تصيبه ، وهو بحكم عمله الحيوى يحمل فضلات السموم فى الحيوانات المريضة ، ويحمل الدم بعض الإفرازات الداخلية لبعض الغدد ، وإذا زاد بعضها عن المعدل المناسب يسبب أعراضا سمّية مختلفة .

وحيث إن الدم قد يختزن الميكروبات والسموم والإفرازات التى تجعل الدم خطيرا بنفسه ، كما تجعل اللحم عرضة للفساد والتعفن مما يؤثر فى صحة آكلى هذه اللحوم ؛ فقد كانت حكمة الله الرحيم بعباده أن حرّم أكله ، وأوجب التخلص منه بذبح الحيوان قبل استعمال لحومه للأكل ، لما فى ذلك من محافظة على صحة الإنسان .

لحم الخنزير : الخنزير من الحيوانات التى تأكل القمامة والقاذورات والنفايات ، فهو جامع لمعانى القبح والقذارة والرجس والنجاسة ، ويشتهر بطبائع عارية من الحياء فى تزاوجه ، بالإضافة إلى ما يتعرض له من إصابة بعدد كبير من الطفيليات التى تصيب الإنسان ، كذلك من الفيروسات مثل فيروسات مرض الكلب والحمى الصفراء والسبيركيتات (اللبتوسبيرا) الذى يسبب مرض « حمى العقل » ، وكذلك العديد من الحيوانات الأولية (البروتوزوا) مثل الزحار البلنتيدى وبعض أنواع « التريبانوسوما » . والخنزير من العوامل الخازنة الإضافية لبعض الطفيليات . ويصاب الخنزير بأنواع عديدة من الديدان المفلطحة والأسطوانية وشوكية الرأس . وأهم هذه الطفيليات :

١ ــ الحيوان الأولى الهدبى المسمى « بالأنتيديوم كولاى » المسبب للزحار البلنتيدى الذى يماثل الزحار الأميبى شدة وضراوة وضررا ، ومصدره الوحيد للإنسان هو الخنزير ، ويكاد يكون مرضا مهنيا لا يصيب سوى المشتغلين بتربية الخنزير وذبحها وبيع لحومها .

٢ ــ الوشائع الكبدية والمعوية فى الشرق الأقصى وبخاصة وشيعة الأمعاء الكبيرة (فاسيولوبس بوسكاى) الواسعة الانتشار فى الصين ، ووشيعة الأمعاء الصغيرة (جاسترود سكويرس هينوفيس) التى تصيب أهالى البنغال وبورما ، ووشيعة الكبد الصينية (كلونوركس سينسز) المنتشرة فى الصين واليابان وكوريا على الأخص . ويعتبر الخنزير العامل الخازن الرئيسى لهذه الطفيليات وبخاصة الدودتين الأوليين اللتين تنطلقان منه لتمضيا دورة حياتهما فى عوائلها الأخرى ، حتى تصيبا الإنسان ، ومن ثم فمقاومتهما فى الإنسان وحده لا تكفى ، حيث إن الخنزير (مخزن) رئيسى لنشر العدوى بعد تمام دورة الحياة فى أنواع معينة من القواقع والأسماك ، وهى تسبب أعراضا شديدة والتهابا موضعيا ونزفا وتقرحا فى جدران الأمعاء الدقاق ، واضطرابات معوية وإسهالا مزمنا وأنيميا ، وقد تحدث الوفاة نتيجة للإجهاد العام وانحطاط شديد فى القوى .

٣ ــ دودة لحم الخنزير الشريطية (شينياسوليوم) ، وهى تعيش فى طورها البالغ فى أمعاء الإنسان حيث قد يبلغ طولها أربعة أمتار أو أكثر من ذلك ، والدودة ذات رأس أصغر من رأس الدبوس ، وعنق

قصير ، تنمو منه قطع أو أسلات صغار تتباعد عنه تباعاً وتأخذ فى النمو لتكون ذلك الشريط الطويل ، وكل أسلة كأنه حيوان قائم بذاته ، إذ توجد به أجهزة التناسل المذكرة والمؤنثة ، ولا تلبث عند تأنيث الشدفة الناضجة أن يمتلىء بآلاف البويضات حتى تصبح الشدفة مجرد كيس مثقل بذلك البيض الكثير الذى ينمو فى كل واحدة منه جنين كـروى ذو ست أشواك تشبـه الخطاطيف ، ومن ثم تعـرف البيضة بـالكرات ذات الخطاطيف .

وتنفصل الشدف المثقلات عن الدودة وتخرج مع إبراز الإنسان المصاب ، وفى التربة الملوثة الرطبة تستطيع الشدفة أو ما فيها من بيض أن تبقى زمنا ليس بالقصير حتى يأتى خنزير رمام يأكل ما فى الأرض من نفايات ، فيبتلع معها شدفة أو بضع شدفات أو على الأقل بويضات ، فتعمل العصارات الهاضمة على أن تطلق الأجنة من محابسها ، فتشق طريقها بأشواكها مخترقة جدار القناة الهضمية حتى تصل إلى أوعية الدم أو اللمف ، فتدور مع هذا وذاك حتى تستقر فى أنحاء شتى من جسم الخنزير حيث تنمو عضلاته ، وبخاصة اللسان والرقبة والكتف والبطن ، مكونة حويصلات أو مثانات كروية منتفخة معروفة باسم الديدان المثانية ، فى كل منها رأس يصلح لأن تنمو منه دودة شريطية كاملة ، ويحدث هذا عندما يأكل هذا اللحم المصاب طاعم غافل دون أن ينضجه نضجا كافيا لقتل ما فيه من ديدان ، وعادة ما تنجح دودة واحدة فى سكنى أمعـاء الشخص المصاب .

وفى هذه الدورة يقوم الخنزير بدور ما يسمى العائل الوسيط ، بينما يسمى الإنسان العائل النهائى ، وليس الخنزير هو العائل الوسيط الوحيد ، فقد تبتلع الكلاب والجمال والقردة بعض الديدان ، فتنمو فى عضلاتها الحويصلات أو الديدان المثانية ، ولكن الخنزير يعتبر فى الواقع المصدر الوحيد ، أو يكاد ، لعدوى الإنسان . ويصاب الإنسان بدودة أخرى من نفس الجنس ، وهى دودة لحم البقر الشريطية (ساجنياتا) ، والعائل الوسيط لها ، كما هو ظاهر ، الأبقار والثيران . ولحم الخنزير المصاب يكون فى العادة أكثف إصابة من لحم البقر المصاب ، وقد يربو عددها على عشرة آلاف فى كيلو اللحم الواحد من الخنزير .

ودودة لحم البقر تشبه دودة لحم الخنزير بصفة عامة ، وإن كانت أطول منها ، وعدد شدفاتها أكثر ، ودورة الحياة متشابهة فى الحالتين ؛ بيد أن الذى تنفرد به دودة لحم الخنزير دون دودة لحم البقر هو إمكان انعكاس الدورة انعكاسا جزئياً فيصبح الإنسان هو العائل الوسيط ، أى أنـه يحل محـل الخنزيـر فى هذه الدورة ، فيؤ وى جسمه يرقات الدودة ، أى ديدانها المثانية ، وينشأ هنا الانعكاس الجزئى فى دورة حياة دودة لحم الخنزير من ابتلاع الإنسان بيض هذه الدودة إذا تلوثت يداه أو طعامه بشىء منها لسبب من الأسباب ، كما أن هذه العدوى قد تكون ذاتية ، أى أن يكون مصدر البيض المعوى هو الدودة التى يؤ ويها الشخص نفسه فى أمعائه . وقد اتضح أن البيض الناضج أو الشدفات المثقلة بالبيض الناضج قد ترتد من أمعاء الشخص المصاب بالدودة الشريطية إلى معدته ، وفى جميع هذه الأحوال يفقس البيض فى المعدة ، وتنطلق منه الأجنة ذوات الأشواك أو الخطاطيف الست ، وتنطلق مع دورة الدم وتنتشر فى أجزاء الجسم لتستقر فى عضلاته مكونة ديدانا مثانية مثلما يحدث للخنزير مبتلع البيض . أما إذا وصل بيض دودة لحم البقر إلى معدة الإنسان فإنه لن

يترتب على ذلك شيء على الإطلاق ، حيث إن الإنسان غير قابل لتكوين يرقاتها أو ديدانها المثانية فى جسمه ، وهذا هو الفرق الرئيسى بين الدودتين ، وهو أس البلاء كله فى الإصابة بدودة لحم الخنزير .

٤ ــ مرض الديدان المثانية : تبدأ الإصابة بهذا المرض بالبيض الذى تخرج منه الأجنة وتذهب إلى أى عضو من الجسم وبخاصة عضلات الأطراف واللسان والعنق ، وأحياناً الرئتين والقلب والعين أو النخاع الشوكى ، وتستقر وتولد ديداناً مثانية ، وعندما تستقر فى المخ تولد حالات من الصداع والشلل العضوى الجزئى واضطرابات بصرية ونفسية ، وأحيانا تتكلس الحويصلات متحولة إلى مادة حجرية .

٥ ــ الديدان الشعرية الحلزونية (تريكتيلا سبيراليس) : وأعراضها الخطيرة مترتبة على انتشار يرقاتها فى عضلات الجسم ، وأعراض الإصابة بها شديدة متنوعة ، منها الاضطرابات المعدية المعوية والحمى والآلام الروماتيزمية وصعوبة المضغ والتنفس وتحريك العينين والتهاب المخ والنخاع الشوكى والسجايا المحيطة بها ، والأعراض العصبية والعقلية المترتبة على ذلك ، والتسمم والإجهاد العام والارتشاح والمضاعفات التنفسية ، وفى الإصابات القاتلة تحدث الوفاة بين الأسبوعين الرابع والسادس فى معظم الأحوال ، والخنزير هو المصدر الوحيد لإصابة الإنسان بهذا المرض الوبيل باستثناء المناطق القطبية . ومواطن انتشار المرض هى أوربا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . والمحاولات المضنية لتجنب هذا البلاء بتربية الخنازير بطريقة صحية وفحص ذبائحها ومعالجة لحومها بوسائل باهظة التكاليف غير مجدية من الناحية العملية ، ويكفى للدلالة على هذا أن نذكر أن أمريكا بها ٣ أمثال عدد الإصابات فى العالم أجمع ، وأن متوسط نسب الإصابة فى ولاياتها المختلفة هو ١٦ ٪ ، مع الوثوق بأن هذا الرقم أقل كثيرا من الحقيقة ، وأن نسبة إصابة الخنازير تتراوح بين ٥ ، ٢٧ ٪ فى الولايات المختلفة .

٦ ــ مرض التريكينا (تريكينوسز) : كما هو الحال بالنسبة لدودة لحم الخنزير الشريطية ، ليست الديدان الشعرية البالغة هى الخطيرة ، وإنما يرقاتها هى رأس البلاء ، حيث تخرج الديدان من حويصلاتها عندما يأكل الإنسان اللحم المصاب ، وتضع يرقاتها فى أى جزء من عضلات الجسم إلا عضلة القلب ، وتسبب أعراضاً مرضية شديدة تؤدى غالبا إلى الوفاة فى غضون أسابيع قليلة .

وبالإضافة إلى كل هذه الأمراض فإن دهن الخنزير مختلف اختلافاً تماماً فى درجة تشبعه عن الزيوت النباتية والدهون الحيوانية الأخرى ، ومن ثم فصلاحيته للغذاء موضع شك كبير بين العلماء ، بجانب أنه ليس سهل الهضم . وينصح الأستاذ دام أستاذ الكيمياء الحيوية الدنماركى ، والحاصل على جائزة نوبل ، بعدم المداومة على تناوله ، حيث إنه قد ثبت بالتجربة أنه من أهم أسباب تكوين حصى المرارة وانسداد قنواتها وتصلب الشرايين وبعض أمراض القلب الأخرى .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الفقهاء يعتبرون لفظ اللحم شاملاً للحم وللدهن جميعا .

جزاء الذين يكتمون الحق

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾

المفردات : ﴿ **الضلالة** ﴾ : هى العماية التى لا يهتدى فيها الإنسان لمقصده ، والهدى : الشرائع التى أنزلها الله على لسان أنبيائه ، والشقاق : هو العداء والتنازع ، وهو أثر الاختلاف ، وحقيقته أن يكون كل من الخصمين فى شق ، أى جانب غير مافيه الآخر .

إن جناية كتمان الحق جناية لا تغتفر ، وكاتم الحق كالساكت عنه شيطان أخرس ، وفى ما مضى من الآيات جاء الوعيد شديداً للذين يكتمون ما أنزل الله ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾[1] ، وهل اللعن إلا طرد من رحمة الله ؟ وهنا أضاف الله أحكاماً أخرى على الكاتمين حيث قال سبحانه : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً** ﴾ . ومن أشنع ما كتموه صفة النبى ﷺ التى ورد ذكرها فى الكتب المنزلة ، كالتوراة والإنجيل ، فقد أنكروها وادعوا زوراً وبهتاناً عدم ورودها ، واشتروا الدنيا ومتاعها وزخارفها ثمناً لهذا الإنكار وإرضاءً لرؤسائهم ، وباعوا الحق ، والدنيا مهما أقبلت فهى قليلة .

لكل شىء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الحياة كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

والدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ؛ وكم من قبور تبنى وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفع له علامات فلما علا مات . الدنيا مهما أعطت فهى قليلة كما صورها النبى ﷺ فى قوله : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء)[2] ، والدنيا كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر .

هى الأيام لا تبقى عزيزا ... وساعات السرور بها قليله
إذا نشر الضياء عليك نجم ... وأشرق فارتقب يوماً أفوله

(١) سورة البقرة آية : ١٥٩ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٣٧ ط دار الفكر .

والعاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

فـما مـن كـاتـب إلا ويـفـنى ويُبقى الـدهـر مـا كتبت يـداه
فـلا تكتب بكفـك غـير شيء يسـرك فى القيـامـة أن تـراه

﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾(١) . إن العلماء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ابتغاء رضا الرؤساء مقابل رشوة خائنة ، هؤلاء مهما أوتوا فإن الحق لا مساومة عليه ، ومهما أوتوا فإنه قليل ، وإن ما يأكلونه من الرشا إنما هو نار تلظى فى الدنيا ، لأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام دمر ؛ أما فى الآخرة فإن الله عليهم غضبان لا يكلمهم ، لأنهم أعداؤه الألداء ، ولا يزكيهم ، أى لا يطهر نفوسهم ، لأن الشيطان عشش فيها ، وباض فيها الظلم ، وفرخ فيها السحت . ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى مؤلم موجع ؛ فأى خزى بعد هذا الخزى فى الدنيا والآخرة : نار فى البطون تسرى سريان النار فى الحلفاء ، والسم الزعاف فى الأحشاء ، وغضب من الله يوم القيامة ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ﴾(٢) . ما أقل عقل هؤلاء وما أشد غباءهم وما أخسر تجارتهم ، هؤلاء الذين اشتروا الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء وخبطوا خبط عشواء فى ليلة ظلماء باعوا الهدى واشتروا الضلالة ، وباعوا المغفرة والرحمة والرضوان واشتروا العذاب ، فما أشد صبرهم على نار جهنم ، وما نارنا هذه بالنسبة لنار جهنم إلا جزء من سبعين جزءًا . ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما ﴾(٣). فاعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر شوقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ؛ ولا تنظر للمعصية من حيث إنها معصية ، إنما انظر إليها نظرة ثاقبة وسل نفسك فى حق من تعصى ، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا ﴾(٤) ، ﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾(٥) ، ﴿ له دعوة الحق ﴾(٦) ، ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ﴾(٧) ، ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾(٨) ، ﴿ الحق من ربك ﴾(٩) ، ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾(١٠) ، ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾(١١) ، ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾(١٢) ، ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ﴾(١٣) ، ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام

(١) سورة النساء الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ .
(٢) سورة طه الآيات : ١٢٤ - ١٢٦ .
(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .
(٤) سورة الإسراء آية : ١٠٥ .
(٥) سورة يونس آية : ٣٢ .
(٦) سورة الرعد آية : ١٤ .
(٧) سورة سبأ آية : ٢٦ .
(٨) سورة الصافات آية : ٣٧ .
(٩) سورة البقرة آية : ١٤٧ .
(١٠) سورة الأنبياء آية : ١٨ .
(١١) سورة النور آية : ٢٥ .
(١٢) سورة الحج آية : ٦ ، وآية : ٦٢ ، وسورة لقمان آية : ٣٠ .
(١٣) سورة الأنعام آية ٧٣ .

الغيوب ﴾(١) ، ﴿ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾(٢) ، ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾(٣) .

فالذين اختلفوا فى الكتاب ولم يردوا هذا الاختلاف إلى أصول الحق ، واختلفوا فى عقائد الله وشرائعه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، والله تعالى يقول : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾(٤) ، ويقول : ﴿ وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ﴾(٥) ، ويقول لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ﴾(٦) ، ويقول : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾(٧) ؛ فقد أحلّوا وحرّموا واختلفوا فيما أنزل الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وغيّروا وبدّلوا بعدما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ؛ هؤلاء تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى وهم فى شقاق بعيد المدى ، وعداء ضارب فى الأعماق ، وخلاف ممتد الجذور ، لأن الحق واحد لا يتعدد ، والباطل متشعب المسالك يعربد فى عرصات الدنيا ، ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل . فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، فإنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

آيـة الـبر

* لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

المفردات : ﴿ البر ﴾ : لغة التوسع فى الخير ، وأصله من البر المقابل للبحر ، وفى لسان الشرع كل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال وفاضل الأخلاق . ﴿ قبل المشرق والمغرب ﴾ أى ناحيتهما ﴿ وآتى المال ﴾ أى أعطاه . والمسكين : هو الدائم السكون ، لأن الحاجة أسكنته والعجز قد أقعده عن طلب ما يكفيه . ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر البعيد عن ماله ولا يمكنه الاتصال بأهل أو بذى قرابة . والسائل من

(١) سورة سبأ آية : ٤٨ .
(٢) سورة سبأ آية : ٤٩ .
(٣) سورة النمل آية : ٧٩ .
(٤) سورة النساء آية : ٥٩ .
(٥) سورة الشورى آية ١٠ .
(٦) سورة النحل آية : ٦٤ .
(٧) سورة النمل آية : ٧٦ .

ألجأته الحاجة إلى السؤال ، وتكفف الناس ، والسؤال محرم شرعاً إلا لضرورة يجب على السائل ألا يتعداها . ﴿ وفى الرقاب ﴾ أى فى تحرير الرقاب وعتقها ، ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أى أداها على أقوم وجه وأحسنه . والعهد : ما يلتزم به إنسان لآخر . و ﴿ البأساء ﴾ : من البؤس ، وهو الفقر والشدة ، ﴿ والضراء ﴾ : كل مايضر الإنسان من مرض أوفقد حبيب من أهل أومال . ﴿ صدقوا ﴾ : أى فى دعوى الإيمان . ﴿ والتقوى ﴾ : هى الوقاية من سخط الله وغضبه بالبعد عن الآثام والذنوب .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية : اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة ، كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبيد بن هشام الحلبى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفى عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبى ذر أنه سأل رسول الله ﷺ : ما الإيمان ؟ فتلا عليه : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ إلى آخر الآية ، قال : ثم سأله أيضا فتلاها عليه ، ثم سأله فقال : (إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك) . وقال المسعودى : حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال : جاء رجل إلى أبى ذر فقال : ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ حتى فرغ منها فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال أبو ذر : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتنى عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى ، فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده : (المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها ، وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها) . رواه ابن مردويه والله أعلم .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك ، وهو أن المراد هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه ، واتباع ماشرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس فى لزوم التوجه من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال : ﴿ ليس البر أن تُولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البر مَن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية ، كما قال فى الأضاحى والهدايا : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾[1] ، وقال السيوطى عن ابن عباس فى هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا ، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود ، فأمر الله بالفرائض والعمل بها . وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك ، وقال أبو العالية : كانت اليهود تقبل قبل المغرب ، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق ، فقال الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ يقول هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل ، وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله ، وقال مجاهد : ولكن البر ماثبت فى القلوب من طاعة الله عز وجل . وقال الضحاك : ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجهها . وقال الثورى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ الآية . قال : هذه أنواع البر كلها ، وصدق ، رحمه الله ، من اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو ، وصدق بوجود الملائكة

(١) سورة الحج الآية : ٣٧ .

الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿ والكتاب ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها ، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب ، الذى انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أى أخرجه وهو محب له راغب فيه ، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا : (أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى وتخشى الفقر) . وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة ، والثورى عن منصور عن زبيد عن عروة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر . وقال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءً ولا شكورا ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾[3] . نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له . وقوله : ﴿ ذوى القربى ﴾ وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطى الصدقة ، كما ثبت فى الحديث : (الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم ثنتان : صدقة وصلة ، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك) . وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم فى غير موضع من كتابه العزيز . ﴿ واليتامى ﴾ هم الذين لاكاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن على عن رسول الله ﷺ قال : (لايتم بعد حلم) . ﴿ والمساكين ﴾ وهم الذين لايجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه) . ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة ، فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه ، ويدخل فى ذلك الضيف ، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان . ﴿ والسائلين ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبى يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال عبد الرحمن بن الحسين بن على قال قال رسول الله ﷺ : (للسائل حق وإن جاء على فرس) . ﴿ وفى الرقاب ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه فى كتابتهم ، وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف فى آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى .

(١) سورة الإنسان الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٩٢ .
(٣) سورة الحشر الآية ٩ .

وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا شريك عن أبي حمزة عن الشعبي حدثتني فاطمة بنت قيس أنها سألت رسول الله ﷺ : أفي المال حق سوى الزكاة ؟ قالت : فتلا عليّ ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ ، ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبي إياس ويحيى بن عبد الحميد كليهما عن شريك عن أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله ﷺ : (فى المال حق سوى الزكاة) ثم قرأ : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ إلى قوله ﴿ وفى الرقـاب ﴾ ، وقولـه : ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى . وقوله : ﴿ وآتى المال ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ ، وقول موسى لفرعـون : ﴿ هل لـك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وويل للمشركين الـذين لا يؤتون الـزكاة ﴾ ، ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال ، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ، ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس أن فى المال حقا سوى الزكاة والله أعلم .

وقوله : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ كقوله : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ ، وعكس هذه الصفة النفاق ، كما صح فى الحديث : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان) ، وفى الحديث الآخر : (وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) . وقوله : ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ﴾ أى فى حال الفقر وهو البأساء ، وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء ، ﴿ وحين البأس ﴾ أى فى حال القتال والتقاء الأعداء ، قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمدانى ومجاهد وسعيدبن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم . وإنما نصب ﴿ الصابرين ﴾ على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته والله أعلم .

وقوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقـوا فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ ، لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات[1] .

كلمة فى عتق الرقاب

جاء فى كتابنا « رياض الجنة » تحت عنوان (الإسلام محرر البشرية) ما نصه : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ . الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٩ ط الشعب .

البشرية إليه . والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير ، والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد وجعل منهم سادة أقوياء . لقد حاول أعداء الإسلام فجعلوا من مسألة (الرق) ثغرة يحاولون النفاذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه بعد ما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن أو طعنة لغامز ؛ ولو تدبر هؤلاء مسألة (الرق) لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الإسلام .

ويقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه « ما يقال عن الإسلام » : مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك ، ويتفق الماديون والمبشرون لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، أولاهما : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الإنسان ويجهلون دينهم فيصدقون ما يقال منهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء . أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام قياساً على نجاح الإسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هنـاك ، وعظيم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية . فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسـلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ويشتركون معهم فى الوطن ومصالح المعيشة ، فيتوسلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة (النخاسة) وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا (النخاسة) قديما وحديثا ، وهم — أى دعاة المادة والتبشير — أول من يعلم تاريخ (النخاسة) أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين . أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسمومة وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة ، فهى واضحة قريبة المنال كفيلة بإقناع من يستمع إليها مسلماً كان أو غير مسلم ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، فلا امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير . إن الأديان جميعاً قبل الإسلام أباحت وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخريهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله ؛ وجاء الإسلام فشرع العتق ولم يشرع الرق ، وقد ندب المسلمين إلى فك الإسار عن الأسرى فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة . لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإسار بغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ومن يحنث فى يمينه ومن يظاهر من زوجته ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ومنها فدية الرقاب ، ولم يبق

الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى أو ببذل التعويض الذى تعرضه الدول الغالبة . وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام وأوجبه على الدول الإسلامية وهى تتولى صرف الزكاة ﴿ وفى الرقاب ﴾ ، فإذا كانت الدول غير الإسلامية لم تعرف لها نظاما تتبعه لإطلاق أسراها من الرق فهى المسئولة عن هذا التقصير وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الرقاب منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها ، ولو وجدت شريعة لفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون . ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنعاً أكرم من صنع الإسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق أو يوجبوه فى مقام التكفير والإحسان ؟ إن صنع الإسلام الذى أوجبه قبل أربعة عشر قرنا هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه فلا ندرى كيف يكون ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن تستقر عليه . على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى فى تشريعات الرق بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الإنسانية ، كما تسميها ؛ فالإسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية أو منازعة اقتصادية أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح . إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء : جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدى الأرقاء ولا تنفق عليها أجورا ، فإن أصحاب الأموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية : يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت . وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها وتحررت شعوبها من سادتها وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك .

فلما وصلت الحضارة الأوربية إلى هذا المدى بعد طول التعثر لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ولكنها كانت ولا تزال قضية مساومة واضطرار وحيلة من حيل السياسةوالإدارة ، وخطة من خطط التأجير والاستغلال ، والفارق الأكبر فى مسألة الرق من جانب الواقع التاريخى هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الإسلامية وعددهم فى البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الأمريكيين ، فإن الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الإسلامية بعد ثلاثة عشر قرنا على ثلاثة ملايين أونحو هذا العدد القليل بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليونا ولم يمض على قيام الحكم الأبيض هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد من هذا الفارق فى العدد : فارق المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الإسلامية والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال وبين تحريم المساكنة والمصاهرة واستباحة الدم انتقاما من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته البيض .

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا : إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الإسلام ، فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟!

وهكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المغرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير ، وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام ، إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة . ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ؟

إن الوقائع تثبت والتاريخ يؤكد والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه . . كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادىء الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه : (فى الدين والأخلاق القومية) ما نصه : محمد محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، وعن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار . وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت الحملة الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله ؟

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفـطرة ؟ وأن تعجب لشىء فاعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذه التهم بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده ، وأنهم هم الذين أفشوا ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب ؛ وأنهم جاوزوا فيـه الحدود ولم يكفهم استـرقاق الأفـراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب . فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام :

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب ، فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبداً لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال ، ومصداقه فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين﴾ . وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ ، خاتم النبيين وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة كثورته على الخمر وثورته على الربا وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج . كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام ﷺ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لاتندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لينطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم بردا وسلاما ريثما يتيسر لهم الخروج منها . . وسأفسر ذلك .

ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحاً واقعيًّا فى ظلال الإسلام فيقول :

أما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة ، فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء حتى لاتسرى عدواه إلى غير المصابين . . ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه

بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ؛ فاليوم لا الخطف ولا البيع والشراء ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ولا تحكم رب الأسرة ولا العجز عن وفاء الدين ولا السرقة ولا القتل ، لم يعد شىء من ذلك كله منذ ظهر الإسلام يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان ، ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ فى العلاج الشاق من الرق القائم بالفعل ، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء . غير أن هاهنا شبهة تجول فى الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهى أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ، قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذا صغيرا لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة ، وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين فى هذا الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية .

فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم لم نجد فيه أثراً لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيرا واحدا كريما وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل ﴿ فإما مناً بعد وإما فداء ﴾ ، كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لانجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا فى حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم عقوبة (مجرمى الحرب) . بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة . ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة . . فإن رفع مستوى الحرية يعد إدراجاً له فى زمرة الأحياء بعد أن كان محسوباً فى عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ولا فى نصوصه ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير فإنما كان ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة اتقاء الخطر وكسراً لشوكته وشوكة قومه ، إنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى وإنما يتخذه مؤقتا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ويلح فى المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو التحرر الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية ؛ ولعل أول مفتاح لهذه

الأبواب كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل ، قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ﴾ ،وقال عليه الصلاة والسلام : (من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار) .

ومفتاح ثان هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهماً مكرراً فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث هو مفتاح : قانون الكفارات ، وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا ، كالحنث فى اليمين والفطر فى رمضان والقتل الخطأ وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع : كفارة الإساءة : التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه ، وفى ذلك يقول رسول الرحمة صلوات الله وسلامه عليه : (من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه) .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن من حكمه عند أكثر الأئمة أن يصير العبد حراً بمجرد إصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه ، وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم . لقد رأينا أبوابا فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق بين هذين الطرفين ، نرى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة فى فترة الانتظار .

نعم . . لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحبون حياة الإنسان ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم ، هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين : (إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت إيديكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم) .

صدقت يانبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليك .

هذا هو موقف الإسلام من الرق .

١) منع لإنشائه وابتدائه .

٢) عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣) عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد . . فهل من منصف يقولها ، أما والله لعبد فى ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار فى كل نظام .

وهكذا ينتهى هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات .

وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق ومعه الحزم والعزم كما هو فى كل شئونه .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله . .

داويت متئــداً وداووا طفــرة وأخف من بعض الدواء الــداء

أبعد كل هذه الوصايا البشرية وإحاطتها بالكرامة يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ماهو منه براء ؟

إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساوين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد (إن أباكم واحد وإن ربكم واحد) ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وهذه المساواة العامة فى الإنسانية تتحطم معها فوارق الانحراف البشرى والجنس واللون والحسب والنسب وهى فوارق الانحراف البشرية والظلام الإنسانى ، فوارق الجاهلية الفتاكة والهوى المتسلط والتعالى الكاذب والتمييز المصطنع ، وهو تميز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق فى قليل أو كثير من طبيعة الخلق والولادة والمأكل والمشرب والحياة وأسباب المعرفة والإدراك .

القصاص فى الإسلام

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

المفردات : ﴿ كتب ﴾ فرض ولزم عند مطالبة صاحب الحق به .

﴿ القصاص ﴾ : لغة يفيد العدل والمساواة ، ومنه سمى المقص مقصاً لتعادل جانبيه ، والقصة قصة

لأن الحكاية تساوى المحكى ، وشرعا : أن يقتل القاتل لأنه مساو للمقتول فى نظر الشارع :

﴿ فاتباع بالمعروف ﴾ : أى فمطالبته للدية بالمعروف بلا تعسف .

﴿ وأداء إليه بإحسان ﴾ : أى أداء بلا مماطلة ولا بخس حق .

﴿ اعتدى ﴾ : أى انتقم من القاتل بعد العفو .

﴿ الألباب ﴾ : واحدها لب ، وهو العقل .

جاء فى سبب نزول هذه الآية أنه كان بين حيين من العرب دماء فى الجاهلية ، وكان لأحدهما طول (شرف) على الآخر ، فأقسموا ليقتلن الحر فيكم بالعبد ، والذكر بالأنثى ، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى الرسول ﷺ فنزلت الآية وأمرهم أن يتبارءوا (يتساووا) .

وقد كان القصاص على القتل أمرا محتوماً عند اليهود ، كما فى الفصل التاسع عشر من سفر الخروج ، وكانت الدية أمراً مقضياً عند النصارى وكانت العرب تتحكم فى ذلك بحسب قوة القبائل وضعفها ، فكثيرا ما كانت القبيلة تأبى أن تقتص من القاتل ، بل تقتص من رئيس القبيلة وربما طلبوا بالواحد عشرة ، وبالأنثى ذكراً ، وبالعبد حراً فإن أجيبوا فبها ونعمت وإلا قاتلوا قبيلة القاتل وسفكوا دماء كثيرة ؛ وهذا ظلم عظيم وقسوة شديدة . وقتل القاتل فحسب وهو ما جاء فى التوراة إصلاح لهذا الظلم .

ولكن قد تقع أحيانا بعض جرائم يكون الحكم فيها قتل القاتل ضاراً ، وتركه لا مفسدة فيه ، كأن يقتل المرء أخاه أو أحد أقاربه لغضب فجائى اضطره إلى قتله ، ويكون هذا القاتل هو العائل لذلك البيت ، فإن قتل يفقدون بفقده النصير والمعين ، بل قد يكون فى قتل القاتل مفاسد ومضار ، وإن كان القاتل أجنبياً عن المقتول فيكون من الخير لوليه عدم قتله دفعا للضرر أو استفادة للدية ؛ ففى أمثال هذه الحالات يجوز لأولياء المقتول العفو مع أخذ الدية أو تركها . وإذا ارتفعت عاطفة الرحمة لدى شعب أو بلد صار يستنكر القتل ويرى أن العفو أفضل فالأمر موكول إليهم والشريعة ترغبهم فيه ، وهذا هو الإصلاح الكامل الذى جاء به الكتاب الكريم فى القصاص . ومن أحكام الشريعة الغراء أنه لا يقتل الوالد بولده ، لأن المقصد من القصاص ردع الجانى عن الاستمرار فى مثل هذه الجناية ، والوالد بفطرته محمول على الشفقة على ولده حتى ليبذل ماله وروحه فى سبيله ، وقلما يقسو عليه ، ولكن كثيرا ما يقسو الولد على والده وللحاكم أن يعزر ولده بما يراه زاجراً لأمثاله ومربياً لهم .

إن جناية القتل من الجنايات الكبرى فى الإسلام ، وهى إحدى السبع الموبقات ، فهى فى سلك واحد مع الشرك والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

ولقد وقف الرسول ﷺ ذات يوم يقول للكعبة المشرفة : (ما أطيبك وأطيب ريحك ، وما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذى نفسى بيده إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمتك)[١] ، وقد بين الهادى البشير حرمة المؤمن فقال : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله)[٢] . وفى خطبة الوداع قال

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٣١ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .

فى كلمات موجزة : (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يـومكم هذا فى بلدكم هـذا فى شهركم هذا)[١] .

إن الإسلام يأمر بالحفاظ على هذه الكليات الخمس : الـدين والنفس والعقل والعـرض والمال ، فلا اعتداء على العقل بالمسكرات ولا اعتداء على العرض بما يخدشه ولو بكلمة ، ولا اعتداء على المال بالسرقة وما شابهها . قال النبى ﷺ : (من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله) ولحرمة الوفاء فى الإسلام وصيانة النفوس حكمت الشريعـة الغراء أن الجمـاعة تقتـل فى الواحد . قال عمر رضى الله عنه . فى شأن ثمانية من الرجال قد اشتركوا فى قتل واحد ، وكان من صنعاء اليمن ، قال كلمته المشهورة : (لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً) . لذلك اقتضت حكمة الله أن ينفى تلك الجناية عن عباد الرحمن ، وأن ينزههم عنها . قال عز من قائل : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ﴾[٣] . وجاء فى بيان هذه الجناية ومدى الوعيد عليها قوله جل شأنه : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيماً ﴾[٤] وقال سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً ﴾[٥] أى لا يقتل أكثر من القاتل . وإذا جىء بالقاتل ليقتص منه فلا يمثل به قبل القصاص ولا بعده ، لأن لفظ القصاص ينبىء بالمساواة . ولما كانت الشريعة الإسلامية تنزيلاً من حكيم حميد ، فقد شملت الخير كله ، فلم توجب القصاص إذا عفا أولياء القتيل عن القاتل . ففى الإسلام جانبان : جانب القصاص وجانب العفو ، قال تعالى فى صفة المؤمنين : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾[٦] ، وقال فى آية أخرى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾[٧] وقال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[٨] وقد ورد أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله : من كان أجره على الله فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا وأصلح .

فإذا ما عفا أولياء الدم عن القاتل ورضوا بالدية أو تصدقوا بها ، فقد سقط القصاص عن القاتل ، فإذا مارضوا بالدية فعليهم أن يتبعوا القاتل مطالبين بالدية بالمعروف دون تعسف أو مغالاة ، وعلى القاتل أن يؤديها بإحسان دون مماطلة أو تسويف .

وما أجمل قوله تعالى : ﴿ فمن عفى له من أخيه ﴾ فالأخوة فى الإسلام أقوى رابطة تؤكد أواصر المحبة ووشائج المودة ، ذلك العفو تخفيف من ربكم ورحمة ، تخفيف عن القاتل ورحمة بأولياء الدم إذا ما قبلوا الدية ، فقد يكونون فى حاجة إلى المال ، فإذا عفوا من غير دية فإن رحمة الله تشملهم فى الدنيا والآخرة :

(١) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكى جـ٦ ص ١٩٥.
(٢) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٢٣٢ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة الفرقان الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ .
(٤) سورة النساء آية : ٩٣ .
(٥) سورة الاسراء آية : ٣٣ .
(٦) سورة الشورى آية : ٣٩ .
(٧) سورة الشورى آية : ٣٧ .
(٨) سورة الشورى الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ : قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ : هذا خطاب موجه إلى أولياء الدم إذا اعتدوا على القاتل بعد العفو ، إذ أن كلمة الحر دين عليه ، وما دام العفو قد حدث فإن الاعتداء بعد ذلك ظلم يوقع صاحبه فى مسئولية خطيرة هى العذاب الأليم . ثم بين الله جلت حكمته الحكمة من القصاص فقال : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ : أى ولكم ياأولى العقول فيما شرعت من القصاص حياة وأى حياة ، لأنه من علم أنه إذا قتل نفسا قتل بها يرتدع وينزجر عن القتل ، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله ، وبذلك تصان الدماء وتحفظ حياة الناس . ﴿ لعلكم تتقون ﴾ : أى لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه .

وقد اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿ولكم فى القصاص حياة ﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة ، ونقل عن العرب فى هذا المعنى قولهم « القتل أنفى للقتل » ولكن لورود الحكمة فى القرآن فضل من ناحية حسن البيان وإذا شئت أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر ، فانظر إلى العبارتين ، فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق . أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاص ، وهو القتل عقوبة على وجه التماثل ، والمثل العربى جعل سبب الحياة القتل ومن القتل ما يكون ظلماً . فيكون سبباً للفناء وتصحيح العبارة أن يقال : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً . والآية جاءت خالية من التكرار اللفظى ، والمثل كرر فيه لفظ القتل ، ففيه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية . ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة ، والمثل جعل القتل سبباً لنفى القتل وهو لا يستلزم الحياة . . . الخ .

وقد عد العلماء عشرين وجهاً من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية ، وقد ذكرها السيوطى فى الإتقان ، فارجع إليه تجد فيه ما يشفى الغليل .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(١) .

الوصية عند الموت

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

(١) سورة فصلت الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .

المفردات ﴿ كتب ﴾ : أى فرض . و ﴿ خيراً ﴾ : أى مالاً كثيراً .

﴿ الوصية ﴾ : الإيصاء والتوصية ، وتطلق على الموصى به من عين أو عمل .

﴿ بالمعروف ﴾ : مالا يستنكره الناس لقلته بالنسبة إلى ذلك الخير أو لكثرته التى تضر الورثة ، وتقدر الكثرة باعتبار الصرف ، ففى القرى غيرها فى الأمصار ، فهى تقاس بحسب حال الشخص لدى الناس ، وإنما يكون ذلك بعدم الزيادة على ثلث المتروك للوارثين .

﴿ خاف ﴾ : أى علم . (والجنف) : الخطأ ، و(الإثم) تعمد الإجحاف والظلم .

أوجب الله تبارك وتعالى الوصية عندما تأتى الأمارات على دنو الأجل وقبل أن يدخل الإنسان فى مرحلة الغرغرة ، وذلك ليكون الختام طيباً « وإنما الأعمال بالخواتيم » . وهذه الوصيةتكون للوالدين ، كما تكون للأقربين دون ظلم أو حيف ، بمعنى أن تكون قائمة على العدل والمساواة ، وألا تزيد على الثلث ، وهذا على رأى من قال بالوصية الواجبة ، وذلك بأن يموت الابن أو البنت فى حياة المورث ويتركان أولاداً ، فإن من قال بالوصية الواجبة من الفقهاء يرى أن الأولاد لهم الحق فى ميراث الجد الذى مات ابنه أو ابنته فى حياته عدلاً وقسطاً ، وذلك بافتراض الابن أو البنت حيين فيأخذ أولادهما نصيبهما ، بحيث لا يزيد عن الثلث . وقد جاء فى تفسير هذه الآيات مانصه للشيخ المراغى : (كان الكلام فى الآية السابقة فى القصاص فى القتل وهو ضرب من ضروب الموت ، مناسب أن يذكر ما يطلب ممن يحضره الموت من الوصية ؛ والخطاب عام موجه إلى الناس كلهم بأن يوصوا بشىء من الخير ولا سيما فى حال حضور أسباب الموت وظهور أماراته لتكون خاتمة أعمالهم خيراً . وقد تقدم أن قلنا إن الأمة متكافلة يخاطب المجموع منها بما يطلب من الأفراد ، وقيام الأفراد بحقوق الشريعة لا يتم إلا بالتعاون والتكافل والائتمار بأوامرها والتناهى عن نواهيها ، فإن لم يأتمر البعض وجب على الباقين حمله على ذلك) .

﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ﴾ : أى فرض عليكم معشر المؤمنين إذا حضرت أسباب الموت وعلله والأمراض المخوفة ، وتركتم مالاً كثيراً لورثتكم ، أن توصوا للوالدين وذوى القربى بشىء من هذا الخير ، لا يعد فى نظر الناس قليلاً ولا كثيراً ، وقد قدروه بعدم الزيادة على ثلث المتروك للوارثين وجمهرة العلماء وأئمة السلف وروى عن بعض الصحابة أن هذه الوصية إنما تكون لهم ما لم يكونوا وارثين ، لقوله عليه الصلاة والسلام : (إن الله أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث)(١) ، وجوز بعض الأئمة للمورث بأن يخص بها بعض من يراه أحوج من الورثة ، كأن يكون بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً عاجزاً عن الكسب ، فمن الخير والمصلحة ألا يسوى بين الغنى والفقير والقادر على الكسب ومن يعجز عنه . وإذا أسلم الكافر وحضرته الوفاة ووالداه كافران فله أن يوصى لهما بما يؤلف به قلوبهما ، وقد أوصى الله بحسن معاملتهما وإن كانا كافرين كما قال : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ﴾(٢) .

﴿ حقا على المتقين ﴾ : أى أوجب ذلك حقا على المتقين إلى المؤمنين بكتابى .

(١) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .
(٢) سورة العنكبوت آية : ٨ .

﴿ فمن بدله بعد ماسمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ﴾ : أى فمن غير الإيصاء من شاهد ووصى ، فإنما إثم التبديل على من بدل وقد برئت منه ذمة الموصى وثبت له الأجر عند ربه .

والتغيير إما بإنكار الوصية أو بالنقص فيها بعد أن علمها حق العلم .

﴿ إن الله سميع عليم ﴾ : أى إنه سميع لأقوال المبدلين والموصين ويعلم نياتهم ويجازيهم وفقها .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد للمبدلين والوعد بالخير للموصين .

وهذه الوصية واجبة عند بعض علماء السلف كما ترشد إلى ذلك هذه الآية والحديث : « ماحق امرىء مسلم يبيت ليلتين وله شىء يريد أن يوصى إلا ووصيته عند رأسه[1] » . وعند جمهور العلماء مندوب ثم استثنى من إثم التبديل حالة ما إذا كان للإصلاح وإزالة التنازع ، فقال ﴿ فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه ﴾ أى اذا خرج الموصى فى وصيته عن نهج الشرع والعدل خطأ أو عمداً فتنازع الموصى لهم فى المال أو تنازعوا مع الورثة فتوسط بينهم مَن يعلم بذلك وأصلح تبديل هذا الجنف والحيف فلا إثم عليه فى هذا التبديل ، لأنه تبديل باطل بحق وإزالة مفسدة بمصلحة ، وقلما يكون إصلاح إلا بترك بعض الخصوم شيئاً مما يرونه حقاً لهم .

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ : أى فمن خالف وبدل للإصلاح ، فالله يغفر له ويثيبه على عمله . ا . هـ

التركة وكيف تقسم :

لما كنا بصدد الحديث عن الموت كان لزاماً علينا أن نذكر هنا ما يفعل بتركة الميت ، وهاكم بيان ذلك كما وضحه الفقهاء :

تعريفها : التركة هى ما يتركه الميت من الأموال مطلقاً ، ويقرر هذا ابن حزم فيقول : إن الله أوجب الميراث فيما يخلفه الإنسان بعد موته من مال ، لا فيما ليس بمال ؛ وأما الحقوق فلا يورث منها إلا ما كان تابعاً للمال ، أو فى معنى المال ، مثل حقوق الارتفاق والتعلى ، وحق البقاء فى الأرض المحتكرة للبناء ، والغرس ، وهى عند المالكية والشافعية والحنابلة تشمل جميع ما يتركه الميت من أموال وحقوق سواء أكانت الحقوق مالية أم غير مالية .

الحقوق المتعلقة بالتركة : وهى أربعة ، وكلها ليست بمنزلة واحدة ، بل بعضها أقوى من بعض ، فيقدم على غيره فى الإخراج من التركة على الترتيب الآتى :

(١) الحق الأول : يبدأ من تركة الميت بتكفينه وتجهيزه .

(٢) الحق الثانى : قضاء ديونه ، فابن حزم والشافعى يقدمون ديون الله كالزكاة والكفارات على ديون العباد ، والحنفية يسقطون ديون الله بالموت ، فلا يلزم الورثة أداءها إلا إذا تبرعوا بها أو أوصى الميت بأدائها ، وفى حالة الإيصاء بها تصير كالوصية يخرجها الوارث أو الوصى من ثلث الفاضل بعد التجهيز وبعد

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٩٤ ط دار الفكر .

دين العباد ، هذا إذا كان له وارث ، فإذا لم يكن له وارث فتخرج من الكل ، والحنابلة يسوون بينهما كما نجد أنهم جميعاً اتفقوا على أن ديون العباد العينية مقدمة على ديونهم المطلقة .

(٣) الحق الثالث : تنفيذ وصيته من ثلث الباقى بعد قضاء الدين .

(٤) الحق الرابع : تقسيم ما بقى من ماله بين الورثة .

الوصية : ولما كانت الآية التى بين أيدينا هى آية الوصية فقد ناسب ذلك أن نذكر هنا ما قاله الفقهاء فى كل شىء يتعلق بالوصية فنقول وبالله توفيق :

تعريفها : الوصية مأخوذة من وصيت الشىء أوصيه إذا أوصلته ، فالموصى وصل ما كان فى حياته بعد موته

وهى فى الشرع : هبة الإنسان غيره عيناً أو ديناً أو منفعة ، على أن يملك الموصى له الهبة بعد الموصى . وعرفها بعضهم : بأنها تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع ، ومن هذا التعريف تبين الفرق بين الهبة والوصية ، فالتمليك المستفاد من الهبة يثبت فى الحال ، أما التمليك المستفاد من الوصية فلا يكون إلا بعد الموت ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالهبة لا تكون إلا بالعين ، والوصية تكون بالعين وبالدين وبالمنفعة .

مشروعيتها : وهى مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع .

ففى الكتاب يقول سبحانه : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾ ، ويقول جل شأنه : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين[1] ﴾ ويقول عز وجل : ﴿ يـاأيها الـذين آمنوا شهـادة بينكم إذا حضر أحـدكم الموت حين الوصيـة اثنان ذوا عـدل منكم ﴾[2] .

وجاء فى السنة الأحاديث الآتية :

(١) روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ ما حق امرىء مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده)[3] ، قال ابن عمر : ما مرت علىَّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصية . . ومعنى الحديث أن الحزم هو هذا فقد يفاجئه الموت .

قال الشافعى : ما الحزم والاحتياط للمسلم إلا أن تكون وصيته مكتوبة عنده إذا كان له شىء يريد أن يوصى فيه لأنه لا يدرى متى تأتيه منيته فتحول بينه وبين ما يريد من ذلك .

(٢) وروى أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران فى الوصية فتجب لهما النار ﴾ ، ثم قرأ أبو

(١) سورة النساء آية : ١٢ .
(٢) سورة المائدة آية : ١٠٦ .
(٣) الترغيب والترهيب حـ ٤ ص ١٩٦ ط وزارة الأوقاف.

هريرة : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ﴾[1] .

(٣) وروى ابن ماجه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات على وصية مات على سبيل وسنة ، ومات على تقى وشهادة ، ومات مغفوراً له)[2] .

وقد أجمعت الأمة على مشروعية الوصية .

وصية الصحابة : لقد انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ولم يوص لأنه لم يترك ما يوصى به .

وروى البخارى عن ابن أبى أوفى أنه ﷺ لم يوص . قال العلماء فى تعليل ذلك : لأنه لم يترك بعده مالاً ، وأما الأرض فقد كان سبَّلها ، وأما السلاح والبغلة فقد أخبر أنها لا تورث . ذكره النووى . أما الصحابة فقد كانوا يوصون ببعض أموالهم تقرباً إلى الله ، وكانت لهم وصية مكتوبة لمن بعدهم من الورثة .

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح أن أنساً رضى الله عنه قال : كانوا يكتبون فى صدور وصاياهم : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به فلان بن فلان أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . وأوصى من ترك من أهله أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب : ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[3] .

حكمتها : جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ قال : (إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة فى أعمالكم فضعوها حيث شئتم أو حيث أحببتم)[4] . أفاد هذا الحديث أن الوصية قربة يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل فى آخر حياته كى تزداد حسناته أو يتدارك بها مافاته ، ولما فيها من البر بالناس والمواساة لهم .

حكمها : أما حكمها ، أى وصفها الشرعى من حيث كونها مطلوبة الفعل أو الترك ، فقد اختلف العلماء فيه إلى عدة آراء نجملها فيما يلى :-

الرأى الأول : يرى أن الوصية واجبة على كل من ترك مالاً ، سواء أكان المال قليلاً أم كثيراً . قاله الزهرى وأبو مجلز ، وهذا رأى ابن حزم ، وروى الوجوب عن ابن عمر وطلحة والزبير وعبد الله بن أبى أوفى وطلحة بن مطرف وطاوس والشعبى قال : وهو قول أبى سليمان وجميع أصحابنا ، واستدلوا بقول الله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾ .

الرأى الثانى : يرى أنها تجب للوالدين والأقربين الذين لا يرثون الميت ، وهذا مذهب مسروق وإياس وقتادة وابن جرير والزهرى .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٩٧ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٩٧ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة البقرة آية : ١٣٢ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٢٦١ ط دار الفكر .

الرأى الثالث : وهو قول الأئمة الأربعة والزيدية ، أنها ليست فرضاً على كل من ترك مالا كما فى الرأى الأول ، ولا فرضاً للوالدين والأقربين غير الوارثين كما هو الرأى الثانى ، وإنما يختلف حكمها باختلاف الأحوال ، فقد تكون واجبة أو مندوبة أو محرمة أو مكروهة أو مباحة .

وجوبها : فتجب فى حالة ما إذا كان على الإنسان حق شرعى يخشى أن يضيع إن لم يوص به كوديعة ودين لله أو لآدمى ، مثل أن يكون عليه زكاة لم يؤدها ، أو حج لم يقم به ، أو تكون عنده أمانة يجب عليه أن يخرج منها ، أو يكون عليه دين لا يعلمه غيره ، أو يكون عنده وديعة بغير إشهاد .

استحبابها : وتندب فى القربات وللأقرباء وللصالحين من الناس .

حرمتها : وتحرم إذا كان فيها إضرار لورثة ؛ وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة)[1] .

روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح قال ابن عباس : (الإضرار فى الوصية من الكبائر) ثم تلا (وتلك حدود الله)[2] رواه النسائى . ومثل هذه الوصية التى يقصد بها الإضرار باطلة ، ولو كانت دون الثلث ، وتحرم كذلك إذا أوصى بخمر أو بناء كنيسة أو دار للهو .

كراهيتها : وتكره إذا كان الموصى قليل المال وله وارث أو ورثة يحتاجون إليه . كما تكره لأهل الفسق متى علم أو غلب ظنه أنهم سيستعينون بها على الفسق والفجور ، فإذا علم الموصى ، أو غلب على ظنه ، أن الموصى له سيستعين بها على الطاعة ، فإنها تكون مندوبة .

إباحتها : وتباح إذا كانت لغنى سواء أكان الموصى له قريباً أم بعيداً .

ركنها : وركنها الإيجاب من الموصى . والإيجاب يكون بكل لفظ يصدر منه متى كان هذا اللفظ دالاً على التمليك المضاف إلى ما بعد الموت بغير عوض مثل : أوصيت لفلان بكذا بعد موتى ، أو وهبت له ذلك أو ملكته بعدى .

وكما تنعقد الوصية بالعبارة تنعقد كذلك بالإشارة المفهمة متى كان الموصى عاجزاً عن النطق كما يصح عقدها بالكتابة .

ومتى كانت الوصية غير معينة بأن كانت للمساجد أو الملاجىء أو المدارس أو المستشفيات ، فإنها لا تحتاج إلى قبول ، بل تتم بالإيجاب وحده لأنها فى هذه الحال تكون صدقة .

أما إذا كانت الوصية لمعين بالشخص ، فإنها تفتقر إلى قبول الموصى له بعد الموت أو قبول وليه إن كان

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٩٨ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٩٨ ط وزارة الأوقاف .

الموصى له غير رشيد ، فإن قبلها تمت وإن ردها بعد الموت بطلت الوصية وبقيت على ملك ورثة الموصى . والوصية من العقود الجائزة التى يصح فيها أن يغيرها أو يرجع عما شاء منها أو يرجع عما أوصى به .

والرجوع يكون صراحة بالقول ، كأن يقول : رجعت عن الوصية ويكون دلاله بالفعل مثل تصرفه فى الموصى به تصرفاً يخرجه عن ملكه ، مثل أن يبيعه .

متى تستحق الوصية : ولا تستحق الوصية للموصى له إلا بعد موت الموصى وبعد قضاء الديون ، فإذا استغرقت الديون التركة كلها فليس للموصى له شىء لقول الله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ .

الوصية المضافة أو المعلقة بالشرط : وتصح الوصية المضافة أو المعلقة بالشرط ، أو المقترنة به ، متى كان الشرط صحيحاً ، والشرط الصحيح هو ما كان فيه مصلحة للموصى أو الموصى له أو لغيرهما ولم يكن منهياً عنه ولا منافياً لمقاصد الشريعة ، ومتى كان الشرط صحيحاً وجبت مراعاته مـا دامت المصلحة منه قائمة ، فإن زالت المصلحة المقصودة منه أو كان غير صحيح لم تجب مراعاته .

شروطها : الوصية تقتضى موصيا وموصى له وموصى به ، ولكل شروط نذكرها فيما يلى :-

شروط الموصى : يشترط فى الموصى أن يكون أهلاً للتبرع بأن يكون كامل الأهلية ، وكمال الأهلية بالعقل والبلوغ والحرية والاختيار وعدم الحجر لسفه أو غفلة .

فإن كان الموصى ناقص الأهلية بأن كان صغيراً أو مجنوناً أو عبداً أو مكرهاً أو محجوراً عليـه ، فإن وصيته لا تصح .

ويستثنى من ذلك أمران :-(١) وصية الصغير المميز الخاصة بأمر تجهيزه ودفنه ، ما دامت فى حدود المصلحة .

(٢) وصية المحجور عليه للسفه فى وجه من وجوه الخير ، مثل تعليم القرآن وبناء المساجد وإقامة المستشفيات . ثم إن كان له وارث وأجازها الورثة نفذت من كل ماله ، وكذا إذا لم يكن له وارث أصلاً . وأما إن كان له ورثة ولم يجيزوا هذه الوصية فإنها تنفذ من ثلث ماله فقط ، هذا مذهب الأحناف ، وخالف ذلك الإمام مالك فأجاز وصية ضعيف العقل والصغير الذى يعقل معنى التقرب إلى الله تعالى قال : (الأمر المجمع عليه عندنا أن الضعيف فى عقله والسفيه والمصاب الذى يفيق أحيانا ، تجوز وصاياهم إذا كان معهم من عقولهم ما يعرفون ما يوصون به ، وكذلك الصبى الصغير إذا كان يعقل ما أوصى به ولم يأت بمنكر من القول ، فوصيته جائزة ماضية) .

وقد أجاز القانون فى مصر وصية السفيه وذوى الغفلة إذا أذنت بها الجهة القضائية المختصة .

شروط الموصى له : يشترط فى الموصى له الشروط الآتية :-

(١) ألا يكون وارثاً للمـوصى . روى أصحاب المغـازى أن رسول الله ﷺ قـال عام الفتـح :

(لا وصية لوارث)[1] . رواه احمد وأبو داود والترمذى وحسنه .

وهذا الحديث وإن كان حديث آحاد ، فإن العلماء تلقته بالقبول وأجمعت العامة على القول به .

«وأما آية ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيرا ، الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ، حقا على المتقين﴾ . فقد قال الجمهور من العلماء بنسخها .

وقال الشافعى : إن الله تعالى أنزل آية الوصية وأنزل آية المواريث ، فاحتمل أن تكون آية الوصية باقية مع الميراث ، واحتمل أن تكون المواريث ناسخة للوصايا . وقد طلب العلماء ما يرجح أحد الاحتمالين فوجدوه فى سنة رسول الله ﷺ . فقد روى عنه أصحاب المغازى أنه قال عام الفتح : (لا وصية لوارث)[1] . ا . هـ . واتفقوا على اعتبار كون الموصى له وارثاً يوم الموت حتى لو أوصى لأخيه الوارث ، حيث لا يكون للموصى ابن ثم ولد له ابن قبل موته صحت الوصية للأخ الذكر ، ولو أوصى لأخيه وله ابن فمات الابن قبل موت الموصى فهى وصية لوارث .

(٢) ومذهب الأحناف أن الموصى له إذا كان معيناً يشترط لصحة الوصية له : أن يكون موجوداً وقت الوصية تحقيقاً أو تقديراً ، أى يكون موجوداً بالفعل وقت الوصية ، أو يكون مقدَّرا وجوده أثناءها ، كما إذا أوصى لحمل فلانة وكان الحمل موجوداً وقت إيجاب الوصية .

أما إذا لم يكن الموصى له معيناً بالشخص ، فيشترط أن يكون موجوداً وقت موت الموصى تحقيقا أو تقديرا .

فإذا قال الموصى : أوصيت بدارى لأولاد فلان ، ولم يعين هؤلاء الأولاد ثم مات ولم يرجع عن الوصية ، فإن الدار تكون مملوكة للأولاد الموجودين وقت موت الموصى سواء منهم الموجود حقيقة أو تقديراً ، كالحمل ، ولو لم يكونوا موجودين وقت إيجاب الوصية ويتحقق من وجود الحمل وقت الوصية أو وقت موت الموصى متى ولد لأقل من ستة أشهر من وقت الوصية ، أو من وقت موت الموصى . وقال الجمهور من العلماء : إن من أوصى أن يفرق ثلث ماله حيث أرى الله الوصى إنما تصح وصيته ، ويفرقه الوصى فى سبيل الخير ولا يأكل منه شيئاً ولا يعطى منه وارثاً للميت .

وخالف فى ذلك أبو ثور ، أفاده الشوكانى فى نيل الأوطار .

(٣) ويشترط ألا يقتل الموصى له الموصى قتلاً محرماً مباشراً ، فإذا قتل الموصى له الموصى قتلاً محرماً مباشراً بطلت الوصية له ، لأن من تعجل الشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، وهذا هو مذهب أبى يوسف .

وقال أبو حنيفة ومحمد : لا تبطل الوصية ، وتتوقف على إجازة الورثة .

شروط الموصى به : يشترط فى الموصى به أن يكون بعد موت الموصى قابلاً للتمليك بأى سبب من أسباب الملك ، فتصح الوصية بكل مال متقوم من الأعيان ، ومن المنافع وتصح الوصية بما يثمره شجره وبما

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .

فى بطن بقرته ، لأنه يملك بالإرث ، مما دام محققاً وقت موت الموصى استحقه الموصى له .

وهذا بخلاف ما إذا أوصى بمعدوم .

وتصح الوصية بالدين وبالمنافع كالسكنى والوصية بالخلو ، ولا تصح بما ليس بمال ، كالميتة ، وما ليس متقوماً فى حق العاقدين كالخمر للمسلمين .

مقدار المال الذى تستحب الوصية فيه

قال ابن عبد البر : اختلف السلف فى مقدار المال الذى تستحب فيه الوصية أو يجب عند من أوجبها ، فروى عن على أنه قال ستمائة درهم أو سبعمائة درهم ليس بمال فيه وصية . وروى عنه ألف درهم قال فيه وصية .

وقال ابن عباس : لا وصية فى ثمانمائة درهم .

وقالت عائشة فى امرأة لها أربعة من الولد ولها ثلاثة آلاف درهم : «لا وصية فى مالها» . وقال إبراهيم النخعى : ألف درهم إلى خمسمائة درهم .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ ألفاً فما فوقها . وعن على : من ترك مالاً يسيراً فليدعه لورثته فهو أفضل . وعن عائشة فيمن ترك ثمانمائة درهم : لم يترك خيراً فلا يوصى ﴾ ا هـ .

الوصية بالثلث : وتجوز الوصية بالثلث ولا تجوز الزيادة عليه ، والأولى أن ينقص عنه ، وقد استقر الإجماع على ذلك .

روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى ﷺ يعودنى وأنا بمكة وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ، قال : يرحم الله ابن عفراء . قلت يارسول الله أوصى بمالى كله ؟ قال : لا . قلت : فالشطر (النصف) ؟ قال : لا . قلت : الثلث ؟ قال : فالثلث والثلث كثير ، إنك إن تدع (تترك) ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة (فقراء) يتكففون الناس « يبسطون للسؤال أكفهم » فى أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة ، حتى اللقمة ترفعها إلى فى (فم) امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك أناس ويضر بك آخرون . ولم يكن له يومئذ إلا ابنة[1] (كان هذا قبل أن يولد له الذكور . وقد ولد له بعد ذلك أربعة بنين ، ذكره الواقدى ، وقيل : أكثر من عشرة ومن البنات اثنتا عشرة بنتا)

الثلث يحسب من جميع المال :

ذهب جمهور العلماء إلى أن الثلث يحسب من جميع المال الذى تركه الموصى . وقال مالك : يحسب الثلث مما علمه الموصى دون ما خفى عليه أو تجدد له ولم يعلم به .

وهل المعتبر الثلث حال الوصية أو عند الموت ؟ ذهب مالك والنخعى وعمر بن عبد العزيز إلى أن المعتبر ثلث التركة عند الوصية .

---

(١) صحيح البخارى حـ ٤ ص ٦٧ ط الشعب

وذهب أبو حنيفة وأحمد والأصح من قولى الشافعية إلى اعتبار الثلث حال الموت . وهو قول على وبعض التابعين .

الوصية بأكثر من الثلث :

الموصى إما أن يكون له وارث أو لا ، فإن كان له وارث فإنه لا تجوز له الوصية بأكثر من الثلث كما تقدم . فإن أوصى بالزيادة على الثلث فإن وصيته لا تنفذ إلا بإذن الورثة ، ويشترط لنفاذها شرطان : ـ

١) أن تكون بعد موت الموصى ، لأنه قبل موته لم يثبت للمجيز حق ، فلا تعتبر إجازته ، وإذا أجازها بعد الحياة نفذت الوصية . وقال الزهرى وربيعة : ليس له الرجوع مطلقا .

٢) أن يكون المجيز وقت الإجازة كامل الأهلية غير محجور عليه لسفه أو غفلة .

وإن لم يكن له وارث فليس له أن يزيد على الثلث أيضا . وهذا عند جمهور العلماء .

وذهب الأحناف وإسحاق وشريك وأحمد فى رواية ، وهو قول على وابن مسعود ، إلى جواز الزيادة على الثلث ، لأن الموصى لا يترك فى هذه الحال من يخشى عليه الفقر ، ولأن الوصية جاءت فى الآية مطلقة ، وقيدتها السنة بمن له وارث ، فبقى من لا وارث له على إطلاقه .

بطلان الوصيـة :

وتبطل الوصية بفقد شرط من الشروط المتقدمة ، كما تبطل بما يأتى : ـ

١ ــ إذا جن الموصى جنونا مطبقا واتصل الجنون بالموت .
٢ ــ إذا مات الموصى له قبل موت الموصى .
٣ ــ إذا كان الموصى به معينا وهلك قبل الموصى له .

الوصيـة الواجبـة :

صدر قانون الوصية الواجبة رقم ٧١ لسنة ١٣٦٥ هجرية سنة ١٩٤٦ وقد تضمن الأحكام الآتية :

١ ــ إذا لم يوص الميت لفرع ولده الذى مات فى حياته أو مات معه ولو حكماً بمثل ماكان يستحق هذا الولد ميراثاً فى تركته لو كان حياً عند موته ــ وجبت للفرع وصية فى التركة بقدر هذا النصيب فى حدود الثلث ، بشرط أن يكون غير وارث ، وألا يكون الميت قد أعطاه بغيره عوضا من طريق تصرف آخر قدر ما يجب له ، وإن كان ما أعطاه له أقل منه وجبت له وصية بقدر ما يكمله . وتكون هذه الوصية لأهل الطبقة الأولى من أولاد البنات ولأولاد الأبناء من أولاد الظهور وإن نزلوا ، على أن يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره ، وأن يقسم نصيب كل أصل على فرعه وإن نزل قسمة الميراث كما لو كان أصله أو أصوله الذين يدلى بهم إلى الميت ماتوا بعده وكان موتهم مرتبا كترتيب الطبقات .

٢ ــ إذا أوصى الميت لمن وجبت له الوصية بأكثر من نصيبه كانت الزيادة وصية اختيارية ، وإن أوصى له بأقل من نصيبه وجب له مايكمله ، وإن أوصى لبعض من وجبت لهم الوصية دون البعض الآخر وجب لمن لم يوص له قدر نصيبه ، ويؤخذ نصيب من لم يوص له ويوفى نصيب من أوصى له بأقل مما وجب من باقى الثلث ، فإن ضاق عن ذلك فمنه ومما هو مشغول بالوصية الاختيارية .

٣ ــ الوصية الواجبة مقدمة على غيرها من الوصايا ، فإذا لم يوص الميت لمن وجبت لهم الوصية وأوصى لغيرهم استحق كل من وجبت له الوصية قدر نصيبه من باقى ثلث التركة إن وفى ، وإلا فمنه ومما أوصى به لغيرهم .

طريقة حل المسائل التى تشتمل على الوصية الواجبة :

١ ــ يفرض الولد الذى مات فى حياة أحد أبويه حيا وارثا ، ويقدر نصيبه كما لو كان موجوداً .

٢ ــ يخرج من التركة نصيب المتوفى ويعطى نوعه المستحق للوصية الواجبة إن كان يساوى الثلث فأقل ، فإن زاد على الثلث يرد إلى الثلث ، ثم يقسم على الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين .

٣ ــ يقسم باقى التركة بين الورثة الحقيقيين على حسب فرائضهم الشرعية .

الصيام

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

المفردات : الصيام فى اللغة : الإمساك والكف عن الشىء ، وفى الشرع الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر إلى المغرب احتسابا لله ، وإعدادا للنفس وتهيئة لها لتقوى الله بمراقبته فى السر والعلن . والإطاقة : القدرة على الشىء مع تحمل المشقة الشديدة . والفدية : هى طعام مسكين من أوسط ما يطعمون منه أهليهم بقدر كفايته أكلة واحدة عن كل يوم يفطرونه ، واليسر : السهولة والتخفيف ، وضده العسر .

الصيام فى الإسلام عبادة كريمة الشأن رفيعة المستوى ، إذ أنه يقوم بتهذيب الدوافع الفطرية من المآكل والمشرب والمباشرة الجنسية . ولعلنا نلحظ دور الصيام فى تربية الضمير ، فهو أستاذ فى علم الأخلاق ، يغرس فى النفس قوة مراقبة الله للعبد . وهنا نسأل : لماذا كان الصيام بين الإيمان والتقوى فى قوله جل شأنه : **﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾** ، ذلك لأن الإيمان

تصديق بالقلب ، وما استقر فى القلب سر من أسرار الله لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى . والتقوى ، وهى مخافة الله محلها القلب أيضا ؛ فقد أشار النبى ﷺ إلى صدره الشريف وقال : التقوى ها هنا . وجاء الصيام بينهما كأنه واسطة العقد ، إذ الصيام عبادة سرية لا يطلع عليها إلا الله ، فهو إمساك عن المفطرات من شهوتى البطن والفرج من مطلع الفجر إلى غروب الشمس ، ولذا أضافه الله تعالى إلى ذاته الأقدس حيث قال فى حديثه القدسى الجليل : (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به)(١)

فالإنسان فى صيامه تحت رقابة الله ، لا يطلع عليه غيره ، ومن هنا كانت المناسبة قوية بين الصيام والإيمان والتقوى ، وهل الضمير إلا شدة الرقابة من العبد فى أفعاله ؟ فأنت تستطيع أن تأكل ملء بطنك وتشرب من المثلجات وتخرج لتشكو للناس شدة الحر والعطش فى نهار رمضان ، وأنت تعلم أنك تخدع نفسك .

الله يـدرى كـل مـا تـضـمـر ... ويـعـلم مـا تخـفـى ومـا تـظهـر
وإن خـدعـت الـنـاس لـم ... تستطع خداع من يـطوى ومن ينشر

ولقد صدق الهادى البشير ﷺ وهو يقول لجبريل : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٢)) فهنا مقامان : مقام المشاهدة ، ومقام المراقبة ، وإذا كان فى القصاص حياة للنفوس فإن الصيام حياة للأرواح ، فالشبع بحر تجرى فيه الشياطين ، والجوع نهر تسبح فيه الملائكة . وهكذا يتبين لنا أستاذية الصيام فى علم الأخلاق ؛ أما أستاذيته فى علم الاجتماع فإنها تتجلى فى قول الصادق المعصوم : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فـإنه أغض للبصـر وأحصن للفرج ، ومن لم يسـتـطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء) . كما أن حكمته اجتماعية تتجلى فى صيام الحكام الذين إذا تربعوا على كراسى الحكم لا يكادون يشعرون بقوم يبيتون على الطوى ، يعبث الجوع بأمعائهم ، يستحلبون الصخور ؛ وقوم آخرون تتمرغ النعمة فى أعتابهم ويشتهون أن يدوسوها بأقدامهم . كان نبى الله يوسف الصديق يصوم يوما ويفطر يوما ، فقيل له : لم تكثر من الصيام ، وقد جعل الله خزائن الأرض تحت يـديك ؟ فقـال كلمته الشهيرة : (أخشى أن أشبع فأنسى الجائع) ويرحم الله الفاروق عمر ، كان بطنه يحدث أصواتاً من كثرة ما أكل بالزيت ، فكان يقول لبطنه : قرقر أو لا تقرقر ، لن تذوق اللحم حتى يشبع أطفال المسلمين .

إن جـاع فى شـدة قـوم شـركتهمُ ... فى الجـوع أو تنجلى عنهم غـواشيها
جـوع الخليفـة والـدنيـا بقبضتـه ... فى الـزهد منزلـة سبحـان مـوليهـا
فمن يـبـارى أبـا حفص وسيـرتـه ... أو من يحـاول للفـاروق تشبيهـا
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقـال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فـأشريهـا
مـازاد عن قـوتنـا فـالمسلمـون بـه ... أوْلى فقـومى لـبيت المـال رديهـا
كـذاك أخلاقـه كانت ومـا عهـدت ... بعـد النبـوة أخـلاق تحـاكيهـا

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥١ ط وزارة الأوقاف .

(٢) صحيح مسلم حـ ١ ص ١٣٣ ط الشعب .

والصيام أستاذ فى السياسة والاقتصاد ، فهو عامل وحدة بين الأمة الإسلامية فى رمضان مهما ترامت أطرافها واتسع مداها فى مشارق الأرض ومغاربها ، إذ الكل عند مطلع الفجر فى حالة إمساك عن المفطرات ، فإذا ماغربت الشمس علم الجميع أن الإذن قد ورد من رافع السماء بلا عمد بإباحة ما كان محرماً من قبل ، فقال كل منهم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت ، اغفرلى ماقدمت وما أخرت ، الحمد لله ، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . وكان واجبا على المسلمين أن يعلموا الحكمة من الصيام فيقتصدوا فى المطعم والمشرب والإنفاق ، فقد كان إفطار الرسول ﷺ متواضعاً مقتصداً ، بعض ثمرات وبعض اللبن ، فإن لم يجد فعلى شيء من الماء . وما ملأ ابن آدم وعاءً قط شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه . وهنا يأتى دور الصيام طبيباً . قال أحد المجادلين لأحد علماء المسلمين : إن كتابكم خلى من الطب . فقال له العالم المسلم : بل إن كتابنا جمع الطب كله فى نصف آية ، قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين ﴾ . ولما أرسل المقوقس ، عظيم مصر ، بهدية إلى سيد المرسلين قبلها الهادى البشير ، ولكنه رد الطبيب وقال له : لسنا فى حاجة إليك ، ولما رجع الطبيب إلى المقوقس سأله : لماذا ردك محمد ؟ قال الطبيب : لقد أرسلتنى إلى رجل جمع الطب كله فى كلمتين : نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا ، وإذا أكلنا لا نشبع . فماذا يقول الطب عن الصيام ؟ قال الأطباء : إن من الناس من يتوهم أن فى صيام رمضان مضرة تلحق بالصائم لما يصيب الجهاز الهضمى خاصة وغيره عامة ، ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب ، وهذا خطأ ، لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام فى شىء ، ولكنه من ترك الاعتدال فى طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله وقت الإفطار ، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات ، لأنه لا ضرر من الجوع فى حد ذاته . لقد ظهر أن الصيام يفيد فى حالات كثيرة ، وهو العلاج الوحيد فى أحوال أخرى . وهو أهم علاج ، إن لم يكن العلاج الوحيد ، للوقاية من أمراض كثيرة ، فللعلاج يُستعمل فى :

١ - اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية ، وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما فى صيام رمضان ، وممكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر ، وهذه الطريقة هى أنجح طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ - زيادة الوزن الناشىء من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجح من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار فى الطعام والاكتفاء بالماء فى السحور .

٣ - زيادة الضغط الذاتى ، وهو آخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعى لمثله .

٤ - البول السكرى ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون فى مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالبا بزيادة فى الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ، ويهبط السكر فى

الدم بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعى فى حالات البول السكرى الخفيف ، وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعى بكثير ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج من هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعى . ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ - التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ - أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ - التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين . وقد شوهدت حالات تتمشى فى شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

إن فائدة الصيام للأصحاء هى الوقاية من هذه الأمراض التى مر ذكرها .

وهذه الأمراض كلها تبتدىء فى الإنسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها . ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هى الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى وزيادة الضغط الذاتى والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك ، ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها .

والصيام شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض ، وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ؛ فقد انتشرت فى أوربا أكثر . وفى مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وقليل جداً من الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر فى أن الصيام فى الإسلام أشد منه فى الأديان السابقة ، لأن الإسلام هو آخر الشرائع السماوية ، جاء فى زمن نحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف .

وللصيام أفضال جاءت فى أحاديث الرسول ، وعلى رأس هذه الأفضال قوله ﷺ : (لو تعلم أمتى ما فى رمضان من الخير لتمنت أن تكون السنة كلها رمضان)[١] .

وعنه ﷺ : (للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه)[٢] .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (الأعمال عند الله عز وجلَّ سبع : عملان موجبان ، وعملان بأمثالها ، وعمل بعشر أمثاله . وعمل بسبعمائة ، وعمل لا يعلم ثواب عامله إلا الله عزَّ وجلَّ ، فأما الموجبان : فمن لقى الله يعبده مخلصاً لا يشرك به شيئاً وجبت له الجنة ، ومن لقى الله وقد

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤٧ ط وزارة الأوقاف . (٢) صحيح سلم جـ ٣ ص ٢٠٨ ط الشعب .

أشرك به وجبت له النار . ومن عمل سيئة جزى بها ، ومن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها جُزِىَ مثلها ، ومن عمل حسنة جزى عشرا . ومن أنفق ماله فى سبيل الله ضُعِّفت له نفقته ، الدرهم بسبعمائة ، والدينار بسبعمائة ، والصيام لله عزَّ وجلَّ لا يعلم ثواب عامله إلا الله عزَّ وجلَّ)(١) .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : أسندت النبى ﷺ إلى صدرى فقال : (من قال : لا إله إلا الله خُتم له بها دخل الجنة ، ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة ، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة)(٢)

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله مرنى بعمل قال : (عليك بالصوم . فإنه لا عدل له . قلت : يا رسول الله مرنى بعمل ، قال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له . قلت : يا رسول الله مرنى بعمل قال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له)(٣) .

وعن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من صام يوماً فى سبيل الله بعدت منه النار بمسيرة مائة عام)(٤) .

وقد ورد فى صيام رمضان خاصة من الفضل ما هو به جدير ، فقد جاء فيه عن البشير النذير قوله : (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)(٥) .

وعن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (احضروا المنبر فحضرنا ، فلما ارتقى درجة قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : آمين . فلما نزل قلنا : يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه ؟ قال : إن جبريل عليه السلام عرض لى فقال : بَعُدَ من أدرك رمضان فلم يغفر له قلت : آمين ، فلما رقيت الثانية قال : بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك . فقلت آمين . فلما رقيت الثالثة قال : بعد من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قلت آمين)(٦) .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبى قبلى : أما واحدة فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عزَّ وجلَّ إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدا . وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك . وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة . وأما الرابعة فإن الله عزّ وجلّ يأمر جنته فيقول لها استعدى وتزينى لعبادى أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى . وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٢ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٥ ط وزارة الأوقاف .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٦ ط وزارة الأوقاف .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٦١٣ ط دار الفكر
(٥) الجامع الصغير للسيوطى ج٢ ص ٦٢٩ ط دار الفكر.
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٦٠ ط وزارة الأوقاف .

جميعا . فقال رجل من القوم : آهى ليلة القدر ؟ فقال : لا . ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغـوا من أعمالهم وفوا أجورهم)[١] .

وقد كان ﷺ إذا جاء رمضان بشر أصحابه قائلاً : (أتاكم شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتُغَلُّ فيه مردة الشياطين ، لله فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرم خيرها فقد حرم)[٢] .

لقد جاءت آيات الصيام فى شهر قرآنى مشبع بالرحمات تهب عليه ، وتتخلله نسمات تحمل فى ثناياها قطرات الندى معطرة بأعراف الجنة . والصائم فى هذا الجو ينساب فى أخلاق أرق من النسيم وأندر من صفحة الروض الوسيم . إن الصيام لما كان تهذيباً للدوافع الفطرية من مأكل ومشرب ، فإن رحمات الله تبارك وتعالى قد أحاطت بالصائمين من كل مكان ، لذا جاءت آيات الصيام وفى ثناياها تخفيفات ربانية كريمة ، جاء التخفيف الأول فى صيغة الخطاب للمؤمنين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، وبالإيمان يصبح كل شىء ميسوراً . فالإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب ، يكاد يجعل المستحيل ممكناً . والملح الأجاج عذباً فراتا سلسبيلا . ومن ثم فإن المؤمن يسمع نداء الحق تبارك وتعالى ولسانه يلهج بالثناء على الله ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

وكأنه يقول :

رضـاك خـير من الـدنيـا ومـا فيهـا ... يـا مالـك النفس قـاصيهـا ودانيهـا
فـليس لـلنـفس آمـال تحـقـقـهـا ... سـوى رضـاك فـذا أقصى أمـانيهـا
فنظرة منـك يـا سؤلى ويـا أمـلى ... خـير إلىَّ من الـدنيـا ومـا فيهـا

وكيف لا يستقبل المؤمن خطاب ربه بنفس مفعمة بالرضا جياشة بالطمأنينة ، وهو دائماً يقرأ قول الله تبارك اسمه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾[٣] .

إن المؤمنين يأتون ما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة ، أنهم إلى ربهم راجعون ، ولسان حال الواحد منهم يقول لربه :

لـما عـلمـت بـأن قـلبى فـارغ ... ممـن سـواك مـلأتـه بهـداك
ومـلأت كـلى منـك حتى لم أدع ... منى مكـانـاً خـاليـاً لـسـواك

ويأتى التخفيف الثانى متمثلا فى قول البارى جل شأنه : ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ، فمادام الذى كتب

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٩ ، ٦٠ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٦٤ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة الأنفال الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .

هذا هو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، فلتستقبل النفوس الواثقة هذا المكتوب بكرم وسعادة ولسان الحال يقول : شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض . ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

ويأتى التخفيف الثالث متمثلاً فى قوله جل شأنه : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ ، أى لقد كان هذا الصيام فرضا على من سبقكم من الأمم فصاموه وامتثلوا أمر الله ، فأنتم يا خير أمة أخرجت للناس أولى الناس امتثالاً لأمر الله ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾[1] .

ويأتى التخفيف الرابع متمثلاً فى قوله تعالى : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهل التقوى إلا جماع الخير كله . أتى الإمام على كرم الله وجهه المقابر ذات يوم فقال : يا أهل المقابر هنيئاً لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أما أموالكم فقد قسمت ، وأما بيوتكم فقد سكنت وأما نساؤكم فقد تزوجن بغيركم هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم . ثم أنصت قليلاً وقال لمن حوله : والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى . فإذا كان الصيام يؤدى إلى أشرف غاية وهى التقوى لله . فما أعظم تلك الغاية وما أجل ما أدى إليها ، فالتقوى هى السلاح الأقوى . قيل للحسن البصرى رضى الله عنه : يا إمام عظنا ، فقال : يا هذا صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى	تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه	ولا خير فيمن كان لله عاصيا

ويأتى التخفيف الخامس متمثلا فى قوله جل جلاله : ﴿ أياما معدودات ﴾ أى ليس الصيام الدهر كله ، إنما هو أيام سرعان ما تمر مرّ السحاب ، ما تلبث أن تنقضى ويصبح رمضان كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر . وكثيراً ما أتمثل هذه الأبيات عندما تأتى الأيام الأخيرة من رمضان :

فياشهر الصيام فدتك نفسى	تمهل بالرحيل والانتقال
فما أدرى إذا ما الحول ولىّ	وعدت بقابل فى خير حال
فهذه سنة الدنيا دواما	فراق بعد جمع واكتمال
وتلك طبيعة الأيام فينا	تبدد نورها بعد الكمال

ويأتى التخفيف السادس متمثلاً فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ . فقد اقتضت رحمة الله العلى الكريم أن يكلف عباده بما يستطيعون . ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[2] .

ثم يأتى التخفيف السابع متمثلاً فى قوله جل شأنه : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ ،

---

(١) سورة النور الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

(٢) سورة الحج آية : ٧٨ .

وهذا فى حق كبار السن الذين لا يستطيعون الصيام والمرضى بأمراض مزمنة عليهم أن يطعموا مسكينا عن كل يوم أفطروه فى رمضان .

مما تقدم نعرف أن الوعيد شديد لمن أفطر يوماً من رمضان بغير عذر . قال ﷺ : (من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه[١]) وقال ﷺ : (عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة ، عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان)[٢] .

وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول ﷺ يقول : (بينما أنا نائم أتانى رجلان فأخذا بضبعى ، فأتيا بى جبلا وعرا ، فقالا : اصعد : فقلت : إنى لا أطيق ، فقلا : إنا سنسهله لك ، فصعدت حتى إذا كنت فى سواء الجبل إذا بأصوات شديدة قلت : ما هذه الأصوات ؟ قالا : هذا عواء أهل النار ، ثم انطلِق بى ، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم ، مشققة أشداقهم تسيل أشداقهم دما ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يفطرون قبل تحلة صومهم)[٢] .

وبعد فإن الله جلت قدرته يفتح أبواب المثوبة لكل راغب فى رحمته فيقول : ﴿ **فمن تطوع خيراً فهو خير له** ﴾ ، أى فمن زاد فى الإطعام على مسكين واحد فذلك خير وبركة ، لأن صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر .

قوله تعالى : ﴿ **وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ خطاب للمسافرين والمرضى الذين يستطيعون الصيام ، لأن فى الصيام تهذيبا للنفس وتصفية للروح فضلا عن المثوبة العظمى عند الله .

روى أن أبا أمامة قال للنبى ﷺ : مرنى بأمر آخذه عنك قال : (عليك بالصوم فإنه لا مثل له) .

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

روى عن الحسن أنه قال : إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى ؛ أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوما من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان ، فصادفوا فيه الحر الشديد ، فحولوه إلى وقت لا يتغير ، ثم قالوا عند ذلك : نزيد فيه ، فزادوا عشرا ، ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فنذر سبعا فزادوه ، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال : ما بال هذه

(١) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٧١ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٧٢ ط وزارة الأوقاف .
الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٧١، ٧٢ وزارة الأوقاف

الثلاثة ؟ فأتمه خمسين يوما . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ﴾[١] .

أنزل الله تعالى فرض صيام رمضان على النبى وأمته فى شهر شعبان من العام الثانى من الهجرة . وقد شرفه الله تعالى بأعظم شرف ، فقد أنزل أعظم ملك هو جبريل ، بأعظم كتاب هو القرآن ، وبأعظم لغة هى العربية ، فى أعظم شهر هو رمضان ، فى أعظم بلد هى مكة ، فى أعظم ليلة هى ليلة القدر ، لأعظم أمة هى أمة الإسلام ، على أعظم نبى هو مبعوث الهداية الإلهية وشمس الهداية الربانية ؛ فهو الأمى الذى علم المتعلمين ، اليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب البائسين ، القائد الموفق الذى قاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى شاطىء الأمان ، إلى صراط الله رب العالمين . ثم بين سبحانه وظيفة هذا الكتاب ورسالته الخالدة فقال : ﴿ هدى للناس ﴾ ، فهو الهادى إلى الصراط المستقيم ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ؛ من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم ؛ لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ؛ ومع الهدى بينات ودلائل قاطعة ، وبراهين ساطعة ، من هذا الهدى والفرقان الذى يفرق به الله بين الحلال والحرام ، والحق والباطل ، والكفر والإيمان . فيا أمة الإسلام ، يا من شرفكم الله بهذا القرآن : ﴿ من شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ، أى من حضر هلاله ، وهو صحيح غير مريض ، مقيم غير مسافر ، مُكَلف ، فعليه بالصيام .

ثم يعيد سبحانه وتعالى الرخصة للمسافرين والمرضى مرة أخرى ، حتى لا يُظَن أنه لعظم هذا الشهر قد رفع الرخص ، وأنه لا عذر لأحد فى الإفطار ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ . ثم يبين سبحانه وتعالى الروح الذى يسرى فى التشريع سريان الماء فى العود الأخضر ، وسريان نور القمر فى الليل السارى ، فيقول سبحانه : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ﴾ ، فصوموا هذا الشهر ، ومن أفطر فيه لعذر كالمسافر والمريض والشيخ الفانى والشيخة الفانية ، والحامل والمرضع ، إذا تعذر عليهما الصيام ، والحائض والنفساء ؛ كل هؤلاء عليهم أن يكملوا العدة بقضاء ما أفطروا ، وعلى الجميع أن يكبر الله تكبير شكر واعتراف بالجميل ، فلا أحد أكبر من الله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ولتشكروا هذا الإله المنعم المتفضل على ما أولاكم من نعم ، وأسبغها عليكم ظاهرة وباطنة ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾[٢] .

آية الدعاء

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(١) سورة التوبة آية : ٣١ .

(٢) سورة النحل اية : ١٨

قال رجل : يا رسول الله أقـريب ربنا فنناجيه أم بعيـد فنناديـه ؟ فنزلت ﴿ وإذا سـألك عبـادى عنى . . . ﴾ . ونحن هنا نلاحظ أن الأسئلة التى كانت توجه للنبى ﷺ ، كان الله تبارك اسمه يلقنه إجابتها بلفظ قل . فمثلا ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾[1] ؛ ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾[2] ، ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾[3] ، إلى غيرذلك من الأسئلة . أما فى آية الدعاء فلم يوسط لفظ قل فى الإجابة ، بل قال سبحانه مباشرة ﴿ فإنى قريب ﴾ ، وذلك لسببين : أولهما : نفى الوسائط بين العبد وربه . وثانيهما : الدلالة على عظم القرب الإلهى للعباد ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[4] . ولذا كان الرسول ﷺ يقول لأصحابه : (إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)[5] .

قال الإمام ابن تيمية : « وهو سبحانه فوق العرش ، رقيب على خلقه ، مهيمن عليهم ، مطلع إليهم ؛ فدخل فى ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » .

قوله : ﴿ عبادى ﴾ بالإضافة إلى ضمير الذات الإلهية ، إضافة رحمة وشفقة وتشريف . قوله : ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ ، يفيد أن الله تعالى يجيب الدعوة وقت دعائها ، بدليل الظرف إذا ؛ ويجيب الدعوة على حسب ما يريده ويختاره سبحانه وتعالى ، فإن كان الخير فى التعجيل عجّل ، وإن كان الخير فى التأجيل أجّل ، وإلا فإن الدعاء عبادة تخفف البلاء النازل من السماء . ويستجيب الله من العبد الدعاء ما لم يقل : دعوت فلم يُستجب لى . ولذا قال ﷺ : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة)[6] . وقال : (أفضل العبادة انتظار الفرج)[7] (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تتفجر أنهار الجنة)[8] ، وكان يأمرهم أن يسألوا الله العافية ويعلمهم أن يقولوا : (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى)[9] . قال تعالى : ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ ، استجابة طاعة بامتثال الأوامر واجتناب النواهى . وأول دلائل الاستجابة الإيمان . قال تعالى : ﴿ وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ . إذا فطريق الرشاد والسداد والتوفيق متوقف على الاستجابة والإيمان . وإنما جاءت آية الدعاء بين آيات الصيام لأن بين الصيام والدعاء تمام ارتباط ، فإن للصائم عند فطره دعوة لا ترد . وهناك ثلاثة لا ترد لهم دعوة : الإمام العادل ، ودعوة الصائم ، ودعوة المظلوم . وكان من الهدى النبوى دعوات الرسول ﷺ عند الإفطار : اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت . الحمد لله . ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . والدعاء المطلوب هو الدعاء بالقول مع التوجه إلى الله بالقلب ، ومن ثم سماه النبى ﷺ مُخ العبادة .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢١٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٩ .
(٤) سورة ق آية : ١٦ .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣١٣ ط الشعب .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣١٣ ط دار الفكر .
(٧) المصدر السابق جـ ١ ص ١١٢ ط دار الفكر .
(٨) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٩ ط الشعب .
(٩) المصدر السابق جـ ٨ ص ٤٧٢ .

عفو إلهي كريم

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

سبب النزول : قال العلامة ابن كثير فى هذه الآية : هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام ؛ فإنه كان إذا أفطر أحدهم ، إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة(١) .

المفردات : ﴿ **ليلة الصيام** ﴾ : هى الليلة التى يصبح منها المرء صائما ، والرفث إلى النساء : الإفضاء إليهن . قال الأزهرى : الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة . واللباس : الملابسة والمخالطة . ﴿ **تختانون أنفسكم** ﴾ : أى تخونون أنفسكم بعمل شىء تعدونه حراما . ﴿ **الخيط الأبيض** ﴾ : أول ما يبدو من بياض النهار ، كالخيط الممدود رقيقا ثم ينتشر . ﴿ **الخيط الأسود** ﴾ : هو ما يمتد من سواد الليل مع بياض النهار . فالصبح إذا بدا فى الأفق بدا كأنه خيط ممدود ويبقى بقية من ظلمة الليل يكون طرفها الملاصق لما يبدو من الفجر كأنه خيط أسود فى جنب خيط أبيض . والإتمام : الأداء على وجه التمام ، وحقيقة المباشرة مس كل بشرة الآخر : أى ظاهر جلده ، والمراد بها ما أريد بالرفث . والاعتكاف شرعا : المكث فى المسجد طاعة لله وتقربا إليه ، والحدود : واحدها حد ، وهو فى اللغة : الحاجز بين شيئين ، ثم سمى بها ما شرعه الله لعباده من الأحكام ، لأنها تحدد الأعمال ، وتبين أطرافها وغاياتها ، فإذا تجاوزها المرء خرج عن حد النصيحة وكان عمله باطلا .

والمراد بالآيات هنا دلائل الدين ونصوص الأحكام .

روى الإمام أحمد فى سبب نزول هذه الآية ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : إن الناس كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلا من الأنصار يقال له قيس بن

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣١٦ ط الشعب .

صِرْمة (بكسر الصاد) صلى العشاء ثم نام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح ، فأصبح مجهودا . وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام ، فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك ، فأنزل الله ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام** . . . ﴾ ، وهذا يدل على أنه حين فرض الصيام كان كل إنسان يذهب فى فهمه مذهبا كما يؤديه إليه اجتهاده ، ويراه أحوط وأقرب للتقوى حتى نزلت هذه الآية[1] .

نعم إن رحمة الله وسعت كل شىء ؛ ومن آثار تلك الرحمة أن أباح للصائمين الأكل والشرب ومباشرة النساء ليلة الصيام من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، حتى يرفع عنهم العنت والمشقة . فإذا كان الصائم قد حظر عليه أن يأتى نساءه وهو صائم نهارا ، فقد أباح الله له ذلك ليلا . وعبر القرآن عن الجماع تعبيرا أدبيا رفيعا بكلمة ﴿ **الرفث** ﴾ ، كما عبر عنه فى موضع آخر بقوله : ﴿ **وقد أفضى بعضكم إلى بعض** ﴾[1] ، وبقوله : ﴿ **فلما تغشاها حملت حملا خفيفا** ﴾[2] وبين شدة الاتصال بين الرجل وزوجته بقوله : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾ ، أى أن بينكم وبينهن تمام تداخل واتصال ، وقد علم الله أنكم تختانون أنفسكم ، أى تخونونها بالتشديد عليها ، فتاب عليكم فيما حدث ، وعفا عنكم فيما وقع ؛ فالآن باشروا الزوجات ، واطلبوا ما كتب الله لكم من الولد الصالح . كذلك فقد أبيح لكم الأكل والشرب ليلا حتى يتبين الفجر ، كما يتبين الخيط الأبيض من الأسود . والمراد بالخيط الأبيض نور النهار ، وبالخيط الأسود ظلمة الليل . بعدها : ﴿ **أتموا الصيام إلى الليل** ﴾ ، وكما يفسد الصيام بالجماع ، كذلك يفسد الاعتكاف بالجماع ، قال تعالى : ﴿ **ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد** ﴾ .

ثم نهى سبحانه عن قرب حدوده خشية الوقوع فى الحرام ، فالنهى عن القرب نهى عن الفعل من باب أولى . قال ﷺ : (إن لكل ملك حمىً ، وإن حمى الله محارمه ، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه) .

قوله تعالى : ﴿ **كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون** ﴾ ، أى يتقون ما حرم الله . والمراد من الآيات الأحكام الشرعية .

النهى عن أكل أموال الناس بالباطل

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

المفردات : المراد بالأكل : الأخذ والاستيلاء ، وعبر به لأنه أعم الحاجات التى ينفق فيها المال وأكثرها ، إذ الحاجة إليه أهم ، والباطل : من البطلان ، وهو الضياع والخسران . وأكله بالباطل : أخذه بدون مقابلة شىء حقيقى ، والشريعة حرمت أخذ المال بدون مقابلة يعتد بها ، وبدون رضا من يؤخذ منه ،

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٧ .
(٢) سورة النساء آية : ٢١ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٨٩ .

وإنفاقه فى غير وجه حقيقى نافع . والإدلاء : إلقاء الدلو لإخراج الماء ، ويراد به إلقاء المال إلى الحكام لإخراج الحكم للملقى . وقوله بها : أى بالأموال . والفريق من الشىء : الجملة والطائفة منه . والإثم : هو شهادة الزور ، أو اليمين الفاجرة أو نحو ذلك .

إنما جاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات الصيام لما لها من وقع شديد فى النفـوس ؛ فإذا كنتم أيها الصائمون قد أمسكتم فى النهار عن أكل ما أحل الله ، فلا يحل لكم أن تأكلوا ما حرم الله ، إذ أنه رُب صائم لا يناله من صومه إلا الجوع ، ورب قائم لا يناله من قيامه إلا السهر ، ومن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه . فهذا الخطاب بالنسبة للصائمين أشد وأوقع ، كأنه قيل : أتمسكون عن الطعام فى الصيام ، وتأكلون أموال الناس بالباطل ، وإنما عبر هنا (بالأكل) دون غيره من الملبس والمركب ، لأن الإنسان أشد ما يكون إلى الطعام ، فكلما كثرت واشتدت حاجته إليه ، كان النهى أوقع .

وإنما جاء التعبير القرآنى : **ولا تأكلوا أموالكم** ولم يقل (ولا تأكلوا أموال غيركم) ، لأن المجتمع الإسلامى كله رجل واحد وجسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . والباطل هو الخسران والضياع ، فأكل الربا باطل ، ودفع الرشوة باطل ، والسرقة والغصب كل هذا وجوه حرم الله مالها ؛ وللمال حرمته فى الإسلام ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ، ولا يحل مال امرىء مسلم الا بطيب نفسه منه ، وما أخذ بسيف الحياء فهو حرام ، حتى لقد ذكروا أن الإمام أبا حنيفة ، رضى الله عنه ، كان ينتظر أحد الناس وهو واقف فى حر الشمس ، وأمامه بيت له ظل ظليل ، فقيل له : يا أبا حنيفه ما ضر لو وقفت فى ظل البيت ؟ فقال : إن هذا البيت مرهون عندى ، واخشى إن وقفت فى ظله أن يسألنى الله عن ذلك ، إذ لا يجوز الانتفاع بالشىء المرهون .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصماً ... فإنه الركن إن خانتك أركان

قال سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله سل الله أن يجعلنى مجاب الدعوة . فقال له الصادق المعصوم : (يا سعد : أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، فوالذى نفسى بيده إن الرجل ليقذف باللقمة من الحرام فى جوفه فلا يقبل الله منه دعاءً ، أو لا يقبل منه عمل ، أربعين يوماً ، ومن نبت جسمه من حرام فالنار أولى به) .

وأشد ما ابتلى به الإنسان دفع الرشوة وأكلها ومن الناس من يدلى ويلجأ إلى الحكام بدفع شىء من المال فى سبيل أن يأكل مال غيره ، ونسى أو تناسى أنه يأكل فى بطنه ناراً وسوف يصلى سعيراً ، ويأكل فريقاً من أموال الناس بالإثم والعدوان ، وهو يعلم أنه آثم خاطىء مذنب ، ويوم القيامة سيعض يديه ندماً ، ويقلب كفيه ألماً ، يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى ، ولات ساعة مندم .

الأهلـة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

جاء فى سبب نزول هذه الآية : أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن أبى صالح عن ابن عباس : (أن معاذ ابن جبل وثعلبة بن عنيمة قالا : يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال ؟ فنزلت الآية)[١] .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها من آيات الصيام ، لأن الأهلة كما كانت مواقيت للناس والحج ، كذلك هى مواقيت لشهر الصيام والإفطار ؛ قال ﷺ : (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)[٢] ، فبينهما تمام ارتباط وتناسب .

لما سألوا رسول الله ﷺ عن الحكمة من منازل الهلال ، بين الله تعالى فائدة ذلك ، لأنه لمعرفة المواقيت الزمانية ، وما أشد حاجة الناس إلى تلك المواقيت : فبالمواقيت يزرعون ويحصدون ويصومون ويحجون ويجاهدون بها ، وتعتد المرأة وتعرف أيام حيضها ونفاسها إلى غير ذلك . قال تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[٣] ، ثم صحح لهم أموراً كانوا يفعلونها فى الحج ، فقال : ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾ .

وروى البخارى وابن جرير عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم عن جابر قال : كانت قريش تُدعى الحُمس (جمع أحمس من الحماسة وهى الشدة والصلابة لتشددهم فى دينهم) ، وكانوا يدخلون البيوت من الأبواب فى الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب فى الاحرام ، فبينا رسول الله ﷺ فى بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصارى ، فقالوا يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وإنه خرج معك من الباب ، فقال له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، قال : إنى رجل أحمسى ، قال له : فإن دينى دينك ، فأنزل الله الآية ..[٤] .

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٣٦ ط دار زهران للنشر والتوزيع ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .
(٢) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٣ دار الفكر .
(٣) سورة يونس آية : ٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم للامام ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ط الشعب .

وبعد ما صحح الإسلام لهم ما انحرفوا عنه ، بين لهم حقيقة البر ، وأنه التقوى ، والتقوى خوف من الجليل ، وعمل بالتنزيل ، ورضا بالقليل واستعداد ليوم الرحيل . والتقوى هى السلاح الأقوى ، والمتقون مفلحون ، يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

وإتيان البيوت من ظهورها ليس من البر أو العقل ، ولا يفعله من اتقى الله ، إنما وضع الأمور فى نصابها يكون بإتيان البيوت من أبوابها ، وحال المسلم يجب أن يكون سمعاً وطاعة لأوامر الله ، وأن يكون باطنه وظاهره على وفق ما أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾[1] ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[2] ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾[3] .

مشروعية القتال فى الإسلام

وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

المفردات : ﴿ سبيل الله ﴾ : دينه لأنه طريق إلى مرضاته . ﴿ يقاتلونكم ﴾ : أى يتوقع منهم قتالكم . ﴿ ولا تعتدوا ﴾ : أى لا تبدءوهم بالقتال . ومحبة الله لعباده : إرادة الخير والثواب لهم . والمعتدون : أى الذين جاوزوا ما حده الله لهم من الشرائع والأحكام . والثقف : الحذق فى إدراك الشىء علماً كان أو عملاً . وقد يستعمل فى مطلق الإدراك . ﴿ من حيث أخرجوكم ﴾ : أى من مكة . والفتنة من قولهم فتن الصائغ الذهب ، إذا أذابه فى النار ليستخرج منه الزغل ، ثم استعملت فى كل اختبار شاق ؛ كالإخراج من الوطن المحبب من الطباع السليمة ، والفتنة فى الدين ، ويكون الدين لله ، أى ويكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه ، فلا يفتن بصده عنه ولا يؤذى فيه ، ولا يحتاج إلى مداهنة ومحاباة أو استخفاء ومداراة .

---

(١) سورة النور آية : ٥٢ .
(٢) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٣) سورة الطلاق اية : ٤ .

بعد ما بين الله تعالى منافع الأهله وأنها مواقيت للناس والحج ، فإنها أيضا مواقيت للأشهر الحرم التى لا يحل فيها القتال ، والتى جاء ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾(١) ، وفى قوله جل شأنه : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾(٢) ، وهذه الأشهر هى ذو العقدة وذو الحجة ومحرم ورجب .

فإذا ما اعتدى على المسلمين فى هذه الأشهر ، جاز لهم أن يردوا العدوان بمثله ، وقد جاء الإذن بالقتال فى الإسلام بعد عدة مراحل من الدعوة ، فقد بدأت الدعوة بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة ، ومازالت وستظل ، قال تعالى لنبيه ومصطفاه : ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر ﴾(٣) ، ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾(٤) .

ثم : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾(٥) ، ثم : ﴿ أذن للذين يقاتلون بـأنهم ظلموا وإن الله عـلى نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾(٦) ، ثم : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

إذن ، فالقتال هنا مشروع ضد المعتدين الآثمين ، ثم أمرهم الله تعالى أن يقتلوهم حيث وجدوهم ، وان يخرجوهم من حيث أخرجوهم فقد أخرجوهم من ديارهم مكة ، قال تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخـرجوا من ديـارهـم وأمـوالهم يبتغـون فضـلاً من الله ورضـوانـا وينصـرون الله ورسـولـه أولئـك هم الصادقون ﴾(٧) ، ثم قال عز من قائل : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ ، والمقصود ، بالفتنة هنا فتنة الرجل فى دينه حتى يرتد عنه ، فقد أذاقوا المسلمين ألوانا من العذاب ، لو صبت على الأيام صرن ليالى ، وما شأن بلال وعمار وخباب وصهيب وابن مسعود وسمية وياسر وغيرهم من المستضعفين ، ما شأنهم ببعيد ، من ثم فإن الفتنة أشد من القتل ، فقاتلوهم واسجنوهم حتى يقضى على الفتنة من جذورها ، ويكون الدين والخضوع والاستسلام لله وحده ، ﴿ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ﴾(٨) . ولقد نهى الله الجماعة المسلمة أن تقاتل المشركين عند المسجد الحرام صيانة لحرمته ، فإنه الأمن كله : طيراً ونباتاً ووحشاً ، إلا إذا بدأ المشركون بالقتال عند المسجد الحرام ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ .

وما أوسع رحمة الله وما أعظم كرمه ، إذ يقول : ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ ، أما إن نكثوا

---

(١) سورة البقرة آية : ١٩٤ .
(٢) سورة التوبة آية : ٣٦ .
(٣) سورة المدثر الآيات : ١ : ٤ .
(٤) سورة النحل آية : ١٢٥ .
(٥) سورة الشعراء آية : ٢١٤ .
(٦) سورة الحج الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .
(٧) سورة الحشر آية : ٨ .
(٨) سورة الشورى آية : ٤٢ .

أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، فالظالم عدو الله ورسولـه ، لابد أن يقلم الإسـلام أظفاره ، ويكسر أنيابه ، ويجتث مخالبه ، لأن وجوده فى الأرض شر مستطير . فالمؤمن إذا مـات استراح بالموت من عناء الدنيا ، والفاجر إذا مات استراحت منه البلاد والعباد والشجر والدواب .

من هنا نعلم أن المسلمين ما استعملوا السيف إلا فى وجه العدوان ، وضد القوى الطاغية ، التى وقفت حائلاً دون إيصال الدعوة إلى الناس .

فالأصل فى الإسلام السلام ، ولكنه سلام عزيز مسلح ، فالله هوالسلام ، والجنة دار السلام ، وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام ، وتحية الله للمؤمنين يوم يلقونه سلام ، وتحيته سبحانه لنبيه : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . فهذا هو الأصل فى معاملات الإسلام الخارجية ، سلام مبنى على العزة والكرامة ، أما السلام الذليل المستكين ، فالإسلام لا يعرفه ولا يقره ، قال تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾[1] .

واسألوا التاريخ : أى المعسكرين اعتدى على الآخر ، معسكـر الشرك أم معسكـر التوحيـد ؟ إن التاريخ يشهد والحقائق تؤكد أن معسكر الشرك كان البادىء بالعدوان ، فهل يقف معسكر التوحيد ذليلاً يستجدى معسكر الشرك ؟ لا والله ، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وما رفع الإسلام السيف إلا فى وجه السيف ، إذ لا يفل الحديد إلا الحديد ، وهل رفع الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف ؟ .

قـالـوا غـزوت ورسـل الله مـا بعثـوا	لقتـل نفس ولا جـاءوا لسفـك دم
جهــل وتضليـل أحــلام وسفسـطة	غزوت بالسيف بعد الغزو بـالقلم
والناس إن ظلموا البـرهان واعتسفـوا	فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والحـرب إن تلقها بـالسلم ضقت بها	ذرعـاً إن تلقهـا بـالسيف تنحسم

قال رباعى بن عامر لقادة الفرس عندما سألوه : ما الذى جاء بكم إلينا ؟ قال : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحدة ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الحــرب فى حق لـديـك شـريعـة	ومـن السـمـوم النـاقـعـات دواء

قولوا للشانئين الحاقدين الحاسدين : ما قامت دعوة الإسلام على السيف ، إنما قامت على الحجة والبرهان ، فيوم أعلن الرسول كلمة التوحيد ، كان وحده ، ويوم انضم أبو بكر إلى رسول الله لم ينضم

(١) سورة محمد آية : ٣٥ .

بالسيف ، ويوم انضم إليهم عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وسعيد بن زيد وأبو عبيدة لم ينضموا بالسيف ، فالإسلام عقيدة والعقيدة من أعمال القلوب ، ولا سلطان للسيف على ما فى القلب ، ونسبة البلاد التى فتحت بالأعمال العسكرية بنسبة خمسة عشر فى المئة ، والباقون دخلوا الإسلام بطريق التجارة التى كان يتولاها تجار المسلمين فى شرق البلاد وغربها . ثم اسألوا التاريخ : متى استعمل الإسلام السيف ؟ ضد القوى المادية الضاغطة التى وقفت كابوساً ضاغطاً يصد عن سبيل الله . ثم اسألوا التاريخ : كم عدد الذين قتلوا أو استشهدوا فى غزوات الرسول كلها ؟ من الجانبين لا يتجاوزون ألفاً وثمانية عشر رجلاً ، منهم مائتان وثمانية وخمسون شهيداً والباقون من المشركين ، بينما سقط فى الحرب العالمية الأولى واحد وعشرون مليوناً ، وفى الحرب العالمية الثانية خمسون مليوناً ما بين قتيل وجريح ومعوق . ألا يأخذ هؤلاء الحياء ؟ ثم ألا يشعرون بالخزى وهم البرابرة الذين دمروا الشعوب واستنزفوا خيراتها تحت اسم الاستعمار ، وما هو استعمار وإنما استخراب . واسألوا التاريخ عن بلد المليون من الشهداء ؟ الجزائر التى وقفت وصمدت أمام الامبراطورية الفرنسية ، وزيادة فى الإيضاح فإننا نذكر فى قضية الحرب والسلام ما ذكره اللواء محمود شيت خطاب فى كتابه (الرسول القائد) تحت عنوان (القتال فى الإسلام) : معنى القتال فى الإسلام : هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد أركان السلام ، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة فى الإسلام .

متى شرع القتال فى الإسلام ؟

لم يؤذن للمسلمين فى القتال قبل الهجرة رغم ما ذاقوا من المر ، وكابدوا من فنون الأسى والضر ، فلم يكن همهم إلا أن ينشروا دعوة ، ويثبتوا عقيدة ، ويقولوا فى حرارة وصدق : ربنا الله . فلما اشتد عداء قريش وصمموا على القضاء على الدعوة ، وأجمعوا أمرهم على قتل النبى ﷺ ، هاجر هو وأصحابه إلى المدينة . فهل وقف البغى وخفت حدة العداوة ؟ كلا . . ظلت قريش تحارب المسلمين ، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم ، حتى أذن الله للمسلمين فى القتال ، فنزلت فيه أول آية : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾[١] . لقد خرج الرسول ﷺ غازياً فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة ، وبذلك بدأ القتال فعلاً فى الإسلام .

أهداف القتال فى الإسلام

١ - حماية حرية نشر الدعوة :

ليس من أهداف الحرب فى الإسلام نشر الدعوة ، بل حماية حرية نشرها ، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه ، والله تعالى يقول : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[٢] ، ولو كان القتل فى

(١) سورة الحج الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) البقرة آية : ٢٥٦ .

انتشار الإسلام بسيوف أهله ورماحهم ، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته حين ضعف أهله وغلبوا على أمرهم ، ولكن هدف الحرب فى الإسلام هو حماية العقيدة ، وتأمين حرية انتشارها بين الناس ، وصد الاعتداء الخارجى على بلاد المسلمين ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

إن الحرب فى الإسلام حرب دفاعية ، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد ، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال ، ويعتبرون الحرب كفاح شرف ، ولا يجوز أن يلجأ المحاربون فيها إلى عمل أو إجراء يتنافى مع الشرف ، فهم مقيدون باحترام العهد والترفع عن الخيانة ، ومواساة الجرحى والمرضى والأسرى والعناية بهم ، وعدم التعرض بسوء لغير المتقاتلين ، وعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحين . . الخ .

٢ - توطيد أركان السلام

تكون الأمة بغير جيش قوى عرضة للضياع ، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها ؛ فإذا كان لها جيش قوى احترم العدو إرادتها ، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها ، فيسود عند ذلك السلام ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾[1] ، ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾[2] .

إن الإسلام ، كما تدل عليه تسميته ، دين أمن وسلام ، يقوم على أساس الود والتسامح ، ولا يجيز الحرب إلا فى حالات محدودة بحيث تعتبر فيما عداها جريمة .

آداب القتال فى الإسلام

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين ، لرد العدوان وحماية الدعوة وحرية انتشار الدين ، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء ، وتوخى به أن يكون طريقاً إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف .

وليست الجزية عوضاً مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هى لحماية المغلوبين فى أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم ، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء . . يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التى تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية فى العقائد والأموال . وقد جاء فى عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف .

« إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة . . فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا حتى نمنعكم » .

---

(١) سورة الأنفال الأيتان : ٦٠ ، ٦١ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٨ .

لقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص ، وأبو عبيدة على أهل دمشق ، وبقية قواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك ، وكان مما قاله القواد المسلمون لأهل تلك المدن : « إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية ، ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم ، فهذه هى أموالكم نردها إليكم » .

لقد كان فرض الجزية فى الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع فى أموال المغلوبين ، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب ، وكانت على ثلاثة أقسام : أعلاها ، وهو (٤٨) درهما فى السنة على الأغنياء (حوالى دينارين ونصف دينار عراقى أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو ٢٤٠ قرشاً مصرياً » ، وأوسطها ، وهو (٢٤) درهماً فى السنة على المتوسطين من تجار وزراع . وأدناها : وهو (١٢) درهماً فى السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملا . وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله ، وهو بنسبة اثنين ونصف فى المائة ، القدر الشرعى لفريضة الزكاة .

إن إسقاط الجزية عن الفقير والصبى والمرأة والراهب والمنقطع للعبادة والأعمى والمقعد وذوى العاهات أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها ، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة فى تحصيلها . وقد جاء فى عهد خالد لصاحب قس الناطف : « إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله » . ليس ذلك فحسب ، بل الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة فى الجيش ، والذمى الذى يقبل التطوع فى الجيش الإسلامى تسقط عنه الجزية ، وهذا معناه أن الجزية تشابه البدل النقدى للخدمة العسكرية فى عصرنا الحاضر ؛ كما ضمن الإسلام إعالة البائسين والمحتاجين من الذميين ، جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة : « وأيما شخص ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله » .

إن فرض الجزية لايحمل معنى الامتهان والإذلال ، ومعنى (صاغرون) فى آية الجزية ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[1] ، هو الخضوع إذ من معانى الصغار فى اللغة الخضوع ، ومنه أطلق « الصغير » على الطفل ، لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه ، والمراد بالخضوع حينئذ ، الخضوع لسلطان الدولة ، بحيث يكون ، فى دفع الجزية ومن الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة ، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم .

ولا توجد آية فى القرآن الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه .

وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين : ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما

(١) سورة التوبة آية : ٢٩ .

ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾[١] .

واقرأ الآية الكريمة ، وهى من أواخر القرآن نزولا ، فهى تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم : ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[٢] .

ومن ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هى : بر وقسط وتعاون ومصاهرة .

أما عن تنظيم القتال فى الإسلام فإنه يدور حول ما يلى :

١ - تقوية المعنويات :

يعمل الإسلام على تقوية معنويات المقاتلين فى سبيل الله ، فيعدهم بمضاعفة أجر العاملين وثواب المجاهدين ، لأنهم يقاتلون لإنقاذ الضعفاء ، والبر بالإنسان ، ومقاومة الجبروت والطغيان ، ولدحض عوامل الشر والإفساد : ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً * الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾[٣] .

واستأصل الإسلام جميع النواحى التى ينبعث من قبلها الجبن والخور ، وحث المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله والحق . . فى سبيل الخير والسعادة ، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا العشيرة ولا الأموال ولا التجارة التى يخشى كسادها ولا المساكن ، لا شىء من ذلك كله يصلح أن يحول بين المؤمنين وبين ما تقتضيه محبة الله ورسوله من تضحية وجهاد : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٤] .

بمثل هذا الأسلوب القوى حارب الإسلام عوامل الضعف ونزعات الخوف ، وغرس فى نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية والاستهانة بزخرف الحياة فى سبيل الحق ونصرته ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾[٥] .

---

(١) سورة الممتحنة الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة المائدة آية : ٥ .
(٣) سورة النساء الآيات : ٧٤ - ٧٦ .
(٤) سورة التوبة آية : ٢٤ .
(٥) سورة الحجرات آية : ١٥ .

لقد توخى الإسلام تقوية الروح المعنوية ، وقد كانت المعنويات العالية ، ولا تزال ، من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية .

٢ - إعداد القوة المادية :

حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين : القوة والرباط .

فأما القوة فتتناول العدد والعدة ، وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال وإعداد آلات الحرب ووسائل القتال ومواد التموين وكافة القضايا الإدارية الأخرى .

وأما الرباط فيتسع لكل ما عرف أيضاً من تحصين الحدود والثغور والأماكن الواهنة تجاه العدو ، وتهيئة القوة الكامنة منها لحمايتها .

يهدف الإسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين السلم والاستقرار ، وذلك لإرهاب العدو ، حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحى الضعف والتخاذل : ﴿ ودَّ الذين كفـروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾[١] .

كما يحث الإسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة ، ويذكر بـالحديـد ، بصورة خـاصة ، للاستفادة منه للأغراض العسكرية : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[٢] .

إن الجهاد فى الإسلام إنما يتوخى الاستعداد الدائم للمنافحة عن الحق وحمايته .

٣ - التنظيم العملى للقتال :

(أ) الإعفاء من الجندية :

أسباب الإعفاء من الجندية فى الإسلام محصورة فى الضعف ، ويشمـل الضعف : المرض والعجـز والشيخوخة وعدم القدرة على الإنفاق : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجـدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾[٣] .

لم يجعل الإسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية ولا الانتساب إلى الجامعات ، ولا حفظ القرآن الكريم ، ولا دفع البدل النقدى ، ولا البنوة لحاكم كبير ، مما عهدناه فى عصور الانحلال ، بل كان العمل فى عصر النبى ﷺ والعصور التالية له على عكس ذلك ، وما كان التفكير فى جمع القـرآن الكريم إلا خوفاً من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة فى حرب اليمامة ، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً فى أن يستحر القتل فيهم .

---

(١) سورة النساء آية : ١٠٢ .

(٢) سورة الحديد آية : ٢٥ .

(٣) سورة التوبة آية : ٩١ .

(ب) إعلان الحرب :

حذر القرآن الكريم من انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرة غدراً : ﴿ وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾[1] .

تطلب الآية الكريمة طرح العهد عند توجس الشر منهم ، وتطلب أن يكون هذا النبذ صريحاً .

إن المسلمين لا يخونون أحداً ، ولا يغدرون بأحد ، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم ، ثم يشرعون بعد هذا الإعلان فى القتال .

(جـ) الدعوة للجهاد :

حذر الإسلام من التباطؤ فى تلبية داعى الجهاد والتثاقل عنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير ﴾[2] .

(د) عقاب المتخلفين :

عاقب الإسلام المتخلف عن الجهاد عقاباً نفسياً ، إذ يهجر المتخلف أهله ، حتى زوجته ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه ، وينظر إليه المجتمع نظرة احتقار وازدراء : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾[3] .

فقد تاب الله عليهم بعد كل هذا العقاب ليتوبوا ولا يعودوا إلى التخلف مرة أخرى .

إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط ، ولا يشمل أهله وعشيرته ولا سكان قريته ، كما حدث فى القرن العشرين عند بعض الدول الكبرى ، إذ نزل العقاب الصارم بأهل المتخلف وعشيرته وحتى بأهل قريته ، فى بعض الأحيان ، بحجة أن هؤلاء يجب أن يسلموا المتخلف أو ينالهم العقاب .

(هـ) تطهير الجيش :

يأمر الإسلام بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، ومن الذين يختلفون عن أفراده بالعقيدة ، حتى يكون الجيش كله مؤمناً بعقيدة واحدة ، يعمل لتحقيقها ، ويبذل كل ما يملكه فى سبيلها ، وبذلك يستطيع الفوز فى الحرب : ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾[4] .

---

(١) سورة الأنفال آية : ٥٨ .
(٢) سورة التوبة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) سورة التوبة آية ١١٨
(٤) سورة الأحزاب آية : ٢٠ .

(و) أساليب القتال :

ينظم الإسلام مواضعه الدفاعية ، ويوزع وحداته على تلك المواضع ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾[1] ، ويبتكر القتال بأسلوب الصف ، الذى لم تكن العرب تعرفه حينذاك ، بل كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص ﴾[2] .

إن أسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال فى العصر الحاضر ، فهو يؤمن العمق والاحتياط ، ليستطيع القائد معالجة المواقف التى ليست فى الحسبان .

(ز) الضبط :

يحث الإسلام على السمع والطاعة للقيادة العامة ، والثبات فى المواقف ، وتجنب أسباب الفشل ، والاعتصام بالله ، وباليقين : ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[3] .

كما حذر الإسلام من الفرار ، وبين سوء عاقبته : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[4] .

(ح) الكتمان :

حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين ، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة ؛ كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾[5] .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[6] .

(ط) الهدنة والصلح :

أمر الإسلام بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب ، إذا جنح إليها الأعداء وظهرت منهم علامات الصدق والوفاء : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾[7] .

(١) سورة آل عمران آية : ١٢١ .
(٢) سورة الصف آية : ٤ .
(٣) سورة الأنفال الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .
(٤) سورة الأنفال الآيتان : ١٥ ، ١٦ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٦٠ .
(٦) سورة النساء آية : ٨٣ .
(٧) سورة الأنفال الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .

(ى) الأسرى :

خيّر الإسلام القائد بين أن يمن عليهم ويطلقهم من غير فدية أو مقابل ، أو يأخذ منهم الفدية من مال ورجال ، وذلك على حسب ما يرى من المصلحة : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء ﴾[1] .

لقد حرم الإسلام قتل الأسير ، ومن أسلم امتنع قتله ، ومن أسلم قبل أسره ، ولو لخوف ، فهو كالمسلم الأصلى ، يحرم دمه أيضاً .

(ك) حث الإسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود ، وأوجب الوفاء بها ، وحرم الخيانة فيها ، والعمل على نقضها ، وأرشد إلى أن القصد منها إحلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب ، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق ، والوقيعة بالضعفاء : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾[2] .

الحرمات قصاص

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

المفردات : الحرمات : واحدها حرمة ، وهى ما يجب احترامه والمحافظة عليه . القصاص : المقاصة والمقابلة بالمثل . اتقاء الشىء : طرحه حيث تراه ، ثم استعمل فى كل ما يطرح ، ويلقى مطلقا . سبيل الله : هى طريق الخير والبر المؤدى إلى إعزاز دينه ، كجهاد الأعداء ، وصلة الأرحام . والتهلكة : الهلاك ، المراد به هنا الإمساك عن النفقة فى الاستعداد للقتال وترك الجهاد .

لما قال الله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، بين تعالى بعد ذلك أن هناك أشهراً حرماً يحرم فيها القتال ، فقال : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ ، أى قابلوا حرمة هذه الأشهر بحرمة من جهتكم ، إلا إذا اعتدى عليكم فيها ، فإن الحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فى هذه الأشهر فعليكم أن تردوا العدوان بمثله ، حتى تكون كلمة الله هى

(١) سورة محمد آية : ٤ .

(٢) سورة النحل الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .

العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والمثلية هنا بمثل ما اعتدى عليكم ، تفيد منتهى العدالة فى رد الاعتداء ، وأن هذا الدين يخاطب العقل الرشيدبالمنطق السديد ، لا يعرف الإكراه ؛ قال تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤ منين ﴾[1] ، وقال له : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار * فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [2] وقال له : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيراً ﴾[3] وقال له : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾[4] .

قال جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسى : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب ، وما يتجنى به أعداء الإسلام من دعواهم أن الإسلام قام بالسيف فقول يكذبه التاريخ ولا يؤ يده ، من ينظر إلى الأمور بعين الإنصاف ويدع الهوى وراءه ظهريا . انتهى كلامه .

وقد جاء الإسلام للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، كان كالنسيم الهادىء يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالحرارة الهادئة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، ثم طمأن القلوب الواثقة وثبت الجماعة المؤمنة عندما أمرهم بالتقوى فقال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قيل للحسن البصرى رضى الله عنه ، تقى عصره : ياتقى الدين أى الأيام عندك عيد ؟ قال : كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

أى عدالة تلك ؟ بل أى خلق هذا حتى مع الأعداء ؟قابلوا احترامهم للشهر الحرام باحترامكم له ، فإن اعتدوا عليكم فليكن ردكم للعدوان قصاصاً ، والقصاص ينبىء بالمساواة دون ما تجاوز للحد ، وليكن ردكم على عدوانهم مماثلاً فى السلاح والأداء ، وعادلاً فى نفس الوقت : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[5] والتقوى هى السلاح الأقوى ، واعلموا أن الله مع المتقين ؛ وهل بعد معية الله من قوة تذكر ؟ كفانى فخراً بأن تكون لى رباً ، وكفانى عزاً أن اكون لك عبداً . فمن أراد مؤ نساً فالله يكفيه ، ومن أراد صحة فالله يعطيه ، ومن أراد غنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظا فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شىء من هذا ، فإن النار تكفيه .

(١) سورة يونس : آية ٩٩
(٢) سورة ق : آية ٤٥
(٣) سورة الفرقان : آيه ٥٢
(٤) سورة الغاشية : الآيتان ٢٥ ، ٢٦
(٥) سورة المائدة : آية ٨

إن العز كل العز فى طاعة الله والذل كل الذل فى معصية الله ، ومعية الله هنا بمعنى الحماية والرعاية والصيانة ؛ ألم يقل السيد المعصوم لصاحبه فى الغار : لا تحزن إن الله معنا ؟ ألم يقل موسى لبنى إسرائيل عندما قالوا له إنا لمدركون ﴿ قال : كلا إن معى ربى سيهدين ﴾[١] ألم يقل الله تعالى للملائكة ، وقد أخذوا الأهبة للهبوط فى الميدان يوم بدر : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾[٢]؟ ألم يتفضل مولانا ، جل ذكره ، على المتقين والمحسنين بقوله : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٣] ؟

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه عكرمة عن ابن عباس : لما سار رسول الله ﷺ معتمراً فى سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة ، وهو شهر حرام ، حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم ، فنزلت فى ذلك هذه الآية : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴾ . وعن جابر بن عبد الله قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو فى الشهر الحرام إلا أن يُغزىٰ فيغزو ، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . ولهذا لما بلغ النبى ﷺ ، وهو مخيم بالحديبية ، أن عثمان قتل ، وكان قد بعثه فى رسالة إلى المشركين ، بايع أصحابه ، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل ، كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة ، وكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين ، وتحصن فاروهم بالطائف ، عدل إليها فحاصرها ، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً ، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس ، فلما كثر القتل فى أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعا إلى مكة ، واعتمر من الجعرانة ، حيث قسم غنائم حنين ، وكانت عمرته هذه فى ذى القعدة أيضاً عام ثمان ، صلوات الله وسلامه عليه .

وبعدما أمرهم تعالى بالجهاد بالنفس فى قوله : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾[٤] ، أمرهم سبحانه أن يجاهدوا بالمال فقال : ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ﴾ ، كثيراً ما يقترن الجهاد بالنفس بالجهاد بالمال ، قال تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجـاهدوا بـأموالكم وأنفسكم فى سبيـل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[٥] ، وقال عز من قائل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[٦] ، وقال تبارك اسمه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[٧] . وسبيل الله يشمل طرق الخير ، وعلى رأسها الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ثم نهاهم سبحانه عن الإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة ، وإنما يكون الإلقاء إلى التهلكة بالإمساك عن النفقة وبالبخل ، كما جاء ذلك عن كثير من أهل العلم .

قال حذيفة : نزلت هذه الآية فى النفقة . وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير

(١) سورة الشعراء : آية ٦٢
(٢) سورة الأنفال : آية ١٢
(٣) سورة النحل : آية ١٢٨
(٤) سورة البقرة آية : ١٩٠ .
(٥) سورة التوبة آية : ٤١ ،
(٦) سورة التوبة آية : ١١١ .
(٧) سورة الصف الآيتان : ١٠ ، ١١ .

وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسرى ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وعن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصارى ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً ، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها ، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما ، فنزل فينا : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ . فكانت التهلكة فى الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد . رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

وقال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدى فقتلونى ، أكنت ألقيت بيدى إلى التهلكة ؟ قال : لا . قال الله لرسوله ﴿ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾[(١)] ، وإنما هذه فى النفقة . رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم فى مستدركه .

وقد ورد أن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى إلى التهلكة ولا يتوب .

فتحصل لنا من هذا أن الإلقاء بالنفس إلى التهلكة إما أن يكون بالبخل كما قال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[(٢)] .

وقد تكون التهلكة بفعل الذنوب وترك التوبة ، قال تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾[(٣)] . وبعد الأمر بالإنفاق جاء الأمر بالإحسان ، والإحسان درجة عليا تفوق الإنفاق ، فهى درجة الإيثار ، قال تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[(٤)] ، وقال جل شأنه : ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ﴾[(٥)] ، وقال عز من قائل : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾[(٦)] .

فالإحسان هو الفضل ، والفضل بعد العدل ، وقد أمر الله به فى قوله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾[(٧)] . وقد كتب الله الإحسان فى كل شىء ، حتى فى القول عندما قال : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾[(٨)] ، والإحسان بالوالدين ، فقال : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾[(٩)] . وكما أن الله مع

(١) سورة النساء آية : ٨٤ .
(٢) سورة محمد آية : ٣٨ .
(٣) سورة الأنعام آية : ٦ .
(٤) سورة الحشر آية : ٩ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٧٧ .
(٦) سورة الإنسان الآيتان : ٩ ، ١٠ .
(٧) سورة النحل آية : ٩٠ .
(٨) سورة البقرة آية ٨٣ .
(٩) سورة البقرة آية : ٨٣ .

المتقين ، فهو يحب المحسنين ، فالتقوى والإحسان يؤديان إلى معية الله ومحبته ، ومحبة الله كامنة فى رضاه ، وإذا رضى الله ، فماذا بعد الرضا ؟ .

رضاك خير من الدنيا وما فيها يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى خير إلىّ من الدنيا وما فيها

الحج والعمرة

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾

المفردات : الحصر والإحصار : الحبس والتضييق ، يقال حصره عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه ، والهدى : يطلق على الواحد والجمع ، وهو ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم ليذبح ويفرق على الفقراء ، والمحل (بكسر الحاء) : مكان الحلول والنزول . حاضرو المسجد الحرام : هم أهل مكة وما دونها إلى المواقيت .

بعد ما ذكر الله تعالى الأحكام المتعلقة بالصيام من أول قوله جل شأنه : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾(١) وختمها بقوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾(٢) ، ثنى بعد ذلك بذكر الجهاد وما يتعلق به من حرمة للشهر الحرام ، ووجوب الإنفاق ، ذكر بعد ذلك الأمر بالإحسان ، فقال : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾(٣) ، عطف بعد ذلك الأمر بإتمام الحج والعمرة على الأمر بالإحسان ، فالإحسان واجب فى كل شىء ، وهو الإخلاص فى العمل لله تعالى ، وأن يراد به وجهه وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ ، وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى سنة ست ، أى عام الحديبية ، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت ، وأنزل الله فى ذلك سورة الفتح

(١) سورة البقرة آية : ١٨٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٨٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٩٥ .

بكمالها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدى ، وكان سبعين بـدنة . ، وأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم ؛ فعند ذلك أمرهم ، عليه السلام ، بأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا ، فلم يفعلوا ، انتظاراً للنسخ ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس ، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه ، فلذلك قال ﷺ : (رحم الله المحلقين) ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؛ فقال فى الثالثة و (المقصرين)[١] . وقد كانوا اشتركوا فى هديهم ذلك كل سبعة فى بدنة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم ، وقيل بل كانوا على طرف الحرم . والله أعلم .

وفى هذه الآية بيان لأحكام الحج والعمرة وذكر لأحكام الإحصار ، فذكر حكم المحصر وعدم جواز الحلق قبل بلوغ الهدى محله إلا لمن كان مريضاً أو به جروح ونحوها ، فإنه يحلق ، وعليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاة أو يتصدق بفرق على ستة مساكين (الفرق بالتحريك مكيال بالمدينة يزن ستة عشر رطلا) ، فإذا زال الخوف من العدو ، فمن أتم العمرة وتحلل وبقى متمتعاً إلى زمن الحج ليحج من مكة فعليه دم ، لأنه أحرم بالحج من غير الميقات ، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام فى أيام الإحرام بالحج ، وسبعة إذا رجع إلى بلده ، إلا إذا كان مسكنه وراء الميقات .

﴿ وأتموا الحج والعمرة ﴾ ، أى وأتوا بالحج والعمرة تامين كاملين ، ظاهراً بأداء المناسك على وجهها ، وباطنا بالإخلاص لله تعالى دون قصد الكسب والتجارة أو الرياء والسمعة . والتجارة لا تنافى الإخلاص إذا لم تقصد لذاتها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾[٢] . الرياء والسمعة إذا كانا هما الباعث على الحج ، فالحج ذنب للمرائى لا طاعة ، وهكذا حكم من يحج ليقال له (الحاج فلان) ، أو ليحتفل بقدومه ، أو يقترض بالربا ، أو يرتكب أكبر ضروب المنكر ليحج ، أو لا تخطر على باله مناسك الحج وأركانه وإنما يقصد زيارة النبى ﷺ ولا يعرف من الحج إلا هذه الزيارة . وقد كان الحج معروفاً من عهد إبراهيم وإسماعيل وأقره الإسلام بعد أن أزال ما فيه من ضروب الشرك والمنكرات ، وزاد فيه مناسك وعبادات .

وهو فريضة لقوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾[٣] ، وللأحاديث الواردة فى ذلك .

وأول حجة حجها المسلمون كانت سنة تسع بإمرة أبى بكر رضى الله عنه ، وكانت تمهيداً لحجة النبى ﷺ سنة عشر ، وفيها أذن أبو بكر بالمشركين الذين حجوا : ألا يطوف بعد هذا العام مشرك ، ونزلت الآية : ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾[٤] .

﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ﴾ ، أى فإن منعتم وأنتم محرمون من إتمام النسك بسبب عدو أو مرض أو نحوهما ، وأردتم أن تتحللوا ، فعليكم أن تذبحوا ما تيسر لكم من بدنة أو بقرة أو شاة ثم تحللوا .

(١) تفسير القرآن الكريم للامام ابن كثير جـ ١ ص ٣٣٥ ط الشعب .
(٢) سورة البقرة آية : ١٩٨ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٩٧ .
(٤) سورة التوبة آية : ٢٨ .

وذبحها يكون فى موضع الإحصار ولو فى الحل ، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهى من الحل .

﴿ ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ﴾ ، قد جعل الشارع أمارة الدخول فى الحج أو العمرة ، الإحرام بنيَّةِ النسك عند الابتداء به بالتلبية ، ولبس غيرِ المخيط من إزار ورداء ، وكشف الرأس للرجل ، ولبس النعلين ، وأمارة الخروج منها (ويعبر عنه بالإحلال والتحلل) بحلق الرأس أو التقصير . فالنهى عن الحلق نهى عن الإحلال قبل بلوغ الهدى إلى المكان الذى يحل ذبحه فيه ، وذلك حيث يحصر الحاج وإلا فالكعبة ، لقوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾(١) .

﴿ فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ ، أى فمن كان منكم مريضاً يحتاج إلى الحلق ويؤذيه تركه ، أو به أذى من رأسه من جراح أو داء ، فعليه فدية إن حلق ، وهى إما صيام أو صدقة أو نسك .

وقد بين مقدارها فيما أخرجه البخارى من حديث كعب بن عجرة قال : (وقف علىَّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسى يتهافت قملاً ، فقال : يؤذيك هوامك ؟ قلت : نعم ، قال : فاحلق رأسك ، قال : فنزلت هذه الآية وذكرها فقال النبى ﷺ : صم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك بما تيسر)(٢) .

﴿ فـإذا أمنتم ﴾ من خوفكم من عـدوكم ، أو بـرأتم من مـرضكم الـذى منعكم من حجكم أو عمرتكم .

﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴾ ، أى فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة إلى وقت الانتفاع بأعمال الحج ، فعليه ما استيسر من الهدى ، أى فعليه دم نسك شكراً لله أن أتاح له الجمع بين النسكين ، ويأكل منه كالأضحية ، ويذبح يوم النحر .

﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم ﴾ ، أى فمن لم يجد الهدى لعدم وجوده أو عدم المال الذى يشترى به ، فعليه صيام ثلاثة أيام فى أيام الإحرام بالحج ، وتمتد إلى يوم النحر ، وسبعة أيام إذا رجع من الحج إلى بلده ، أو شرع فى الرجوع ، فيجزىء الصوم فى الطريق .

﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ ، أى هذه الأيام الثلاثة والسبعة الأيام ، عشرة كاملة ، وهذا نتيجة لما تقدم مبين لجملة العدد الواجب بعد أن بينه تفصيلا ، وفائدته إزالة وهم من قد يظن أن الواو للتخيير بمعنى أو كقوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾(٣) . وفائدة وصفها بالكمال الإشارة إلى أن رعاية العدد من المهام التى لا يجوز إغفالها ، بل يجب المحافظة عليها دون نقص فى عددها ، ولا تهاون فى أدائها ، وإلى أن هذا البدل كامل فى قيامه مقام المبدل منه ، وهما فى الفضيلة سواء .

(١) سورة المائدة آية : ٩٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٣٧ ط الشعب .
(٣) سورة النساء آية : ٣ .

ثم بين سبحانه أن التمتع بالعمرة مضمومة إلى وقت الإحرام بالحج ، وما يتبعه من الأحكام ؛ خاص بالآفاقيين دون أهل الحرم قال : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ﴾ ، أى إن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده ، ثم السفر إلى العمرة وحدها ، أما أهل الحرم فليسوا فى حاجة إلى ذلك ، فلا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام .

﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ ، أى اخشوا الله وحافظوا على امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه ، واحذروا أن تعتدوا فى ذلك ، واعلموا أنه تعالى شديد العقاب لمن انتهك حرماته وركب معاصيه .

الحج المبرور

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

المفردات : ﴿ فرض فيهن الحج ﴾ أى أوجبه على نفسه ، والرفث لغة : قول الفحش ، وشرعاً قربان النساء ، والفسوق لغة : التنابز بالألقاب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق﴾ ، وشرعاً : الخروج عما حدده الشارع للمحرم إلى ما كان مباحاً فى الحل كالصيد والطيب والزينة باللباس المخيط ، والجدال : المراء والخصام ، ويكون عادة بين الرفقة والخدم فى السفر ، لأنه مشقة تضيق بها الصدور ، والزاد : هو الأعمال الصالحة وما يدخر من الخير والبر ، والتقوى : هى ما يتقى به سخط الله وغضبه من أعمال الخير والتنزه عن المنكرات والمعاصى .

وردت عن رسول الله ﷺ أحاديث شريفة بين فيها فضل الحج ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال : (إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور)[١] . رواه البخارى ومسلم .

وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[٢] رواه البخارى ومسلم .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[٣] رواه البخارى ومسلم .

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ١٠٩ ط الشعب .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ١١٠ ط الشعب .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

وعن ابن شماسة رضى الله عنه قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت فبكى طويلا وقال : فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله : ابسط يمينك لأبايعك ، فبسط يده فقبضت يدى فقال : مالك يا عمرو؟ قال : أردت أن أشترط . قال : تشترط ماذا ؟ قال : أن يغفر لى . قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟[1] رواه ابن خزيمة ومسلم[2] .

وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى جبان ، وإنى ضعيف . فقال : (هَلُمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج)[3] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد فقال : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور)[4] . رواه البخارى وغيره .

لما أمر الله تبارك وتعالى عباده بإتمام الحج والعمرة وبين حكم الإحصار والتمتع ، بيّن سبحانه بعد ذلك أن الحج عبادة موقوتة بأشهر معلومات ، وهى شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة ، وإنما أطلق الأشهر على شهرين وعشرة أيام من باب التغليب ، أى تنزيل العشرة منزلة الشهر ، ومن ثم فإن بعض الفقهاء يرى أن الأشهر المعلومات ثلاثة : شوال وذو القعدة وذو الحجة . والحج لا يجوز فى العام إلا مرة واحدة ، لأن الحج عرفة ، وعرفات فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، أما العمرة فإنها جائزة طوال العام ، وأفضل ما تكون فى رمضان ، قال ﷺ : (عمرة فى رمضان تعدل حجة معى)[5] ، والعمرة طواف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة ، أما الحج فيزيد عليها الوقوف بعرفات ، ورمى الجمار ، والمبيت بمنى . قوله تعالى : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ ، أى فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام والنية فعليه أن يلتزم بهذه الآداب ، إذ الحج مدرسة أخلاقية عليا ، ومثل رفيعة من كريم السجايا ، فعلى من أوجب الحج على نفسه أن يجتنب الرفث ، وهو الجماع ودواعيه من القبلة واللمس والكلام بهذا الشأن مع النساء ، وعليه أن يجتنب الفسوق ، والمقصود به المعاصى ، ويشمل السباب كما فى قوله ﷺ : (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ، كما يشمل التنابز بالألقاب ، وهو أن تنادى أخاك باسم يكرهه ، وذلك أن تسميه بعاهة فيه كقولك له يا أعرج يا أعمش ، قال تعالى : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاثم الفسوق بعد الإيمان ﴾[6] ، وهذا جانب عظيم من جوانب الأخلاق الإسلامية .

---

(١) يعنى أن الحج يسبب غفران الذنوب ويزيل الخطايا إلا حقوق الآدمى ، فإنها فى الذمة حتى يجمع الله أصحاب الحقوق ليأخذ كل حقه ، ومن الجائز أن الله تعالى يتكرم فيرضى صاحب الحق بما أعد له من النعيم وحسن الجزاء فيسامح المدين تفضلاً وتكرماً ، ولابد من أداء حقوق الآدميين وحقوق الله مبنية على تسامح الكريم الغفور الرحيم .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

(٣) المصدر السابق ص ١١١ .

(٤) المصدر السابق ص١١١ .

(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ١٢٣ ط الشعب .

(٦) سورة الحجرات آية : ١١ .

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق
فإذا رزقت خليقة محمودة فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

قوله تعالى : ﴿ ولا جدال فى الحج ﴾ ، أى لا جدال فى مناسكه بعدما بينها الله ، وذلك من الوقوف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، أو الوقوف بعرفة ، أو المبيت بمنى ، وقد يكون المراد بالجدال المراء والمخاصمة واللجاج ، وكلها تغضب الناس ، بل يجب على الحاج أن يكون سمحا إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى .

وإن كانت هذه الأخلاق واجبة على كل حال ، إلا أنها فى الحج آكد ؛ عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : (من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه) قال تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ ، والخير هنا يشمل وجوه البر من إغاثة الملهوف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وصلة الأرحام والقيام بالليل والناس نيام ، وتعلق علم الله تعالى بهذه الخيرات ، مع أنه سبحانه قد وسع كل شىء رحمة وعلما ، إلا أن تخصيص العلم فيه دلالة على عظم هذا الخير عند الله كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾[1] ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ﴾[2] ، ثم أمر الله تعالى بعد ذلك بالتزود ، أى أخذ الزاد من طعام ونفقة حتى يكف وجهه عن سؤال الناس ، وأن يكون ذلك من حلال ، لأن الحاج إذا قال : لبيك اللهم لبيك ، قال له الملك : لبيك وسعديك ، زادك من حلال ونفقتك من حلال وحجك مأجور غير مأزور . هذا هو الزاد للحج الذى قال الله فيه ﴿ وتزودوا ﴾ ، أما الزاد للآخرة فقد قال فيه تعالى : ﴿ فإن خير الزاد التقوى ﴾ ، والتقوى كما فسرها العلى الأعلى فى مطلع سورة البقرة بقوله : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾[3] ، فالتقى هو الذى آمن بالغيب وأقام الصلاة وأنفق مما آتاه الله وآمن بالكتب المنزلة على الأنبياء وأيقن بالبعث بعد الموت .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى ذوى العقول عامة فقال : ﴿ واتقون يا أولى الألباب ﴾ ، فما أجمل العقل إذا استعمله صاحبه فى طاعة ربه ، وما أتعسه إذا استعمل فى الشر والفساد ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٧ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٣٦ .
(٣) سورة البقرة الآيات : ٢ - ٤ .
(٤) سورة الاعراف آية : ١٧٩ .

أحكام تتعلق بالحج

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

المفردات : الجناح : الحرج ، والإثم من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿ **أن تبتغوا** ﴾ : أى تقصدوا وتطلبوا . و ﴿ **فضلا** ﴾ : أى عطاء ورزقا منه بالربح فى التجارة أيام الحج . والإفاضة من المكان : الدفع منه ، أى أفضتم أنفسكم ودفعتموها ، ويقال : أفاض فى الكلام إذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق . و ﴿ **عرفات** ﴾ : موقف الحاج فى أداء النسك ، وسمى بهذا الاسم لأن الناس يتعارفون فيه ، وعرفة اسم لليوم الذى يقف فيه الحاج بعرفات وهو التاسع من ذى الحجة . والذكر : الدعاء والتلبية والتكبير والتحميد ، والمشعر الحرام : هو جبل المزدلفة ، يقف عليه الإمام ، وسمى بهذا الاسم لأنه معْلَم للعبادة ، ووصف بالحرام لحرمته ، فلا يفعل فيه مانهى عنه .

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه البخارى ، رضى الله عنه ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا فى الموسم ، فنزلت ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾فى موسم الحج[1] . وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ، يقولون أيام ذكر فأنزل الله :﴿ **ليس عليكم جناح** ﴾[2] . وقد سئل ابن عمر عن الرجل يحج ومعه تجارة ، فقرأ ابن عمر : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ . وقد سئل ابن عمر فقيل له : إنا نكرى ، أى نستأجر ، فهل لنا من حج ؟ فقال : ألستم تطوفون بالبيت وتأتون المعروف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم ؟ قلنا : بلى . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية :﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ ، فدعاه النبى ﷺ فقال :(أنتم حجاج)[3] . قوله تعالى : ﴿ **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام** ﴾ . اعلم بأن الحج عرفة ، أى هو الركن الأعظم ، ومن فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج . وعرفة هو موضع الوقوف ، كما أن عرفة محدد باليوم التاسع من ذى الحجة ، وقد ورد فى فضله ما يدل على عظم الأجر للواقفين فيه ، فخير يوم طلعت فيه الشمس يوم عرفة ، وهو أكثر الأيام عتقا من النار ، وإن الله تعالى ليدنو ثم يباهى الملائكة بأهل عرفة ويقول لهم : ما أراد هؤلاء ؟ ويقول : هؤلاء عبادى أتونى شعثا غبرا ضاحين يرجون رحمتى ويخافون عذابى ، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم . أفيضوا عبادى مغفورا لكم ولمن شفعتم فيهم .

(١) تفسير ابن كثير ص ٢٤٩ ط الشعب .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .

قال ﷺ : (الحج عرفات) قالها ثلاثا ، فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ؛ وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه . ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر ، لأن النبى ﷺ وقف فى حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : (لتأخذوا عنى مناسككم)[1] . وإنما سميت عرفة لأن جبريل كان يُرى إبراهيم المناسك فيقول : عرفت عرفت ، فسميت عرفات .

عن المسور بن مخرمة قال : خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد ، وكان إذا خطب خطبة قال أما بعد ، فإن هذا اليوم الحج الأكبر ، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها ، وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس ، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها ، وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفا هدينا هدى أهل الشرك)[2] ، والمشاعر هى المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام ، لأنها داخل الحرم .

ما حكم الوقوف بالمشعر الحرام ؟

قال الفقهاء : الوقوف بالمشعر الحرام ركن عند البعض ، لا يصح الحج إلا به ، ومن هؤلاء طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعى . وقال البعض : هو واجب يلزم بتركه دم ، كما هو أحد قولى الشافعى . وقال الآخرون : هو مستحب لا يلزم بتركه شىء وهكذا تبين أن الحجاج بعد أن يفيضوا من عرفات يتوجهون إلى المزدلفة ليذكروا الله تعالى عند المشعر الحرام ذكرا مطابقا لهدى الله تبارك وتعالى لهم . ولقد كانوا من قبل أن يهديهم الله يذكرون الله تعالى ذكرا يشوبه الشرك كقولهم : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكا هو لك ملكته وما ملك . فعلمهم الله على لسان رسوله أن الذكر يجب أن يكون خالصا صافيا من كل شائبة ، فكانت التلبية لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . . لا شريك لك . ومعنى لبيك أى أجيبك مسرعا مرة بعد مرة . قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ ، ﴿ إن ﴾ هنا مخففة من الثقيلة ، والتقدير : وإن كنتم من قبل تعليمه لكم وبيان الهدى من الضالين الغافلين .

وبعد مابين الله تعالى الوقوف بعرفات ، وهو ركن الحج الأعظم ، والوقوف بالمزدلفة بعد ذلك . وقد رأى بعض الفقهاء ، كما ذكرنا سابقا ، أنه ركن لا يصح الحج إلا به ، ورأى البعض أنه واجب يلزم بتركه دم ، ورأى آخرون أنه مستحب لا يلزم بتركه شىء . وأمرهم تعالى بذكره بعد ذلك ذكرا خاليا من شوائب الشرك . أمرهم سبحانه أن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، والناس يفيضون من عرفات إلى المزدلفة . أما قريش فقد كانت تقف بالمزدلفة وتفيض منها إلى منى ولا تقف مع الناس بعرفات ، وكانوا يجدون فى ذلك ميزة لهم وخاصية عن بقية الناس ، فأمرهم تعالى أن يقفوا بعرفات كما يقف بقية الناس ، وأن يفيضوا من عرفات

(١) المصدر السابق ص ٣٥٠ ــ ٣٥١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٢ .

إلى المزدلفة كما يفيض بقية الناس . وقريش هم الحمس ، ومفرد الحمس أحمس ، وهو الشديد الصلب . ولما جاء الإسلام قضى على العصبية وأعلنها صريحة مدوية (كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) . ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾(١) . لما كان ذلك كذلك فلا ميزة لأحد على أحد فى المناسك : فعليكم يـاقريش أن تلتزموا هـذه التعليمات الإلهيـة . قـولـه تعـالى :﴿ واستغفـروا الله إن الله غفـور رحيم ﴾ . . روى الإمام البخارى رضى الله عنه بسنده عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : (سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها فى ليلة فمات فى ليلته دخل الجنة ، ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة) .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال يارسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال : (قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم)(٢) . وكثيرا مايأمر الله بالاستغفار بعد الفراغ من أداء العبادات ، ومن ذلك مارواه الإمام مسلم ، أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثا ،(٣) وفى الصحيحين أنه ندب الى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين . وهذه الآية الكريمة اشتملت على أمرين وخبر : أما الأمر الأول فقوله تعالى :﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ ،وقد روى الإمام البخارى فى معنى هذا الحكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها(٤) .

والأمر الثانى قوله : ﴿ واستغفروا الله ﴾ . ولقد تبين أن الاستغفار من لازمه جعل الله له من كل ضيق فرجاً ، ومن كل شدة مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب . وقد جاء رجل إلى الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه فشكا له قلة المطر ، فأمره الحسن بالاستغفار . وجاء ثان فشكا له قلة المال ، فأمره بالاستغفار وجاء ثالث فشكا له قلة البنين فأمره بالاستغفار ، وجاء رابع فشكا له قلة النبات فأمره بالاستغفار ، وجاء خامس فشكا له قلة الأنهار فأمره بالاستغفار ؛ فعجب الجالسون وقالوا : أوكلما جاءك شاك أمرته بالاستغفار ؟ فقال لهم : أوما قرأتم قوله تعالى : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مـدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾(٥) .

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾(٦) . وما أجمل قوله تعالى :﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٥٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٥٤ .
(٥) سورة نوح الآيات : ١٠ ــ ١٢ .
(٦) سورة النساء آية : ٦٤ .

غفورا رحيما ﴾[١] . وما أكرم قوله جل شأنه : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾[٢] .

ومن فضل الله تعالى على المؤمنين أن الملائكة تستغفر لهم ويطلبون من الله المغفرة إكراما وإنعاما . قال جل شأنه : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾[٣] . وما أجمل قوله تعالى : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾[٤] . وما أكرم قوله جل شأنه على لسان نبيه هود : ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾[٥] .

قال أبو بكر رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾[٦] ، فشاكلة العبد المعصية ، وشاكلة الرب المغفرة والرحمة . وقال عمر رضى الله عنه : وقرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾[٧] . وقال عثمان رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾[٨] . وقال على رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾[٩] .

وهكذا تبين لنا الأمر بالإفاضة مقترنا بالأمر بالاستغفار ، وجاء الخبر مقترنا بالأمر بالاستغفار فى قوله تعالى : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ ، أى اطلبوا المغفرة من الله لأن من شأنه أن يغفر ويرحم ، وما أكثر اقتران المغفرة بالرحمة ، لأن رحمة الله بعد المغفرة تتجلى فى ستره للعبد . بل هناك ما هو أبعد من ذلك كرما ، فإنه تعالى ينسى الحفظة الكاتبين ذنوب العبد الذى تاب وأناب واستغفر حتى لا يكون لأحد عليه كشف يترتب عليه الشماتة .

يامن له علم الغيوب ووصفه	ستر الذنوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى	كرما فليس عليه ثمَّ جناح
منك التفضل والتكرم والرضا	أنت الإله المنعم الفتاح

(١) سورة النساء آية ١١٠ .
(٢) سورة هود آية : ٣ .
(٣) سورة غافر آية : ٧ .
(٤) سورة الشورى آية : ٥ .
(٥) سورة هود آية : ٥٢
(٦) سورة الاسراء آية : ٨٤
(٧) سورة غافر آية : ٣
(٨) سورة الحجر آية : ٤٩
(٩) سورة الزمر آية : ٥٣

قضاء المناسك

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾

المفردات : الخلاق : الحظ والنصيب ، وحسنة الدنيا هى العافية أو المرأة الصالحة أو الأولاد البررة أو العلم والمعرفة ، وحسنة الآخرة هى الجنة أو رؤية الله تعالى يوم القيامة ، والأولى التعميم فى كل هذا .

إن المقصود بالمناسك هنا أعمال الحج ، والمراد بقضائها ، أداؤها كما فى قوله جل شأنه : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾[1] . ولكل منسك من تلك المناسك أجر عظيم لمن أداه مخلصا لله وجهه . وفى حديث للنبى صلى الله عليه وسلم بأن ذلك الأجر جليا يأخذ بالألباب ويشد القلوب إلى هناك وما أدراك ما هناك : هناك الصفاء كله والسمو الرفيع والشفافية الروحية . وهذا الحديث يعتبر من دلائل النبوة الناطقة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : روى ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنت جالسا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجد منى ، فأتاه رجل من الأنصار ورجل من ثقيف ، فسلما ثم قالا : يارسول الله جئنا نسألك ، فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألانى عنه فعلت ، وإن شئتما أن أمسك وتسألانى فعلت ؟ فقالا : أخبرنا يارسول الله ، فقال الثقفى للأنصارى : سل . فقال أخبرنى يارسول الله . فقال : جئتنى تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه . مع الإفاضة . فقال : والذى بعثك بالحق لَعَنْ هذا جئت أسألك . قال : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خُفًا ، ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل عليه السلام ، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة وأما وقوفك عشية عرفة ، فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهى بكم الملائكة يقول : عبادى جاءونى شعثا من كل فج عميق يرجون جنتى ، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو

(١) سورة النساء آية : ١٠٣ .

كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها ، أفيضوا عبادى مغفورا لكم ، ولمن شفعتم لـه ؛ وأما رميـك الجمار فمذخور لك عند ربك ، وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ، ويمحى عنك بها خطيئة ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك ، يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول : اعمل فيما تستقبل فقد غُفر لك مامضى . (رواه الطبرانى فى الكبير والبزار) .

جـاء فى سبب نزول هـذه الآية أن العـرب فى الجاهليـة كانـوا يجتمعون بعـد فراغهم من حجهم ومناسكهم ، يتفاخرون بمآثر آبائهم ، فيقول الرجل منهم : كان أبى يُطعم ويحمل الحمالات والديات ، ليس له ذكر غير فعال آبائه ، فأنزل الله هذه الآية . ويروى أنهم كانوا يقفون بمنى بـين المسجد والجبـل يتفاخرون ويتناشدون ، فأمرهم الله أن يذكروه بعد قضاء مناسك الحج ، كما كانوا يذكرون آبـاءهم فى الجاهلية أو أشد من ذكرهم إياهم .

وقد جاء الأمر بالذكر يفوح طيبا ومسكا فى هذا الجو الذى تعانق فيه القلب واللسان فى تسبيح الله تعالى وتحميده وتكبيره وتهليله . نرى ذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾[1] ، كما نراه بعد قضاء المناسك فى قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله ﴾ ، كما نراه فى أيام منى فى قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ . والذكر هو استحضار عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، ولابد أن يصحبه تفكر يوقظ القلب ويبعده عن الغفلة . فالذكر بلا تفكـر غفلة ، والفكر بلا ذكر جفاء . لذلك وصف الله عباده الصالحين بقوله : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[2] ، فإذا كان الذكر بلا فكر غفلة ، فإن الفكر بلا ذكر جفاء . وإذا كان ذلك كذلك فإن الذكر مع الفكر وفاء . وأنت ترى أن اللسان وحده إذا كان بينه وبين القلب سور ، فإن ذكر اللسان لا يترك للذاكر أثرا من آثار النورانية المشرقة . ذهب بلال ليؤذن الفجر فى مسجد الهادى البشير صلى الله عليه وسلم فوجد النبى يبكى فسأله : مايبكيك يارسول الله ؟ قال : يابلال لقد أنزل علىّ الليلة آية ، ويلٌ لمن لاكها بلسانه ولم يتدبرها قلبه ثم قرأ : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ . فليعلم الذاكرون أن الذكر على سبعة أنحاء : فذكر العينين البكاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البـدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

ذكروا أن رجلا من الصالحين اسمه ثابت كان يمر ذات يوم فى إحدى طرقات الكوفة فوجد شجرة قد سقطت منها تفاحة خارج سور الحديقة فأخذها وأكل نصفها ثم تذكر أنه ما كان له أن يفعل ذلك ، فذهب إلى حارس الحديقة وقال له : سامحنى فيما أكلت ودفع إليه نصفها الآخر ، فقال لـه الحارس : لا أملك السماح لأننى لا أملكها . قال له : فأين صاحبها ؟ فدله عليه فذهب إليه ثابت وأخبره الخبر ، فقال له

(١) سورة البقرة آية : ١٩٨ .

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١ .

صاحب البستان : لا أسامحك حتى تقبل شرطى عليك . قال وماذاك ؟ قال : أن تقبل الزواج بابنتى وسأعرض عليك أوصافها : إنها عمياء بكماء صماء مقعدة . وهنا ذهب الرجل فى موجات عاصفة من الفكر ، فقد هبت عليه رياح هوج تحمل قيظ الهواجر وكأن فى نفسه سؤالا قد اعتمل : أمن أجل نصف تفاحة ألقى هذا الجزاء ؟ ولكن سرعان مانزلت السكينة قلبه واستنار فؤاده بالرضى : ولماذا لا أتزوجها لأنال رضا الله فيها ؟ ومن الذى يتزوجها إن لم أتزوجها أنا ؟. وقال لأبيها : لقد قبلت زواجها ياسيدى . وتم زواجها ولم يرها ، وذهب ليعد نفسه لاستقبالها ، ولكن أباها قد هيأ له المكان فى بيته ، ودخلت الفتاة لتكون فى استقبال زوجها ، وقال أبوها له : ادخل على زوجك بارك الله لكما فى ليلتكما ، ودخل ثابت عليها وألقى السلام ، وقد أخبر من قبل أنها صماء ، ولكن الملائكة سترد ، فمن ألقى السلام فى بيته على أهله كثر الخير فى بيته وطردت منه الشياطين ، ولكن ما أن ألقى السلام عليها حتى نهضت واقفة وصافحته وردّت عليه السلام ، قال الرجل : فنظرت إلى وجهها فكأنه قطعة قمر . وبعد أن استجمع أنفاسه سألها : لقد أخبرنى أبوك بأنك عمياء صماء بكماء مقعدة ! قالت له : نعم لقد صدق أبى فيما أخبر : إننى عمياء لا أدرى ما حرم الله ، صماء لا أسمع ما يغضب الله ، بكماء لا أتكلم إلا بما يرضى الله ، مقعدة لا أمشى إلى ما يسخط الله . ودخل بها فرزقه الله منها إماما جليلا ملأ طباق الأرض علما وفقها ، انفرد بثلاثة أرباع العلم ، وشارك العلماء الباقين فى الربع الباقى ، إنه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت . وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾[1] ، وصدق رسوله إذ يقول : (فاظفر بذات الدين تربت يداك)[2] ، وإذ يقول : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض)[3] . وقد صدق بعض الصالحين إذ يقول : « لا تزوج بنتك إلا لتقى ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لا يظلمها » . فهذا رجل من أجل نصف تفاحة ذكر الله فطلب السماح من صاحبها . فما أجمل استحضار عظمة الله فى القلب ، وما أعظم أن يشيع ذكر الله فى كيان الإنسان كله . قال ﷺ : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأذكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا بلى . قال : ذكر الله)[4] . والحجيج ، على وجه الخصوص ، مطالبون بالإكثار من ذكر الله ، من تهليل وتكبير وتلبية ، حتى إن الأصوات لتبح من كثرة الذكر . لقد كانوا إذا فرغوا من أداء المناسك يذكرون أمجاد الآباء ويفخرون بهم ، فلما أظلهم الإسلام بظله أمرهم أن يلهجوا بالذكر لله كما كانوا يلهجون بذكر الآباء ، بل أمرهم أن يكونوا أشد ذكرا ؛ ثم فرّع على ذلك مسألة من مسائل الذكر ، فقسم الناس قسمين :

قسم يطلب من الله الدنيا ولا نصيب له فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ﴾ ، وهؤلاء قد أصيبوا بالغفلة ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها . قال

---

(١) سورة الأعراف آية : ٥٨ .
(٢) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير للسيوطى جـ ١ ص ٥١٧ ط دار الفكر .
(٣) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير للسيوطى جـ ١ ص ٥٧ ط دار الفكر .
(٤) نفس المصدر

تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾[١] . والفريق الثانى جمع فى دعائه بين خيرى الدنيا والآخرة ، وقد قال الله تعالى فى وصف هذا الفريق : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ . وهكذا يعلمنا الله الأدب فى الدعاء فاسأل الله أن يؤتيك الحسنة فى الدنيا والآخرة ، ثم سلم إليه الأمر فى تحديد تلك الحسنة ، فإن يد الله تعمل فى الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها . وحسنة الدنيا تشمل الدار الواسعة ، والزوجة الطائعة التى إذا نظرت إليها سرَّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى عرضها ومالك . كذلك تشمل المركب السريع ، والجار الطيب . وقد قالوا : إن من رُزق لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعينه على أمر دينه ودنياه فقد جمع بين حسنتى الدنيا والآخرة . والصحة والمال وراحة البال والرضا بما قسم الله ، والعلم والمعرفة من حسنات الدنيا ؛ والجنة ورضوان الله والنجاة يوم الحشر من حسنات الآخرة . ولا تحسبنَّ أن حسنة الدنيا مقصورة على صرف مرتبك من الصراف ، فإن الصراف إذا صرف لك فإن الله تعالى سيصرف عنك . الصراف يصرف راتبا والله يصرف عنك الهم والحزن والسقام والشقاء ويرزقك الرضا . وقد كان من دعاء الصالحين : اللهم رضِّنا بقضائك وبارك لنا فى قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

لا تقترح على الله أن يرزقك المال أو الولد ، فقد يكثر المال وتكثر معه الهموم والأحزان ، وقد تأتى الأولاد وتأتى معها البأساء والضراء والشقاء . ولكن اسأله الحسنة وفوِّض له الأمر بعد سؤالها ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

كان بعض الصالحين ينام على الطوى وكانوا يقولون : نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف ــ لقد عاد النبى ﷺ مريضا فوجد المرض قد برَّح به حتى صار كالفرخ الضعيف ، فقال له الرسول (ص) : ألا تدعو الله ؟ قال : يا رسول الله أدعوه . قال : فماذا تقول فى دعائك ؟ قال أقول : اللهم إن كنت معذبى بشىء فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا . فقال له الهادى البشير : إنك لا تطيق ذلك ، هلاَّ قلت : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾[٢] . وما أجمل أن يسأل العبد ربه الوقاية من عذاب النار ، وذلك بالبعد عن الأسباب المؤدية لغضب الله من الشبهات والشهوات . فاللهم إنا نسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا وشفاء من كل داء ، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يُسمع .

وقد حكم الله لهذا الفريق الذى جمع فى دعائه بين حسنتى الدنيا والآخرة بقوله : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ أى نصيب من خير الدنيا ، لأنهم سلكوا فى تحصيل ذلك الأسباب التى شرعها الله وأحلها ، فأكلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، واجتنبوا خطوات الشيطان . ولهم نصيب مما كسبوا فى الآخرة لأنهم أخذوا الأسباب إلى رضوان الله ؛ وما أجمل تلك النصيحة التى وجهها القوم إلى قارون : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح

---

(١) سورة الشورى آية : ٢٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥٦ ط الشعب .

إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ والله سريع الحساب ﴾ ، ذلك لأن الله لا يعوقه شىء ، فكل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له . عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ؛ من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . نعم إنه سريع الحساب ، ليس فى حاجة إلى آلة حاسبة ولا مستشار ولا معين ولا قضاة ، فهو القائم بذاته ، الغنى عمن سواه ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾(٢) ، إنه سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾(٣) . ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾(٤) . ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾(٥) . وكيف لا يكون سريع الحساب وهو القائل : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(٦) .

قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ ، قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، والأيام المعلومات أيام العشر من ذى الحجة . وقال عكرمة : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ يعنى التكبير فى أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات : الله أكبر . الله أكبر .

قال رسول الله ﷺ : (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله)(٧) .

والمراد بأيام التشريق الأيام الثلاثة التى تلى يوم النحر ، قال تعالى : ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ﴾ أى من رمى الجمار فى يومين من أيام التشريق الثلاثة ثم رحل واكتفى بهذين اليومين فلا إثم عليه ولا جناح . ومن تأخر إلى اليوم الثالث ورمى الجمار فلا إثم عليه ، فكلا الأمرين جائز ، ولكن الأمر كله يدور على تقوى الله ، فمن تعجل متقيا مخلصا عمله لله فلا إثم عليه ، ومن تأخر ملتزما تقوى الله فلا إثم عليه . وقد ختم الله مشهد الحج عندما ينصرف الحجيج إلى بلادهم ويرجعون بعد أداء المناسك ، ختم الله هذا المشهد المهيب بقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ ، أى لا ترجعوا بعد أداء الفريضة مشتغلين بالدنيا لاهين عن ذكر الله ، لأن المرجع إلىَّ قبلَ الانصراف وبعده ، فقد وقفتم فى صعيد عرفات متجردين من المخيط والمحيط ، لا ألقاب ولا رتب ولا أوسمة ولا نياشين ، كذلك ستنشرون يوم الحشر فى صعيد القيامة . قال تعالى : ﴿ واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ .

ولنأخذ الآن فى بيان كيفية الحج ، كما تحدثت عن ذلك كتب الفقه :

---

(١) سورة القصص الآيتان : ٧٦ ، ٧٧ .
(٢) سورة لقمان آية : ٢٨ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .
(٤) سورة ياسين آية : ٨٢ .
(٥) سورة القمر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .
(٦) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤ .
(٧) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٧ ط الشعب .

كيفية الحج

إذا قارب الحاج الميقات استُحبَّ له أن يأخذ من شاربه ويقص شعره وأظافره ويغتسل أو يتوضأ ويتطيب ويلبس لباس الإحرام .

فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين وأحرم ـ أي نوى الحج إن كان مفرداً ، أو العمرة إن كان متمتعا أو هما معا إن كان قارنا ، وهذا الإحرام ركن لا يصح النسك بدونه . أما تعيين نوع النسك من إفراد أو تمتع أو قران فليس فرضا ، ولو أطلق النية ولم يعين نوعا خاصا صح إحرامه ، وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة .

وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع كلما علا شرفا ، أو هبط واديا ، أولقى ركبا أو أحدا ، وفى الأذكار وفى دبر كل صلاة . وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه ، ومخاصمة الرفاق وغيرهم ، والجدل فيما لا فائدة فيه ، وألا يتزوج ولايزوج غيره .

ويتجنب أيضا لبس المحيط والمخيط والحذاء الذى يستر ما فوق الكعبين ، ولا يستر رأسه ، ولا يمس طيبا ولا يحلق شعرا ولا يقص ظفرا ولا يتعرض لصيد البر مطلقا ، ولا لشجر الحرم وحشيشه .

فإذا دخل مكة المكرمة استُحب له أن يدخلها من أعلاها بعد أن يغتسل من بئر ذى طوى بالزاهر ، إن تيسر له .

ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها من «باب السلام» ذاكرا أدعية دخول المسجد ومراعيا آداب الدخول وملتزما الخشوع والتواضع والتلبية .

فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه فيسأل الله من فضله ، وذكر الدعاء المستحب فى ذلك ، ويقصد رأسا إلى الحجر الأسود ، فيُقَبِّلُهُ بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها ، فإن لم يستطع ذلك أشار إليه . ثم يقف بحذاء الحجر . ملتزما الذكر المسنون ، والأدعية المأثورة ثم يشرع فى الطواف .

ويستحب له أن يضطبع ويرمل فى الأشواط الثلاثة الأول ، ويمشى على هيئته فى الأشواط الأربعة الباقية . ويُسَنُّ له استلام الركن اليمانى وتقبيل الحجر الأسودفى كل شوط .

فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تاليا قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[1] . فيصلى ركعتى الطواف ثم يأتى « زمزم » فيشرب من مائها ويتضلع منه .

وبعد ذلك يأتى« الملتزم » فيدعو الله عزَّ وجلَّ بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة . ثم يستلم الحجر ويقبله ويخرج من باب « الصفا » إلى الصفا تاليا قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ . الآية[2] .

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٥٨ .

ويصعد ويتجه إلى الكعبة فيدعو بالدعاء المأثور ، ثم ينزل فيمشى فى السعى ذاكرا داعيا بما شاء . فإذا بلغ « مابين الميلين » يهرول ، ثم يعود ماشيا على رسله حتى يبلغ المروة ، فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعيا ذاكرا . وهذا هو الشوط الأول ، وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط .

وهذا السعى واجب على الأرجح ، وعلى تاركه كله أو بعضه دم . فإذا كان المحرم متمتعا حلق رأسه أو قصر . وبهذا . تتم عمرته ، ويحل له ما كان محظورا من محرمات الإحرام حتى النساء .

أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المتمتع من منزله ويخرج هو وغيره ممن بقى على إحرامه إلى منى فيبيت بها .

فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات ، ونزل عند مسجد نمرة ، واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام وإلا صلى جمعا وقصراً حسب استطاعته .

ولايبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال ، فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريبا منها ، فإن هذا موضع وقوف النبى ﷺ .

والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم . ولا يُسن ولا ينبغى صعود جبل الرحمة . ويستقبل القبلة . ويأخذ فى الدعاء والذكر والابتهال حتى يدخل الليل .

فإذا دخل الليل أفاض إلى « المزدلفة » فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير ويبيت بها .

فإذا طلع الفجر وقف بالمشعر الحرام وذكر الله كثيرا حتى يُسفر الصبح ، فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى « منى » .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم .

وبعد طلوع الشمس يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم يذبح هديه إن أمكنه . ويحلق شعره أو يقصره . وبالحلق يحل له كل ماكان محرَّما عليه . ماعدا النساء .

ثم يعود إلى مكة فيطوف بها طواف الإفاضة . وهو طواف الركن - فيطوف كما طاف فى طواف القدوم .

ويسمى هذا الطواف أيضا طواف الزيارة . وإن كان متمتعا سعى بعد الطواف .

وإن كان مُفْردا أو قارنا وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر . وبعد هذا الطواف يحل له كل شىء حتى النساء .

ثم يعود إلى « منى » فيبيت بها ، والمبيت بها واجب يلزم بتركه دم .

وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث ، مبتدئا بالجمرة التى تلى « منى » ثم يرمى الجمرة الوسطى ويقف بعد الرمى . داعيا ذاكرا . ثم يرمى جمرة العقبة ولا يقف عندها .

وينبغى أن يرمى فى كل جمرة بسبع حصيات قبل الغروب ويفعل فى اليوم الثانى عشر مثل ذلك .

ثم هو مخيّر بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثانى عشر وبين أن يبيت ويرمى فى اليوم الثالث عشر .

ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم .

فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع ، وهذا الطواف واجب وعلى تاركه أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات وإلا ذبح شاة .

ويؤخذ من كل ماتقدم أن أعمال الحج والعمرة هى الإحرام من الميقات والطواف والسعى والحلق ، وبهذا تنتهى أعمال العمرة .

ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار ، وطواف الإفاضة والمبيت بـ « منى » والذبح والحلق أو التقصير . هذه هى خلاصة أعمال الحج والعمرة .

حجة رسول الله ﷺ

فى العام العاشر من الهجرة أذن المؤذن فى الناس أن رسول الله ﷺ قد عزم بمشيئة الله على أداء الحج ، وهذه الحجة تسمى حجة الوداع ، لأن الرسول لحق بعدها بالرفيق الأعلى ، وتسمى حجة الإسلام ، لأن الرسول ﷺ بلغ فيها وبين أصول الإسلام ، كذلك تسمى حجة البلاغ ، لأنه ﷺ بلغ فيها قواعد الدين وشعائر العبادات وأصول العقائد ومبادىء الأحكام وقواعد النظام ومناهج السلوك . ولنذهب الآن إلى الصحابى الجليل جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، يحدثنا عن هذه الحجة المباركة ، وذلك فيما رواه الإمام مسلم رضى الله عنه .

روى الإمام مسلم بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، فسأل عن القوم حتى انتهى إلىّ ؟ فقلت : أنا محمد بن على بن حسن ، فأهوى بيده إلى رأسى ، فنزع زرّى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديى ، وأنا يومئذ غلام شاب ، فقال : مرحبا بك يابن أخى ، سل عما شئت ؟ فسألته ـ وهو أعمى ـ وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نِساجةٍ ملتحفا بها ، فلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ، ورداؤه إلى جنبه على المشجب . فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ ، فقال بيده ، فعقد تسعا فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ، ثم

أذن فى الناس فى العاشرة : إن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبى بكر ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ قال : اغتسلى واستثفرى بثوب واحرمى [معنى الاستثفار : أن تشد فى وسطها شيئا ، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها فى ذلك المشدود فى وسطها لمنع سيلان الدم] . فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ثم ركب القصواء [معنى القصواء اسم لناقة النبى ﷺ] ، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرتُ إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله . وما عمل به من شىء عملنا به . فأهل [معناها من الإهلال] ، وهو رفع الصوت بالتلبية . فأهل بالتوحيد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » ، وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يَرُدَّ رسول الله ﷺ عليهم شيئا منه ، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه ، استلم الركن ، فَرَمَلَ ثلاثا ، ومشى أربعا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ . ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان يقرأ فى الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج إلى باب الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ، أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فَرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لاإله الا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات . ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى ، سعى ، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخر طوافه على المروة ، فقال : « لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسُقِ الهدى ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل . وبجعلها عمرة .

فقام سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال : يارسول الله ألعَامِنا هذا أم لأبد ؟ فشبَّك رسول الله ﷺ أصابعه ، واحدة فى الأخرى ، وقال دخلت العمرة فى الحج مرتين لا . بل لأبد أبد .

وقدم علىٌّ من اليمن ببدن النبى ﷺ ، فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حَلَّ ، ولبست ثيابا صبغا واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها فقالت : إن أبى أمرنى بهذا . قال : فكان علىّ يقول بالعراق ، فذهبت إلى

رسول الله ﷺ مُحرِّشا [التحريش : الإغراء . والمراد هنا أن يذكر له مايقتضى عتابها] على فاطمة للذى صنعت ، مستفتيا رسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أنى أنكرتُ ذلك عليها ، فقال : صدقت ، صدقت ، ماذا قلت حين فَرضت الحج ؟

قال : قلت : اللهم إنى أُهل بما أهل به رسولك . .

قال : فإن معى الهْدىَ فلا تحل .

قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به علىٌّ من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ ، مائة .

قال : فحل الناسُ كلهم وقصروا ، إلا النبى ﷺ ، ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية [يوم التروية : هو اليوم الثامن من ذى الحجة] ، توجهوا إلى منىً فأهلوا بالحج .

وتوجه رسول الله ﷺ ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب ، والعشاء ، والفجر .

ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شَعَرٍ تضرب له بنمرة . فسار رسول الله ﷺ حتى أتى عرفه فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس ، أمر بالقصواء فرحلت له . فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا ، دم ابن ربيعة بن الحارث [كان مسترضعا فى بنى سعد ، فقتله هزيل] ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول رباً أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخترتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ، إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تُسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال : بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ثلاثة مرات» .

ثم أذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه .

ودفع رسول الله ﷺ ، وقد شنق [أى ضم وضيق] للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس . السكينة السكينة ، كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئا .

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء ، حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا . فرفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلا حسن الشعر ، أبيض وسيما ، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظُعُن [الظعن : جمع ظعينة ، وهى البعير الذى عليه امرأة ، ثم سميت به المرأة مجازا لملابستها البعير] ، مرت به ظُعُن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر فوضع يده على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر لئلا ينظر ، حتى أتى بطن مُحسِّر ، فحرّك قليلا . . ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخزف ، رمى من بطن الوادى . ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ماغبر وأشركه فى هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة : أى القطعة من اللحم فجعلت فى قدر ، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها . ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر ، فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : «انزعُوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم» . فناولوه دلوا فشرب منه .

قال العلماء : واعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ، ونفائس من مهمات القواعد : قال القاضى عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه ، وأكثروا ، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيرا ، أخرج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعا . قال : ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه . قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سُنة للنفساء والحائض ولغيرهما بالأولى ، وعلى استثفار الحائض والنفساء ، وعلى صحة إحرامها ، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبى ﷺ . فإذا زاد فلا بأس فقد زاد عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن ، لبيك مرهوبا منك ومرغوبا إليك .

وأنه ينبغى للحاج القدوم أولا إلى مكة ليطوف طواف القدوم ، وأن يستلم الركن ـ الحجر الأسود ـ قبل طوافه ، ويرمل فى الثلاثة الأشواط الأولى ـ والرمل أسرع المشى مع تقارب الخُطا ، وهو الخَبَب . وهذا الرمّل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين . ثم يمشى أربعا على عادته وأنه يأتى بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلى ركعتين . ويقرأ فيهما فى الأولى ـ بعد الفاتحة ـ سورة (الكافرون) وفى الثانية ـ بعد الفاتحة ـ سورة (الإخلاص) . ودل الحديث أنه يُشرعَ له الاستلام عند الخروج من المسجد كما فعله عند الدخول .

واتفق العلماء : على أن الاستلام سُنة ، وأنه يسعى بعد الطواف ، ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف عليه ، مستقبل القبلة ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ، ويدعو ثلاث مرات ويَرْمُل فى بطن الوادى ، وهو الذى يقال له «بَيْنَ الميلين» ، وهو ـ أى الرمل ـ مشروع فى كل مرة من السبعة الأشواط لا فى الثلاثة الأولى كما فى طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضا على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو .

وبتمام ذلك تتم عمرته . فإن حلق أو قصر صار حلالا . وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة ، وأما من كان قارنا ، فإنه لا يحلق ولا يقصر ، ويبقى على إحرامه ثم فى يوم التروية ــ وهو الثامن من ذى الحجة ــ يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ويذهب هو ومن كان قارنا إلى منى . والسُّنَّة أن يصلى بمنى الصلوات الخمس ، وأن يبيت بها هذه الليلة ــ وهى ليلة التاسع من ذى الحجة .

ومن السُّنة كذلك ألا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ، ولا يدخل «عرفات» إلا بعد زوال الشمس .

وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً بـ« عرفات » فإنه ﷺ نزل بنمرة ، وليست من عرفات .

ولم يدخل ــ ﷺ ــ الموقف إلا بعد الصلاتين .

ومن السُّنة ألا يصلى بينهما شيئاً ، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة ، وهذه إحدى الخطب المسنونة فى الحج .

والثانية :ــ أى من الخطب المسنونة ــ يوم السابع من ذى الحجة ، يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر .

والثالثة : ــ أى من الخطب المسنونة ــ يوم النحر .

والرابعة : يوم النفر الأول . وفى الحديث سنن وآداب منها : أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين . وأن يقف ــ فى عرفات ــ راكباً أفضل . وأن يقف عند الصخرات ، عند موقف النبى ﷺ ، أو قريباً منه وأن يقف مستقبل القبلة . وأن يبقى فى الموقف حتى تغرب الشمس ؛ ويكون فى وقوفه داعياً لله عز وجل ، رافعاً يديه إلى صدره ، وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة ، ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً . فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعا بأذان واحد وإقامتين ، دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء ، وإنما اختلفوا فى سببه ، فقيل : إنه نُسُك ، وقيل : لأنهم مسافرون ــ أى السفر هو العلة لمشروعية الجمع .

ومن السنن : المبيت بمزدلفة ، وهو مُجْمَع على أنه نسك ، وإنما اختلفوا فى كونه ــ أى المبيت ــ واجباً أو سُنَّة . ومن السُّنه ، أن يصلى الصبح فى المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك ، فيأتى المشعر الحرام فيقف به ، ويدعو .

والوقوف عنده من المناسك . . ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفاراً بليغاً ، فيأتى بطن مُحسِّر فيسرع السير فيه ، لأنه محل غَضَب الله فيه على أصحاب الفيل ، فلا ينبغى الأناةُ فيه ، ولا البقاء فيه .

فإذا أتى الجمرة ــ وهى جمرة العقبة ــ نزل ببطن الوادى ورماها بسبع حصيات ، كل حصاة كحبة البَاقلاَّء ــ أى الفول ــ يُكَبِّر مع كل حصاة . ثم ينصرف بعد ذلك إلى المنحر فينحرُ ــ إن كان عنده هدى ــ ثم يحلق بعد نحره .

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة ـ وهو الذى يقال له : طواف الزيارة .

ومن بعده يحلُّ له كل ما حَرُمَ عليه بالإحرام ، حتى وَطْءُ النساء .

وأما إذا رمى جمرة العقبة ، ولم يَطُفْ هذا الطواف ، فإنه يحلُّ له كل شىء ما عدا النساء .

هذا هو هدىُ رسول الله ﷺ فى حجه ، والآتى به مُقْتدٍ به ـ ﷺ ـ وممتثِلٌ لقوله : (خذوا عنى مناسككم) . وحجه صحيح .

نماذج مختلفة من الناس

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

المفردات : يقال : أعجبه الشىء ، أى راقه واستحسنه ، ورآه عجباً ، أى طريفاً جديداً غير مبتذل ، وتقول العرب : الله يشهد أو الله يعلم ، أنى أريد كذا ، تقصد بذلك الحلف واليمين ، كما قال تعالى حكاية عن رسل عيسى : ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾[1] . واللدد : شدة الخصومة ، والخصام:الجدال ، وتولى : أى أدبر وانصرف عن مجلسك ، والسعى : السير السريع بالأقدام ، والمراد به هنا الجد فى العمل والكسب ، ويهلك : أى يضيع ، والحرث : الزرع ، والنسل : ما تناسل من الحيوان ، والمراد من : هلاكهما الايذاء الشديد ، أخذته : أى لزمته ، والعزة فى الأصل خلاف الذل ، والمراد بها هنا الانفَةُ والحمِيَّة ، بالإثم : أى على الذنب الذى نُهى عنه واسترسل فى فعله ، حسبه : أى كافيه ، والمهاد : الفراش يأوى اليه المرء للراحة ، ويشرى : يبيع ويبذل ، ابتغاء : أى طلبا .

هذا المشهد القرآنى بين الله فيه حال صنفين من الناس ، وقد جاء هذا المشهد عقب بيان صنفين سبق ذكرهما ، كان الصنف الأول يقول : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ﴾[2] . وكان الصنف الثانى يقول : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾[3] . وقد أمر الله بعد ذلك عباده بالتقوى ، فقال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾[4] . ولما كانت التقوى محلها القلب ،

---

(١) سورة يس آية : ١٦ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٠ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٠١ .
(٤) سورة البقرآية : ٢٠٣ .

كما أشار بذلك النبى ﷺ فى قوله : (التقوى ها هنا) ، مشيرا إلى صدره ، فإن هناك فريقا من الناس يخدع عباد الله ، فيضمر فى قلبه مالا يظهر على لسانه ويظن بذلك أنه التقى النقى الطاهر الورع ؛ هذا الفريق يعجبك قوله فى الحياة الدنيا قال تعالى : ﴿ وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾[1] . هذا الفريق يُشْهِد الله على ما فى قلبه وهو يعلم أنه كاذب غادر أفاك أثيم . قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾[2] . فإذا قلت لقد حلفوا وأقسموا فى قولهم والله يعلم إنك لرسوله . وفى قوله تعالى : ﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه ﴾ قال لك الله : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾[3] ، أى جعلوا من الحلف وقاية من الكذب أمام الناس ، لكن الله يعلم ما فى قلوبهم . ذلك لأن علام الغيوب يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . كان المسيح ابن مريم يقول : (يا بنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله) ، قال جل ذكره فى الحديث القدسى الجليل : (لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران ، أبى يغترون ، أم على يجترئون) .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا	إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم أنه بك واثق	وإذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة	ويروغ منك كما يروغ الثعلب
كم من صاحب يلقاك عناقا	ويقسم أنه لا يطيق لك فراقا

ملاك فى مظهره شيطان فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر وقلب أبى لهب . هذا الفريق معسول الكلام ، كثير الحلف ، ألدُّ فى الجدال ، عنده المقدرة الكلامية فى الجدال والإفحام بالباطل . ومن صفات هذا الفريق أنه إذا تولى وانطلق وراء نفسه المعتلة المليئة بالعقد والحقد سعى فى الأرض بالإفساد ، وما أكثر وجوه الإفساد ، فالنميمة والغيبة والسحر وشهادة الزور والقتل وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، والظلم ، وإهلاك الحرث ، أى إفساد الزرع بقطعه ، وإهلاك النسل ، بقتل الحيوان سما وإتلافه ، والله تعالى لا يحب الفساد ولا يرضى عن المفسدين .

وهذا الفريق من صفاته أنه لايقبل الحق ولا يستجيب لنصح الناصحين ، إذا قيل له اتق الله لزمه الصلف وأحاطت به الحمية والأنفة بالباطل ، فما جزاؤه ؟ حسبه جهنم ، أى يكفيه ما فى جهنم من شديد العذاب وبئس الفراش الذى يأوى إليه فى جهنم ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾[4] .

أما الفريق الثانى ففريق الإخلاص والوفاء لله ، فريق باع نفسه فى سبيل الله : ﴿ ومن الناس من

(١) سورة المنافقون آية : ٤
(٢) سورة المنافقون آية : ١
(٣) سورة المنافقون آية : ٢
(٤) سورة الاعراف : آية ٤١

يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ لا من أجل عرض ولا مغنم ولا منصب ولا كرسى مزور ولا جاه يفنى ، إنما ابتغاء ما عند الله من مرضاته ، ورضوان من الله أكبر ، وكأنه يقول لرافع السماء بلا عمد :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ يدفع عنهم البلاء ويرحمهم إذا حل القضاء ، وهو القائل : أنا أرأف بعبادى من الأم بولدها .

قيل لعمر رضى الله عنه : اتق الله . فوضع خده على الأرض تواضعا ، قال بعض الجالسين للقائل : أتأمر أمير المؤمنين بتقوى الله ؟ فقال لهم عمر : لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها . وكان رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى . ولقى رجل هارون الرشيد يطوف بالبيت فقال له : ياهارون اتق الله . قال هارون : أتنادينى باسمى ؟ فقال له : نعم . . إذا كنت أنادى على الله باسمه فأقول يا الله ، فكيف لا أناديك باسمك ؟ . وكان لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز مستشار خاص يسمى عمر بن مهاجر ، قال له أمير المؤمنين : يا عمر ، إذا رأيتنى بَعُدتُ عن الحق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله يا عمر ، فإنك ستموت . فما أجمل قوله تعالى : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾(١) ، وما أعظم قوله تبارك اسمه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(٢) ، وما أجل قوله جل جلاله : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾(٣) ، وما أكرم قوله جل وعلا : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾(٥) ، وقوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾(٦) ، وقوله : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾(٧) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾(٨) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾(٩) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾(١٠) .

---

(١) سورة النساء آية : ١ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٠٢ .
(٣) سورة الحج آية : ١ .
(٤) سورة الأحزاب الآيتان : ٧٠ ، ٧١ .
(٥) سورة الحشر آية : ١٨ .
(٦) سورة التوبة آية : ١١٩ .
(٧) سورة يوسف آية : ٩٠ .
(٨) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٩) سورة الطلاق آية : ٤ .
(١٠) سورة الطلاق آية : ٥ .

توجيه ربانى كريم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

المفردات : أصل السلم : التسليم والانقياد ، فيطلق على الصلح والسلام وعلى دين الإسلام . والخطوات : واحدها خُطوة (بالضم) مابين قدمى من يخطو . والزلل فى الأصل : عثرة القدم ، ثم استعمل فى الانحراف عن الحق ، والبينات : الحجج والأدلة التى ترشد إلى أن مادُعيتم إليه هو الحق : عقلية كانت أو نقلية . والعزيز : الغالب الذى لايعجزه الانتقام . والحكيم : الذى يعاقب المسىء ويكافىء المحسن . ينظرون : أى ينتظرون . يأتيهم الله : أى يأتيهم عذابه . والظُّلل : واحدها ظُلة (بالضم) وهى ما أظلك . والغمام : السحاب الأبيض الرقيق . وقضى الأمر : أى أتم أمر إهلاككم وفرغ منه .

بعد أن بين سبحانه فيما سلف من الآيات أن الناس فى الصلاح والفساد فريقان : فريق يسعى فى الأرض بالفساد ، ويهلك الحرث والنسل ، وفريق يبغى بعمله رضوان الله وطاعته ــ أرشدنا إلى أن شأن المؤمنين الاتفاق والاتحاد ، لا التفريق والانقسام .

قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾ كافة ، أى فى أحكامه كلها التى أساسها الاستسلام والخضوع لله والإخلاص له ، ومن أصوله : الوفاق والمسالمة بين الناس ، وترك الحروب بين المهتدين بهديه ، والأمر بالدخول فيه ، أمر بالثبات والدوام ، كقوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى اتق الله ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾[2] . وهذه دعوة من الله إلى جماعة المسلمين أن يأخذوا الإسلام بكل شعبه عقيدة وشريعة ، فلم التفرقة ، ولم الشقاق والنزاع ؟ لقد أخبر الصادق المعصوم فى دعوته إلى وحدة الصف فقال : (لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) . وقد بين الصادق المعصوم أيضا أن الفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة ، قالوا : يارسول الله وما السنة والجماعة ؟ قال : ماأنا عليه اليوم وأصحابى . وقوله جل شأنه : ﴿ ادخلوا فى السلم كافة ﴾ كقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾[3] ، ثم حذر سبحانه من اتباع خطوات الشيطان ، فإنه مفرق الجماعات ، ومبيد الأمم ، ومفسد العلاقات . قال سبحانه : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ ، ثم بيّن الغاية والحكمة من ذلك فقال : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ ، أى ظاهر العداء والشقاق : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا

(١) سورة الأحزاب آية : ١ .
(٢) سورة الحديد آية : ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران آية : ١٠٣

إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[١] ، ثم حذر سبحانه من الوقوع فى الزلل والابتعاد عن طريق الله ومنهجه فقال : ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ﴾ ، أى حدتم وابتعدتم عن الحق بعد وضوحه وقيام الأدلة ﴿ فاعلموا أن الله عزيز ﴾ غالب وحكيم ، يضع الأمور فى نصابها : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرىٰ وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] . ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٣] ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٤] فاحذروا ياأمة الإسلام من الفرقة واتباع خطوات الشيطان والوقوع فى الزلل ، فإن الله جل شأنه يهلك الأمم بذنوبها ، قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾ . قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مهددا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ﴾ يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شرا فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك صفا صفا * وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ ، وقال : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ﴾ . وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله ، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم ، وفيه : أن الناس إذا اهتموا لموقفهم فى العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ ، فإذا جاءوا إليه قال : (أنا لها أنا لها) ، فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء بين العباد ، فيشفعه الله ، ويأتى فى ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم ، يقولون : « سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذا السلطان والعظمة ، سبحانه سبحانه أبداً أبداً » . وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى[٦] .

---

(١) سورة فاطر آية : ٦
(٢) سورة هود آية : ١٠٢
(٣) سورة هود آية : ١٠٧
(٤) سورة القصص آية : ٥٩
(٥) سورة العنكبوت آية : ٤٠
(٦) تفسير ابن كثير جـ١ صـ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ط الشعب

قوله : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾[١] ، وكقوله جل شأنه : ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾[٢] وكقوله سبحانه : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾[٣] ، وكقـوله تبـارك وتعالى : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾[٤] وكقوله جل جلاله : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٥] .

مع بنى اسرائيل

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

المفردات : الآية : المعجزة الظاهرة التى لا يخفى أنها من عند الله كالعصا واليد البيضاء . والتبديل : تغيير الشىء من حال إلى حال . ونعمة الله وهى آياته الباهرة التى آتـاها أنبيـاءه وجعلها مصـدر الهدى والنجاة . والعقاب : عذاب يعقب الذنب . وزين له الشىء : حسن له . وسخـر منه : استهـزأ به . والحساب : التقدير .

بعد ما أمر الله تعالى المؤمنين أن يدخلوا فى السلم كافة وأن يأخذوا شعب الإسلام كلها ، حذرهم سبحانه وتعالى من الزلل والانحراف فقال : ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

بعد ذلك ذكر الله لهم عبرة بالغة فى شعب غير وبدل ، إنه الشعب المعروف ببنى إسرائيل ، قال الله تعالى لحبيبه ومصطفاه : ﴿ **سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** ﴾ ، أى اسألهم سؤال تقرير ، فقد أرسل الله إليهم من الأنبياء الكثير والكثير نظراً لما جبلوا عليه من الفساد والإفساد والشر المستطير ، فكم من آية نزلت على يد نبيهم موسى ، وكم من غمام ظللهم ؟ وكم من طعام شهى من المن والسلوى نزل عليهم ؟ وكم من عيون فجرت فى حجر ؟ ومن أعظم تلك الآيات أن جاوز الله بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون وهم ينظرون . وكم من آيات ظهرت على أيدى المسيح ابن مريم ، فقد كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، ومع ذلك كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، ففريقاً كذبوا وفريقاً

---

(١) سورة الحج آية : ٤١
(٢) سورة هود آية : ١٢٣
(٣) سورة آل عمران آية : ١٥٤
(٤) سورة الانفطار آية : ١٩
(٥) سورة الشورى آية : ٥٣

يقتلون . فيا أمة الإسلام : إن الطريق واضح ، وإن الحق لائح ، وإن المنادى صائح ، وقد جاءكم من الأنباء ما فيه مزدجر . فاستقيموا على طريق الجادة وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، واعلموا أنه من يبدل نعمة الله كفراً فإن مصيره دار البوار جهنم : وقد تكون نعمة الله المقصود بها الإسلام ، فمن بدل دينه وتنكب طريق الحق من بعد ما صاح المنادى : يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد ، فليعلم الذين يبدلونه من بعدما سمعوه أن الله شديد عقابه ، أليم عذابه ؛ ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد ﴾[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[(٢)] قوله تعالى : ﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ لأن قلوبهم خاوية من الإيمان ، فأصبحت كالخرائب تنعق فيها البوم والغربان ، لقد أجمعوا أمرهم وذهبوا إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالوا : يا محمد إن كنت تريدنا فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، يقصدون فقراء المسلمين كابن مسعود وخباب وصهيب فماذا كانت النتيجة ؟ لقد هبط الأمين جبريل على ناشر الهدى وواسع الندى بقوله جل شأنه : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾[(٣)] ، وكان النبى ﷺ يبسط رداءه لفقراء المسلمين ويجلسهم عليه ويقول لهم : مرحباً بمن أوصانى ربى بهم خيرا ، بل قال الله لهم ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ ، بل لقد أمره جل جلاله أن يشرح لهم صدره ويفسح لهم فى الترحاب فقال : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾[(٤)] ، بل لقد زلزلت الأرض زلزالها عندما سخر بعض المنافقين بأحد المسلمين الفقراء ، وقد دخل بحفنة من الشعير متبرعا بها لجيش المسلمين يوم تبوك ، فأنزل الله الأمين جبريل بقوله : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عـذاب أليم * استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[(٥)] . بل لقد أنزل الله آيات بينات فيها ملاطفة رقيقة لمبعوث العناية الإلهية عندما شغله بعض صناديد القوم عن الحديث مع رجل فقير مسلم هو عبد الله بن أم مكتوم ، قال تعالى : ﴿ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصـدى * وما عليـك ألا يزكى * وأمـا من جاءك يسعى * وهـو يخشى * فأنت عنـه تلهى * كـلا إنها تذكرة ﴾[(٦)] بل لقد ضجت السموات العلا عندما قال قائلهم : ألم يجد الله إلا يتيم أبى طالب ﴿ وقالوا لولا

---

(١) سورة الفجر الآيتان : ٢٥ ، ٢٦
(٢) سورة آل عمران آية : ١٤ .
(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .
(٤) سورة الأنعام آية : ٥٤ .
(٥) سورة التوبة الآيتان : ٧٩ ، ٨٠ .
(٦) سورة عبس الآيات : ١ - ١١ .

نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[١] قال لهم رافع السماء بلا عمد : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون * ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾[٢] .

قوله تعالى ﴿ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ . نعم ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون ﴾[٤] وقال جل شأنه : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحٰب اليمين * فى جنات يتساءلون * عن المجرمين * ماسلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين[٥] ﴾ وما أجل قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾[٦] .

قوله جل شأنه : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾[٧] ، وكقوله تبارك اسمه : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضلة والله يرزق من يشاء بغير حساب[٨] ﴾ وكقوله جل جلاله : ﴿ إنما يُوَفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٩] أى بدون عدٍّ ولا حد ولا تقدير ، فالله تعالى يعطى الكثير ، ويجبر القلب الكسير ، ويغفر الزلات .

بعثة الأنبياء بالتبشير والإنذار

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى

(١) سورة الزخرف آية : ٣١ .
(٢) سورة الزخرف الآيات : ٣٢ - ٣٥ .
(٣) سورة الإسراء آية : ١٩ .
(٤) سورة المطففين الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .
(٥) سورة المدثر الآيات : ٣٨ - ٤٧ .
(٦) سورة الأعراف الآيتان : ٥٠ ، ٥١ .
(٧) سورة غافر آية : ٤٠ .
(٨) سورة النور آية : ٣٨ .
(٩) سورة الزمر آية : ١٠ .

مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

قوله تعالى « أمة » جاء لعدة معان :

(١) الملة : أى العقائد وأصول الشرائع كما فى قوله : ﴿ إن هـذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾[١] .

(٢) الجماعة : الذين تربطهم رابطة يعتبرونها وحدة تسوغ أن يطلق عليها اسم الأمة كما فى قوله : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾[٢] .

(٣) الزمن كما فى قوله : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ وادكر بعد أمة ﴾[٤] .

(٤) للإمام الذى يقتدى به كما فى قوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله ﴾[٥] .

(٥) إحدى الأمم المعروفة كما فى قوله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾[٦]

جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنـذرين ، وأنزل الله معهم الكتاب والميزان بالحق ، فدعت الرسل إلى التوحيد الخالص ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾[٧] ولقد وقعت اختلافات بين الناس ، فكان الكتاب حكماً بينهم فيما اختلفوا فيه . وقد تعجب عندما تعلم أن الذين اختلفوا هم الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، وما كان الدافع إلى اختلافهم إلا الحسد والبغى الذى استشرى فى نفوسهم ، ومن بعـد ما جـاءتهم البينات الواضحات والآيات الباهرات ، وهنا تجلت نعمة الله على المؤمنين ، قال جل شأنه : ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك . عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : (نحن الآخرون الأولون يوم القيامه ، نحن أول الناس دخولاً الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، فغداً لليهود وبعد غد للنصارى)[٨] .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه فى قوله تعالى : ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ ، فاختلفوا فى يوم الجمعة فاتخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد ، فهدى الله أمـة محمد ﷺ ليـوم

(١) سورة الأنبياء آية : ٩٢ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٨١ .
(٣) سورة هود آية : ٨ .
(٤) سورة يوسف آية : ٤٥ .
(٥) سورة النحل آية : ١٢٠ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١١٠ .
(٧) سورة النحل آية : ٣٦ .
(٨) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٥ ط الشعب .

الجمعة ؛ واختلفوا فى القبلة ، فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس ، فهدى الله أمة محمد للقبلة ؛ واختلفوا فى الصلاة ، فمنهم من يركع ولا يسجد ، ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلى وهو يتكلم ، ومنهم من يصلى وهو يمشى ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا فى الصيام ، فمنهم من يصوم بعض النهار ، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا فى إبراهيم عليه السلام ، فقالت اليهود : كان يهودياً ، وقالت النصارى : كان نصرانياً ، وجعله الله حنيفاً مسلماً ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا فى عيسى عليه السلام ، فكذبت به اليهود وقالوا على أمه بهتاناً عظيماً ، وجعلته النصارى إلهاً وولدا ، وجعله الله روحاً منه وكلمته ألقاها إلى مريم ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك حيث قال تعالى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ﴾[1] .

جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول : (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم)[2] .

وفى الدعاء المأثور : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، فلا تجعله ملتبساً فنضل ، واجعلنا للمتقين إماماً .

الثبات والنصر

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

المفردات : المثل : الوصف العظيم والحال التى لها شأن بحيث يضرب بها المثل . والبأساء : الشدة تصيب الإنسان فى غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة . والضراء : ما يصيب الإنسان فى نفسه كالجرح والقتل والمرض . والزلزال : الاضطراب فى الأمر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه كما قال تعالى فى المؤمنين يوم الأحزاب : ﴿ وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾[3] .

روى أن هذه الآية نزلت فى غزوة الأحزاب حين اجتمع المشركون مع أهل الكتاب وتحالفوا على الإيقاع بالمسلمين ، وأصاب المؤمنين يومئذ جهد وشدة وجوع وضروب من الأذى ، وأبدى المنافقون صفحة

(١) سورة الزخرف آية : ٥٩ .
(٢) تفسير القرآن العظيم للامام ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٦ ط الشعب .
(٣) سورة الأحزاب آية : ١١ .

العداوة والبغضاء للمؤمنين الصادقين ، وقالوا كما قال الذين فى قلوبهم مرض : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾[١] ، وقال صادقو الايمان على قلتهم وضعفهم وجوعهم وعريهم : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾[٢] .

وفى قوله تعالى: ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾[٣] ، بين الله تعالى أن هناك فريقين بينهما صراع ، فريق أوتوا الكتاب فاختلفوا وتنازعوا فى الحق حسداً من عند أنفسهم على أهل الإيمان ، وفريق هداه الله إلى الحق بإذنه ، فلابد لأهل الحق أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا . وفى هذه الآية : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ بيان لما يجب أن تكون عليه الجماعة المسلمة ؛ فالصراع بين الحق والباطل دائم ومستمر من يوم هبط آدم إلى الأرض إلى أن يرث الله الارض ومن عليها ، وكأن هذا الصراع سلسلة متصلة الحلقات يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر وبطرفها الثانى إسرافيل نافخ الصور ، فلتوطنوا أنفسكم يا أهل الحق على الجهاد والتمرس بالشدائد ، فلستم بدعاً من الأمم ؛ لقد سبق لما كان قبلكم الإيذاء والابتلاء ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٤] . ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[٥]

يا أمة الإسلام لقد كان من قبلكم أمم نشر فيها الموحدون بالمناشير ، فما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً ؛ ولقد قتل الأنبياء ونالوا بذلك شرف الجهاد ، وقد كان المؤمنون يحرقون بالنار كما حدث لأصحاب الأخدود : ﴿ ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾[٦] . فاعلموا أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الضيق ، وأن اليسر مع العسر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾[٧] . فهل يضيع جهاد هؤلاء عند الله ؟ لا والله ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[٨] . فاصبروا على كل الشدائد من البأساء والضراء ولا تستبطئوا نصر الله فإن نصر الله قريب ، ولكنكم تستعجلون . . إن يد الله تعمل فى الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

(١) سورة الأحزاب آية : ١٢ .
(٢) سورة الأحزاب آية : ٢٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ٣٤ .
(٥) سورة آل عمران الآيات : ١٤٠ - ١٤٢ .
(٦) سورة البروج الآيتين : ٨ - ٩ .
(٧) سورة يوسف آية : ١١٠ .
(٨) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

ماذا ينفقون

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

الخير هنا هو المال وسمى به لأن حقه أن ينفق فى وجوهه . والأقربون : هم الأولاد وأولادهم ثم الإخوة .

جاء فى سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس أن ابن الجموح ـ وكان شيخاً كبيراً وله مال عظيم ـ سأل رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من ننفق ؟ فنزلت الآية .

وروى أحمد والنسائى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (تصدقوا ، فقال رجل : عندى دينار ، قال : تصدق به على نفسك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على زوجتك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على ولدك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : أنت أبصر به)[1] .

﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ أى أى شىء يتصدقون به من أصناف أموالهم ؟ **﴿ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾** أى قل لهم : على المنفق أن يقدم الوالدين لأنهما قد رباه صغيراً وتعبا فى تنشئته ، ثم الأولاد وأولادهم ثم الإخوة ، لأنهم أولى الناس بعطفه ورعايته ، ولأنه إذا تركهم يحتاجون إلى غيره كان فى ذلك عاراً وشنارا عليه ، ثم اليتامى لعدم قدرتهم على الكسب لصغر سنهم ، ثم المساكين وأبناء السبيل للتكافل العام بين المسلمين ، فهم أعضاء أسرة واحدة ، فيجب أن يتعاونوا فى السراء والضراء . وقد جاءت الآية فى بيان نفقة التطوع لا فى الزكاة المفروضة ، لأنها لم تعين مقدار المنفق والزكاة الشرعية معينة المقدار بالاجماع ، ولم يذكر سبحانه السائلين والرقاب لذكرهما فى مواضع أخرى . **﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾** أى وما تنفقوه فى وجوه البر والطاعة فى أى زمان وأى مكان على الأصناف المذكورة أو غيرها فالله عليم به لا يغيب عنه شىء ، فلا ينسى المثوبة والجزاء عليه ، بل يضاعف عليه الجزاء

القتال والشهر الحرام

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٤ ط الشعب .

شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

المفردات : ﴿ كتب عليكم ﴾ : أى فرض عليكم . والصد : المنع . والفتنة : أى فتنة المسلمين فى دينهم بإلقاء الشبهات فى قلوبهم أو بتعذيبهم . ﴿ يرتدد ﴾ : أى يرجع . وحبط العمل : بطل وفسد . ﴿ آمنوا ﴾ : أى ثبتوا على إيمانهم . ﴿ هاجروا ﴾ : أى فارقوا الأهل والوطن . ﴿ وجاهدوا ﴾ : من الجهد وهو المشقة . ﴿ يرجون ﴾ : أى يتوقعون المنفعة بعمل الأسباب التى سنها الله . ﴿ رحمة الله ﴾ : أى ثوابه .

جاء فى تفسير المراغى : أنه كان الكلام فيما مضى فى الإنفاق وبذل المال فى سبيل الله على أصناف من المؤمنين فى احتياج إلى مد يد المعونة والمساعدة لهم إيجاداً لروح التعاون بين الإخوة فى الإيمان وتثبيتاً لمبدأ التكافل العام فى الأسرة الإسلامية لتصلح جميع أعضائها ، وتكون كالبدن السليم لا يشتكى منه عضو من الأعضاء ، فيؤدى كل عضو وظيفته فى الحياة ويعمل العمل الذى هيىء له بمقتضى النظام العام . ففى ذلك بذكر القتال وبذل النفس لإعلاء دين الله وجعل كلمته العليا وكلمة الكفر هى السفلى ، ونشر النور الإسلامى فى أرجاء المعمورة لهدى الخلق ومعرفتهم للحق .

ومن البين أن المال أخو الروح ، فالصلة بينهما وثيقة ، فناسب ذكر آيات القتال بعد ذكر أحكام الصدقة على النحو الذى عرفت .

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ ، أى فرض عليكم قتال الكفار فرض كفاية ، إذا قام به جماعة كفى ولم يلزم الباقين ، إلا إذا دخل العدو بلاد المسلمين فاتحاً فيكون فرض عين .

وقوله : ﴿ وهو كره لكم ﴾ ، أى شاق عليكم ، تتضرر منه الطباع لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ، وهذه الكراهة الطبيعية لا تنافى الرضا بما يكلف به الإنسان ، كالمريض يشرب الدواء المر البشع الذى تعافه نفسه لما يرى فيه من منافع فى العاقبة ؛ وهذه أول آية فرض فيها القتال ، وكان ذلك فى السنة

الثانية للهجرة ، وقد كان القتال محظوراً على النبى ﷺ مدة إقامته فى مكة ، فلما هاجر إلى المدينة أذن له فى قتال من يقاتله من المشركين بقوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾(١) ، ثم أذن له فى قتال المشركين عامة ، ثم فرض الجهاد .

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ ، أى إن من الأشياء المستلذة طبعاً ما يفعله الإنسان لما يرجو فيه من نفع وخير فيما بعد ، فقد يتحمل الإنسان أخطار الأسفار لتحصيل الربح فى التجارة ، ويتحمل المتاعب فى طلب العلم للفوز بالسعادة فى الدنيا والعقبى ، كذلك من الأشياء المكروهة طبعاً ما يتوقع فاعلها الضرر والأذى فى نفسه أو من جهة منازعة الناس له فيه ؛ وهكذا الحال فى ترك الجهاد ، فإنه يصون النفس عن خطر القتل ، ويصون المال عن الانفاق حالاً ، لكن فيه مفاسد ومضار مآلا ، كتسليط الكفار على بلاد المسلمين وأموالهم واستباحة حريمهم ، وقد يكون فى ذلك القضاء عليهم ، وكفى بذلك خسراناً مبينا .

إلا أن فى الجهاد الظفر بالغنائم والفرح بالاستيلاء على بلاد العدو وحفظ بيضة الإسلام وترغيب الناس فى الدخول فيه وإعلاء كلمة الحق والثواب فى الآخرة ومرضاة الله ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾(١) .

﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، أى إذا تصورتم قصور علمكم وكمال علم ربكم ، علمتم أنه تعالى لا يأمر إلا بما فيه الخير والمصلحة لكم ، فعليكم أن تمتثلوا وإن كرهت نفوسكم ، فاشتغلوا بطاعة الله ولا تلتفتوا إلى مقتضى طباعكم وما تهواه قلوبكم .

وقال بعض المفسرين : المراد بذلك أن المسلمين رأوا أنفسهم فئة قليلة حملت هذا الدين واهتدت به ، فخافوا أن يقاوموا المشركين بالقوة فيهلكوا ويضيع الحق الذى هدوا إليه وكلفوا إقامته والدعوة إليه ، فأبان لهم سبحانه أن سنته قد جرت بأن ينصر الحق وحزبه على الباطل وأهله ، فاستمسكوا به وادعوا إليه ودافعوا عنه ، وإن القعود عن المدافعة ضعف فى الحق يغرى به أعداءه ويطمعهم بالتنكيل بحزبه والتأليب عليه للإيقاع به .

وقد سبق فى علم الله أنه لابد أن يظهر دينه وينصر أهله على قلتهم ويخذل أهل الباطل على كثرتهم كما قال : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾(٣) ، وقد علم الله هذا ، فأنتم لا تعلمون ما خبأ لكم فى غيبه وستجدون صدق هذا فى امتثال أمره والعمل بما يرشدكم إليه فى كتابه .

وبعد أن ذكر أن القتال كتب على هذه الأمة ، بيّن مسألة سألوا عنها ، وهى القتال فى الشهر الحرام ، فقال : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ ، أى يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام إذ اختلج فى صدورهم أن الأمر به فى غير الشهر الحرام والمسجد الحرام ، فسألوا النبى ﷺ : أيحل لهم القتال فى هذا

(١) سورة الحج آية : ٣٩ .
(٢) سورة التوبة آية : ٧٣ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

الزمان وهذا المكان أم لا ؟ ويؤيده ما روى أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش ، وهو ابن عمته ، فى ثمانية من المهاجرين فى جمادى الآخرة قبل وقعة بدر بشهرين ، ليترصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه ، فقتلوه وأسروا اثنين ، واستاقوا العير وفيها تجارة من تجارة الطائف ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة ، فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام ، وهو الشهر الذى يأمن فيه الخائف ويسعى الناس فيه إلى معايشهم .

ولما قدموا على رسـول الله ﷺ قال لهم : والله مـا أمرتكم بقتـال فى الشهر الحرام ، ووقف العير والأسيرين ولم يأخذ منها شيئاً ولما قال لهم رسول الله ﷺ ذلك : ندموا على ما فعلوا وظنوا أن قد هلكوا فنزلت الآية ، فأخذ النبى ﷺ العير وعزل منها الخمس وقسم الباقى بين أصحاب السرية وفدى الأسيرين[1] .

﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ ، أى إن أى قتال فيه ، وإن كـان صغيراً فى نفسـه أو كبيرا ، مستنكـر ، الوقوع ، لعظم حرمته ، وأن ما فعله عبد الله بن جحش وما يفعله المسلمون فيما بعد من القتال فيه مبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، إذا لم يكن من أحدهمابد ، فالقتال فى نفسه أمر كبير وجرم عظيم ، ولكنه ارتكب لإزالة ما هو أعظم منه ، وذلك ما ذكره تعالى بقوله : ﴿ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ . أى إن منع المشركين للمؤمنين عن الطريق الذى يوصل إلى الله تعالى ، وهو الاسلام ، باضطهادهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم بقتالهم من يسلم تارة وإيذائه فى نفسه وأهله وماله ومنعـه من الهجرة إلى النبى ﷺ تـارة أخرى ، ومنعهم المسلمـين عن المسجد الحـرام فى الحج والعمـرة وإخراجهم أهله منه ، وهم النبى ﷺ والمهاجرون ، وكفرهم بالله تعالى ــ كل جريمة من هذه الجرائم التى يرتكبها المشركون أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام . فما بالك بها وقد اجتمعت معاً ؟

ثم ذكر عز اسمه السبب الذى من أجله شرع القتال وهى فتنة المؤمنين عن دينهم فقال ؛ ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ ، أى فتنة المسلمين فى دينهم بإلقاء الشبهات فى قلوبهم أو بتعذيبهم كما فعلوا بعمار بن ياسر وبلال وخباب بن الأرت وغيرهم ، فقد عذبوا عماراً بالكى بالنار ليرجع عن دينه ، وعذب أبوه وأمه ، فمر بهم النبى ﷺ فقال : (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[2] ومات ياسر من العذاب ، وطعنت أمه بحربة فى موضع عفتها فماتت . وكان أمية بن خلف يعذب بلالاً بالجوع والعطش ليلة ويوماً ، ثم يطرحه على ظهره فى الرمضاء (الرمل المحمى بحرارة الشمس) ويضع على ظهره صخرة عظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيأبى بلال ، وتهون عليه نفسه فى سبيل الحفاظ على دينه .

وما امتنع منهم إلا من له عصبة من قومه ، على أنه لم يسلم من أذاهم ذوو العصبيات ، فقد آذوا رسول الله ﷺ فوضعوا سلا الجزور (الكرش المملوءة بالفرث) على ظهره وهو يصلى حتى نحته عنه فاطمة رضى الله عنهـا ، وتعرضـوا له بضـروب أخرى من الإيـذاء وقاه الله شرهـا ، كـما قـال تعـالى : ﴿ إنـا كفينـاك المستهزئين ﴾[3] .

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ بتصرف ط الشعب

(٢) سبل الهدى والرشا فى سيرة خير العباد للصالحى جـ ٢ ص ٤٨٢ تحقيق مصطفى محمد ط ١ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(٣) سورة الحجر اية : ٩٥ .

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة وكثر عددهم صاروا يقاتلونهم فى مهجرهم لفتنتهم فى الدين إن استطاعوا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ ، أى إن هؤلاء لا هم لهم إلا منع الإسلام عن الانتشار فى الأرض لاستحكام عداوتهم وحرصهم على فتنتكم ، فانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة طمع فى غير مطمع ، والقتال فى الشهر الحرام أهون من الفتنة ـ عن الإسلام إذا كان وحده ، فكيف إذا اقترن به غيره من الآثام كالصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام والكفر بالله والاعتداء بالقتال ؟ .

وفى قوله : ﴿ **إن استطاعوا** ﴾استبعاد لاستطاعتهم وشك فى حصولها وتنبيه إلى سخف عقولهم وكون فعلهم هذا عبثاً لا يوصل إلى غرض ، لأن من عرف الإسلام معرفة صحيحة لا يرجع عنه إلى الكفر . وهكذا حال الكافرين فى كل عصر ومصر ، يقاتلوننا ليردونا عن ديننا إن استطاعوا .

ثم بينت الآية عاقبة من يتأثر بهذه الفتنة فيرتد عن دينه فقال : ﴿**ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ؛ أى ومن يرجع منكم عن الإسلام إلى الكفر ويمت على هذه الحال ، بطلت أعماله ، حتى كأنه لم يعمل صالحاً قط ، لأن قلبه قد أظلم ، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية ، ويخسر الدنيا والآخرة . أما خسارة الدنيا فلما يفوته من فوائد الإسلام العاجلة ، إذ يقتل عند الظفر به ، ولا يستحق موالاة المسلمين ولا نصرتهم ، وتبين منه زوجته ، ويحرم الميراث ؛ وأما خسارة الآخرة فيكفى بيانها فى قوله : ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

والردة تارة تحصل بالقول ، كإنكار شىء مما علم من الدين قطعا ، وأخرى بالفعل الذى يوجب استهزاء صريحا بالدين ، كالسجود للشمس والصنم والاستهانة بالمصحف ونحو ذلك . وظاهر الآية يدل على أن الردة لا تحبط العمل حتى يموت صاحبها على الكفر ، وبه أخذ الشافعى ، ورأى أبو حنيفة أن الردة تحبط العمل حتى ولو رجع صاحبها إلى الإسلام تمسكاً بعموم قوله تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾[1] ، وقوله : ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾[2] .

ولما ذكر حال المشركين وحكم المرتدين بيّن جزاء المؤمنين المهاجرين والمجاهدين فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله** ﴾ ، أى إن المؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم والذين هاجروا مع رسول الله ﷺ أو هاجروا إليه للقيام بنصرة الدين وإعلاء كلمة الله ، والذين بذلوا جهدهم فى مقاومة الكفار وتقوية المؤمنين ، هم الذين يرجون رحمة الله وإحسانه ، وهم جديرون بأن يعطوا ذلك ، لأنهم استنفدوا ما فى وسعهم وبذلوا غاية جهدهم ولم يدخروا وسيلة فيها مرضاة لربهم إلا فعلوها ، فحق لهم أن ينالوا الفوز والفلاح والسعادة .

---

(١) سورة الأنعام آية : ٨٨ .
(٢) سورة المائدة آية : ٥ .

وقد هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة فراراً بنفسه وقومه من أذى قريش وفتنتهم فى دينهم بعد أن عاهده أهل المدينة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ، وتبعه المؤمنون فى هجرته ليعتز الاسلام بأهله ويقدروا على الدفاع عن أنفسهم إذا هم اجتمعوا واستمروا على ذلك ، حتى فتح مكة ، وخذل الله المشركين وجعل كلمتهم السفلى وكلمة الله هى العليا .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ ، أى والله واسع المغفرة للتائبين المستغفرين ، عظيم الرحمة بالمؤمنين ، يحقق لهم رجاءهم إن شاء بعميم فضله وعظيم طوله . قال قتادة : هؤلاء خيار هذه الأمة ، قد جعلهم الله أهل رجاء ، ومن رجا طلب ، ومن خاف هرب .

الخمر والميسـر ومسائل أخرى

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

المفردات : ﴿ الخمر ﴾ مأخوذ من خمر الشىء إذا ستره وغطاه سميت بها لأنها تستر العقل وتغطيه .

﴿ الميسر ﴾ : القمار من اليسر ، وهو السهولة ، لأنه كسب بلا مشقة ولا كد . والإثم : الذنب ، ولا ذنب إلا فيما كان ضالاً من قول أو فعل ، والضرر يكون فى البدن والنفس والعقل والمال ، والعفو : الفضل والزيادة على الحاجة .

والعنت : المشقة وما يصعب احتماله ، يقال عنت العظم عنتا إذا أصابه وهن أو كسر بعد جبر .

جاءت هذه الآيات فى سلك الأحكام الشرعية التى تتعلق بالسلوك ؛ ففى سابقتها سألوا عن القتال فى الشهر الحرام ، فجاءت الإجابة الربانية ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ وفى هذه الآية يسألون عن الخمر والميسر ، فجاءت الإجابة الربانية : ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فنزلت الآية ، فقال الناس : ماحُرِّم علينا ، إنما قال : إثم كبير . وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم صلى رجل من المهاجرين وأمّ الناس فى المغرب فخلط فى قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ

منها : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[١] . ثم نزلت آية أغلظ من ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ﴾ إلى قوله : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾[٢] ، قالوا : انتهينا ربّنا .

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يعالج مسألة الخمر علاجا رتيبا وحكيما ؛ فكان كالنسيم الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

ولننصت الآن إلى ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية التى فى البقرة ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾ ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التى فى النساء ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التى فى المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ ﴿ فهل أنتم منتهون ؟ ﴾ قال عمر انتهينا انتهينا[٣] وبين أيدينا ثلاث آيات نزلت فى مسألة الخمر ، وكل آية منها تفيد التحريم لمن تأمل معناها ، فآية البقرة : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ ذكر فيها مولانا جلّت قدرته أن فيهما الإثم الكبير . وما دام الإثم كبيراً فإن هذا يعتبر أصلا من أصول تحريم المحكوم عليه ، فإذا ما انتقلنا إلى آية النساء ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[٤] رأيناها أيضا تفيد تحريم الخمر ، ذلك لأن أوقات الصلاة متقاربة . والسكر يطول بصاحبه ، فتأتيه الصلاة عقب الصلاة وهو ما زال سكران تعبث الخمر بعقله ، فكيف يجتنب ما نهى الله فى قوله : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ ؟ فالآية فى حقيقتها تفيد النهى عن شرب الخمر ، لأنها تؤدى إلى السكر ، والسكر قد يطول ، وأوقات الصلاة متقاربة فإذا ما انتقلنا إلى آية المائدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[٥] ، علمنا أن الآية غنية كل الغنى فى بيان التحريم . ولأول وهلة يدرك قارئها أن فى قوله تعالى ﴿ فاجتنبوه ﴾ ما يفيد التحريم البعيد المدى ، أى خذوا جانبا غير الجانب الذى فيه الخمر . فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر . ومن ثم فقد جاء الأمر بالاجتناب فى أكبر الذنوب والآثام ، بل جاء التعبير به فى ذنب لا يغفره الله ، وهو الشرك ، قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[٦] ، وقال تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾[٧] أبعد هذا يقول غافل عن ذكر الله أو جاهل بأحكام الله أو مجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، أو مكابر عن قبول الحق ، يقول : إن تحريم الخمر لم

(١) سورة النساء آية : ٤٣ .
(٢) سورة المائدة الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٧٠ ، ١٧١ ط الشعب.
(٤) سورة النساء آية : ٤٣ .
(٥) سورة المائدة آية : ٩٠ .
(٦) سورة الحج الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .
(٧) سورة النجم آية : ٣٢ .

يجيء صريحا فى القرآن . وأى حرمة أكبر من التعبير بـ ﴿ اجتنبوه ﴾ ؟ لكأنى أتصور أن هذا الأمر يفيد حرمة المشى أمام خمارة ، لأن الاجتناب يفيد أخذ جانب غير الجانب الذى فيه الخمر ؛ فمن أراد التصريح بالحرمة فليعلم أن الله حكم على الخمر بأنها رجس ، كما فى آية المائدة ، وحكم على الرجس بأنه حرام كما جاء ذلك فى سورة الأنعام فى قوله جلَّ شأنه :

﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلىَّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ﴾[(١)] . فأنت ترى هنا أن الله تعالى حكم على الرجس بأنه حرام بصريح العبارة ، والخمر رجس . إذن هى بصريح العبارة حرام . وهل غفل هؤلاء المجادلون المكابرون عما جاء فى أحاديث الرسول ﷺ من النصوص الصحيحة فى تحريم الخمر كقوله : (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام)[(٢)] .

(وعن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : (الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر ـ ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته)[(٣)] .

(وعن أنس أن رسول الله ﷺ لعن فى الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وبائعها وآكل ثمنها ، والمشترى لها والمشترى له)[(٤)] .

(عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[(٥)] .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (إن الله حرَّم الخمر وثمنها وحرَّم الميتة وثمنها وحرم الخنزير وثمنه) .

وعن عثمان بن عفَّان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اجتنبوا أم الخبائث ، فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة فأرسلت إليه خادما فقالت له : إنا ندعوك لشهادة فدخل فطفقت كلما يدخل بابا أغلقته دونه حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة وعندها غلام وباطية فيها خمر ، فقالت : إنا لم ندعك لشهادة ولكن دعوتك لقتل هذا الغلام أو تقع علىَّ أو تشرب كأسا من الخمر ، فإن أبيت صحت بك وفضحتك . قال : فلما رأى أن لا بد له من ذلك قال : اسقينى كأسا من الخمر ، فسقته كأسا من الخمر فقال : زيدينى ، فلم تزل حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان الخمر فى صدر رجل أبدا وليوشكن أحدهما يخرج صاحبه[(٧)] .

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٤٥ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٦ ط دار الفكر .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٦٣٧ ط دار الفكر .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى ص ٢ جـ ٤٠٥ ط دار الفكر .
(٥) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٠ ط الشعب .
(١) رواه أبو داود فى سننه فى باب الأشربة ج ٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٨٠ ط الشعب .

ما الخمر ؟

قال الإمام الشافعى : كلمة الخمر يقصد بها كل شرب مسكر . وساق على ذلك الحجج الآتية :

(١) أن الصحابة ، وهم صميمو العرب ، فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر ، ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره .

(٢) ما رواه أبو داود والترمذى من قوله (ﷺ) : (كل مسكر خمر[١]) .

(٣) ما رواه النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : (إن من العنب خمـرا ، وإن من التمر خمرا ، وإن من العسل خمرا ، وإن من البُر خمرا ، وإن من الشعير خمرا) .

(٤) ما أخرجه البخارى عن أنس قال : حُرمت الخمر حين حرمت ، وما يتخذ من خمر الأعناب إلا القليل ، وعامة خمرنا من البر والتمر[٢] .

قال بعض العلماء : وقد جرى ذكر هذه الأشياء لكونها معهودة فى ذلك العصر ، فكل ما فى معناها من ذرة أو عصارة شجر أو تفاح أو بصل أو نحـو ذلك ممـا يستخرج منـه الخمر الآن ، فحكمـه حكم هذه الأصناف .

وكما أن الخمر محرمة فى الإسلام فهى محرمة فى المسيحية كذلك وقد استفتت جماعة منع المسكرات رؤساء الديانة المسيحية بالوجه القبلى بجمهورية مصر فأفتوا بما خلاصته : أن الكتب الإلهية جميعها قضت على الإنسان أن يبتعد عن المسكرات ، كذلك استـدل رئيس كنيسة السـوريين الأرثـوذكس على تحـريم المسكرات بنصوص الكتاب المقدس . ثم قال : « وخلاصة القول : أن المسكرات إجمالا محرمة فى كل كتاب سواء أكانت من العنب أم من سائر المواد كالشعير والتمر والعسل والتفاح وغيرها »[٣] .

ومن شواهد العهد الجديد فى ذلك قول بولس فى رسالته إلى أهل إفسس (٥ : ٨) : « ولا تسكروا بالخمر الذى فيه الخلاعة » ونهيه عن مخالطة السِّكِّير ﴿ إكوة !! ﴾ وجزمه بأن السكيرين لا يرثون ملكوت السموات ﴿ غلاه : ٢١ ﴾ ﴿ إكوة ٦ : ٩ : ١٠ ﴾ .

ما أضرارها ؟

جاء فى كتاب « الغذاء والدواء فى القرآن الكريم » وفى كتاب القرآن والطب : إن ضررها على أجزاء الجسم وأعضائه كبير ووخيم ، يتمثل فى الحقائق العلمية الآتية :

١ ـ التأثير على الجهاز الهضمى

تهيج الخمر الغشاء المخاطى للمعدة ، وتغير طبيعة العصير المعدى وتذكر كتب علم المادة الطبية فى تأثير الكحول على المعدة : أن الكحول لا يسبب إفراز العصارات المعوية النشطة الفعالة ، ولكنه يساعد على إفراز

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٦ ط دار الفكر. -(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ١ ص ٤٠ .
(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧٣ ط الشعب .

كمية أكبر قليلا من الحامض لا غير ، ويشل الإفراز المعدى ، ويحدث ضمورا فى الغدد المعدية ، والخمر تؤثر على الزلاليات فى المعدة (كاللحوم) فيجمدها ، وكذلك يفعل مع البيسين فى العصارة المعدية . وتنصح كتب علم المادة الطبية ، بل تأمر ، بعدم استعمال الخمر فى حالات التهاب المعدة . والخمر بجانب ذلك يبلغ تأثيرها إلى مدى يجف معه الفم ، وتعوق إفراز اللعاب . وهكذا نرى كيف تحدث الخمر سوء الهضم ، وتسبب القىء والتهوع ، وتصيب المعدة بالتمدد وتغير طعم الفم إلى غير ذلك من المضار .

٢ ـ التأثير على الجهاز الدورى الدموى والتنفسى :

يظن كثير من الجهلاء أن الدليل على فائدة الخمر للصحة ما يشاهدونه من تورد خدود شاربى الخمر واحمرارها وامتلائها بالدم !! ألا فليعلم هؤلاء أن احتقان وجوههم ما هو إلا مرض وحادث غير طبيعى فى بدنهم ، لأن الخمر تحدث تمدداً كبيرا فى الأوعية الدموية التى على سطح الجسم فيندفع إليها الدم ، ويقل الدم الموجود فى الأوعية التى فى الداخل بانكماشها ، وهكذا تختل الدورة الدموية كما تسبب الخمر ارتفاعا فى ضغط الدم وسرعة فى النبض وفى ضربات القلب . ويضعف القلب نتيجة لتوالى تأثير الخمر عليه وعلى الضغط الدموى الذى يرتفع ثم يهبط . كما تحدث فى الجهاز التنفسى تأثيرات وأعراض عديدة ، من بينها الالتهابات الشديدة المتواصلة فى القصبة الهوائية والرئتين ، مما يسبب ضعفها واحتمال تعرضها للأمراض الصدرية . وقد يسبب الكحول تسكين آلام الذبحة الصدرية ، ولكن هذا التأثير المسكن راجع إلى تخدير مركزى وليس إلى توسيع الأوعية .

٣ ـ التأثير على الكلى :

يتبع تناول الخمر إفراز كمية كبيرة من البول شديد الحموضة ، ويرجع ذلك إلى تثبيط الأعصاب المركزية وليس إلى تأثيرها على الكلى ، ولذلك لا يعتبر مدراً للبول ، وإذا زادت الكمية يكثر إفراز الماء من الكلى بينما يقل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم ، ويرجع ذلك إلى إضعاف إفرازات الغدة الكظرية . إن تناول الخمر لما فيها من الكحول يزيد فى إفراز كمية البول وزيادة حجمه . إلا أنه يكون شديد الحموضة قليل الملوحة ، فهو يزيد فى إفراز الماء فى البول ويقلل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم ، حيث إنه يقلل من افرازات الكظره (الغدة فوق العكوة) التى تعمل إفرازاتها على تنظيم وتنسيق إفراز الأملاح فى البول .

٤ ـ التأثير على الكبد :

تسبب الخمر تأثيراً ساما مباشراً على الكبد ، وقد يحدث التأثير السام فى غضون أربع ساعات من تعاطيها وتهبط كمية الجليكوجين فى الكبد ، وتزيد الدهنيات ، وتهبط كفاءة تمثيل الجلاكتوز ، مما يدل على فساد فى وظائف الكبد ويعقب ذلك تضخمه وتشحمه وقلة إفرازه ، ثم تليف الكبد وعدم مقدرته على القيام بوظائفه الحيوية .

٥ ـ التأثير على الجهاز العصبى المركزى

من أخطر مضار الخمر سواء ما كان منها كحوليا أو مخدرا ، كالأفيون والحشيش ، أنها تؤثر على الجهاز

العصبى وتضعف مراكز المخ العليا الراقية التى تميز الإنسان عن الحيوان . وأما الشعـور الكاذب بـالمرح والسعادة الذى يحدث لشارب الخمر ، فهو شعور كاذب عارض حيث لا يلبث الحال أن ينعكس فيحدث الخمول فى هذه الأعصاب وينتهى الأمر بتخديرها وتعطيل عملها ، ومن ثم تفسد أجهزة الجسم فتصاب المعدة بالآلام والقرحات وتضعف خلايا الكبد والكلى ، وتؤدى إلى أمراض الكبد والكلى وتليفها ، ويحدث التهاب الأعصاب وتتدهور القوة العقلية ويضطرب الإحساس وقد يعقبه الموت .

والخمر تبعد شاربها عن كل القيم الإنسانية التى يجب أن يتحلى بها الإنسان ، وللخمر آثار وبيلة على المجتمع : فمنها مثلا الضعف البدنى والفساد الخلقى وكثرة الاصابة بالأمراض ، خاصة الأمراض العصبية والعيوب الخلقية وتدفع إلى الإجرام ، كما أن لها أثراً سيئا فى العلاقات العائلية ، لأن الزوج السكير زوج غير صالح وأب غير سليم ، فيرث نسله منه غيه وضعفه ووهنه ، وقد وجد أن كثيرا من حوادث المرور سببها شرب الخمر .

كما أن الانحرافات النفسية والاضطرابات العقلية وفقد القدرة على العمل والتعرض لـلالتهابـات الرئوية ، وكذلك ما تؤدى إليه الخمر من جمود العاطفة ، وعدم التبصر فى العواقب ، ومن الإحصائيات وجد أن ١٧٪ من المحكوم عليهم بالإعدام كان إجرامهم من الخمر و ٤٩٪ من حوادث السرقات و١٥٪ من المشاحنات والعراك سببها الخمر .

ما حد شارب الخمر ؟

الفقهاء متفقون على وجوب حد شارب الخمر ، وعلى أن حده الجلد ، ولكنهم مختلفون فى مقداره : فذهب الأحناف ومالك إلى أنه ثمانون جلدة ، وذهب الشافعى إلى أنه أربعون . روى أن عمر استشار الناس فى حد الخمر ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف « جعله كأخف الحدود ثمانين » ، فضرب عمر ثمانين ؛ وكتب به إلى خالد وأبى عبيدة بالشام .

بم يثبت الحد ؟

يثبت هذا الحد بأحد أمرين :

١ - الإقرار : أى اعتراف الشارب بأنه شرب الخمر

٢ - شهادة شاهدين عدلين .

شروط إقامة الحد :

يشترط فى إقامة حد الخمر الشروط الآتية :

١ - العقل : لأنه مناط التكليف ، فلا يحد المجنون بشرب الخمر ويلحق به المعتوه .

٢ - البلوغ : فإذا شرب الصبى فإنه لا يقام عليه الحد لأنه غير مكلف .

٣ - الاختيار : فإن شربها مكرها فلا حد عليه ، سواء أكان هذا الإكراه بالتهديد بالقتل ، أم بالضرب المبرح أم بإتلاف المال كله ، لأن الإكراه يرفع عنه الإثم . يقول الرسول ﷺ : (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه)(١) ، وإذا كان الإثم مرفوعا فلا حد عليه لأن الحد من أجل الإثم والمعصية .

تحريم الميسر :

وكما حرم الله تعالى الخمر حرم الميسر ، لأنه ضرب من ضروب أكل أموال الناس بالباطل ، وفيه وفى الخمر مجال فسيح لإيقاع العداوة والبغضاء كما فيه صد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وإنما سمى ميسرا لأنه يؤدى إلى الحصول على المال بيسر ودون عناء . وقد تختلف أدواته فقد يكون بالمراهنات ، كما يكون بلعب الورق والنرد « أى الطاولة » وغير ذلك من الألوان التى اخترعها إخوان الشياطين فى سبيل أن يملأوا جيوبهم مالا ، وهم بذلك غافلون عن قوله تعالى : ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾(٢) . وإذا كان فى الخمر والميسر بعض المنافع عن طريق الحصول على المال ، فإن الله تعالى لما حرمهما نزع المنافع منهما ، فلا خير فى شىء يلهى عن ذكـر الله ؛ حتى التداوى بالخمر ، قال عنه النبى ﷺ : (ما جعل الله شفاء أمتى فيما حرم عليها)(٣) . فدخل الخمر من البيع والشراء ودخل الميسر ، كذلك حرام ، والحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع . قال ﷺ (إذا أراد الله بقوم قحطا نادى مناد من قبل الله : ياأمعاء اتسعى يابركة ارتفعى ياعين لا تشبعى)(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ . المقصود بالعفو مازاد عن حـاجة المـالك ، والحاجة تقدر حسب كل شخص وتختلف باختلاف أحوال العباد ، ففى المال زكاة واجبة وفيه صـدقات تطوع . أما إذا جاع أحد المسلمين فلا مال لأحد . وأيما أهل محلة باتوا وفيهم جائع برئت منهم ذمة الله . . قال ﷺ (ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم)(٥) .

إن التكافل الاجتماعى فى الإسلام تشريع ربـانى شاف كـاف واف : (مثل المؤمـنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر)(٦) بل إن الله تعالى سيسأل العبد يوم القيامة عن ثلاثة أشياء : يقول له : عبدى : مرضت فلم تعدنى ، فيقول العبد : وكيف أعودك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول الله مرض عبدى فلان فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ : عبدى . استطعمتك فلم تطعمنى ، فيقول العبد : وكيف أطعمك وأنت الله رب العالمين ؟ . فيقول : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ عبدى : استسقيتك فلم تسقنى ، فيقول العبد : وكيف أسقيك وأنت الله ؟ فيقول الله تعالى : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته ، لوجدت ذلك عندى(٧) ؟

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ١٩ ط الشعب .
(٢) سورة المائدة آية : ١٠٠ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى .
(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٣ ص ٢٨٣
(٦) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٥٣٢ ط الشعب
(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٤ ص ١٩٠

فما أعظم الإسلام فى رحمته ، وما أجله فى تكافله . والله لو حكمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو طبقنا شريعته لرفرفت راية الإسلام فى كل بلد . ولو عملنا بمنهج الإسلام ما رأيت فى الطريق سائلا ولا فى البيوت عاطلا ولا فى السجون قاتلا . إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى . عبدى أنفق أنفق عليك . الأغنياء وكلائى والفقراء عيالى فإذا بخل وكلائى على عيالى أخذتهم ولا أبالى . . . ولو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مغبون ولا مهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو نور الصبح مداد الظلام . فيا أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء وامسحوا دموع الأشقياء ، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

قوله تعالى :- ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ﴾ . المقصود بالآيات هنا الأحكام الشرعية والتفكير هو إعمال النظر فى جزئيات الأمور للوصول بها إلى القضايا الكلية . والإسلام جعل من الدنيا مزرعة للآخرة ، وقد شملت أحكامه الدارين ، وقد بعث النبى ﷺ بأصول العقائد ، فوحد العقائد ولم يفرق القواعد ، وجاء بشرع هو للشعوب البدائية كالوالد الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ؛ جاء بكتاب كالشمس فى ضحاها ، وبسنة كالقمر إذا تلاها ؛ فمن عمل بهما سار فى ضوء النهار إذا جلاها ، ومن أعرض عنهما تخبط فى ظلمات الليل إذا يغشاها . لقد أكمل الله دينه وأتم نعمته ورضى لنا الإسلام دينا ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾[1] . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ . اليتيم هو الصغير الذى مات أبوه دون أن يبلغ الحلم ، وخير البيوت عند الله بيت فيه يتيم يكرم . وقد أشار النبى ﷺ بإصبعين قائلا : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة) [3] . وقد جاء أول حكم فى سورة النساء ، بعد الأمر بتقوى الله ، متعلقا باليتامى ، قال تعالى : ﴿ وآتو اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ﴾[4] . والإصلاح لليتامى يكون بحسن تربيتهم والرعاية لأموالهم وصيانة حقوقهم ومراقبة الله فيما يتعلق بشئونهم . وقد كانوا فى الجاهلية يتأذون من مخالطة اليتامى ومؤاكلتهم ، أنفة وحمية ، فرغبهم الله فى مخالطتهم وحسن الإرعاء لهم ، فقال : ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ ، والأخوة فى الله أقوى من أخوة النسب والدم ، قال تعالى : ﴿ فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[5] وقال جل شأنه : ﴿ إنما المؤمنون إخوة[6] ﴾ ، ثم حذر من العبث بمال اليتامى فقال : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ ، ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[7] . فاحذروا عقاب الله ، وارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية حيث كلفكم من الأحكام مافيه صلاحكم وسعادتكم وعزكم . وأراد بكم اليسر ولم يرد بكم العسر ، ولو شاء الله بكم العنت والمشقة

(١) سورة الجن آية : ١٤
(٢) سورة آل عمران آية : ٨٥ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٤١٦ ط دار الفكر .
(٤) سورة النساء آية : ٢
(٥) سورة آل عمران آية : ١٠٣
(٦) سورة الحجرات آية : ١٠
(٧) سورة النور آية : ٦٣

لشدد عليكم فى الأحكام ، فإنه عزيز لا يُغلب ، وهو يجير ولا يجار عليه ، حكيم لا يعبث . بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف . معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية .

أحكام تتعلق بالزواج

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه الواحدى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من قبيلة غنى يقال له مرثد بن أبى مرثد ، وكان حليفاً لبنى هاشم ، إلى مكة ، ليخرج جماعة من المسلمين أسارى بها ، فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها عناق ، وكانت خليلة له فى الجاهلية ، فلما أسلم أعرض عنها ، فأتته وقالت : ويحك يامرثد ألا تخلو ؟ فقال لها : إن الإسلام قد حال بينى وبينك وحرمه علينا ، ولكن إن شئت تزوجتك ، فقالت : نعم . فقال : إذا رجعت إلى رسول الله ﷺ استأذنته فى ذلك ثم تزوجتك . فقالت له : وأبى ، تتبرم ؟ ثم استعانت عليه فضربوه ضربا وجيعا ثم خلوا سبيله ، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله ﷺ راجعاً وأعلمه الذى كان من أمره وأمر عناق وما لقى بسببها ، فقال يا رسول الله : أتحل لى أن أتزوجها ؟ فنزلت الآية[1] .

هذه الآيات وما بعدها بيّن الله فيها الأحكام التى تتعلق ببناء الأسرة . فقد عنى الإسلام عناية عظمى ببناء الأسرة عن طريق بناء الفرد ، فقد يكون من السهل بناء المصانع وإنشاء ناطحات السحاب ، ولكن بناء النفوس أهم وأجدى من إنشاء القلاع الصناعية ، لأن النفوس لو هدمت وهزمت من داخلها فلن تقوم فى الدنيا حضارة لقوم أظلمت نفوسهم وأجدبت من الخير فأمست لا غناء فيها . وكأن الإسلام ينادى بأعلى صوته على أهل الأرض ويقول لهم ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[2] .

فالنفس البشرية كالزجاجة ، إن لم يملأها شىء ملأها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، ومن ثم فقد كانت رسالات الأنبياء تركز على بناء النفوس ، ذلك لأن الإسلام يؤمن بالواحد ، فقد كان الصادق المعصوم ﷺ بين الناس رجلاً ، وكان بين الرجال بطلاً ، وكان بين الأبطال مثلاً ﴿إن إبراهيم كان أمةً ، قانتا لله حنيفا﴾[3]

قال تعالى : ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج﴾[4] . فهذا رجل واحد أشرق الحق فى قلبه ، فقال لموسى : ﴿إنى لك من الناصحين﴾[4] . وهذا

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٥١ ط الأنوار المحمدية .
(٢) سورة النساء آية : ١ .
(٣) سورة النحل آية : ١٢٠ .
(٤) سورة القصص آية : ٢٠ .

آخر يسمى مؤمن يس يقول فيه جل شأنه : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين﴾(١) ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾(٢) .

فهؤلاء رجال والرجال قليل ، فليست العبرة بالكثرة ، إنما العبرة بالرجولة ، وهى عملة نادرة . لقد وقف عمر رضى الله عنه يسأل أصحاب الرسول ماذا يتمنى كل منهم ؟ قال أحدهم : أتمنى ملء المدينة خيلا أغزو بها فى سبيل الله ، وقال آخر : وأنا أتمنى ملء المدينة عبيداً أعتقهم فى سبيل الله ، وقال ثالث : وأنا أتمنى مثل أحد ذهبا أنفقه ابتغاء مرضاة الله ، وتمنى آخر وآخر وآخر ، وفى النهاية سألوا عمر : فماذا تتمنى أنت ياأمير المؤمنين ؟ فماذا قال الفاروق المحدث الملهم الذى أجرى الله الحق على قلبه ولسانه ؟ لقد قال فضلاً ، وحكم عدلاً ، قال : وأنا أتمنى ملء هذا المسجد رجالاً أمثال أبى بكر . يرحمك الله ياأبا حفص ، لقد أصبت كبد الحقيقة .

يارافعاً راية الشورى وحارسها   جزاك ربك خيراً عن محبيها
رأى الجماعة لاتشقى البلاد به   رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

فى الوقت الذى ربى فيه الإسلام أبناءه على العقيدة الراسخة والمعنويات العالية والوازع الدينى وتربية الرقابة فى نفس المؤمن ، قامت الحضارة الغربية على التفسخ الأخلاقى والانحلال الاجتماعى وانكار شرائع الله ، حتى قال ماركس : إن الأخلاق قيد لامعنى له ، وقالت سيمون دى بفوار : إن الزواج مبدأ فاضح ، حتى وقف الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون واعترف بتلك الحقيقة فقال : إن الولايات المتحدة لا تعانى أزمة فى السلع إنما تعانى أزمة فى الروح ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع ولكننا فقراء فى الروح . فما أعظم نبى الإسلام وما أكرمه ، وما أحلمه وما أعقله حيث أوجز رسالته فى كلمات فقال : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وفى هذه الآية : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ حكم باختيار الزوجة المؤمنة ، ولو كانت أمة فهى عند الله خير من مشركة تعبد صنماً ، أو جاحدة تنكر خالق الوجود ؛ قال ﷺ : (لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى أن يطغيهن ، ولكن تزوجوهن لدينهن ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل)(٣) .

قال ﷺ : (الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة)(٤) . ثم يبين صلوات الله وسلامه عليه مواصفات تلك الزوجة فقال : (مااستفاد المؤمن بعد تقوى الله خير من زوجة صالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها أبرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى عرضها ومالك)(٥). ثم يقول : (إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها يوم القيامة أدخلى الجنة من أى أبوابها الثمانية شئت)(٦) .

---

(١) سورة ياسين آية : ٢٠ .
(٢) سورة غافر آية : ٢٨ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٤ ط وزارة الأوقاف .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١١١ ط دار الفكر .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : (فاظفر بذات الدين تربت يداك)[١] . وكان نبى الله داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام يقول : (اللهم إنى أسألك أربعاوأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدناً على البلاء صابرا ، وزوجة تعيننى على أمر دينى ودنياى ، وأعوذ بك من مال يكون وبالاً على ويتمتع به غيرى ، ومن ولد يكون علىّ سيِّدا ، ومن جار سوء إن لاقى منى خيراً كتمه وإن رأى منى شراً أذاعه ، ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب) وكما نهى الله المسلمين أن يتزوجوا المشركات فقد نهاهم سبحانه أن يزوجوا المسلمات للمشركين فقال : ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ ؛قال تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ولاهم يحلون لهن ﴾[٢] . وكما ذكر سبحـانه : ﴿ ولأمـة مؤمنة خير من مشركـة ولو أعجبتكم ﴾ قـال هنا : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ أى ولو أعجبكم منصبه أو جاهه أو حسبه أو ماله . ثم بين الخط الفاصل بين الإيمان والشرك فقال : ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ ؛ والحياة الزوجية إن بنيت على الإيمان أنبتت الأبناء نباتاً حسناً ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، فإن قامت على غير ذلك خبث نباتها . قال تعالى : ﴿ والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾[٣] . وقال سبحانه ﴿ أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ فكيف يسول الشيطان لنا أن نرجح العرض الفانى من الجمال والمال والحسب ونغفل عن حقيقة الإيمان والسمو الروحى ؟ ما من شك أن الفرق شاسع والفرق بعيد ، فشتان بين الثرى والثريا ، وهيهات هيهات بين السحاب والتراب ، ثم يمن سبحانه على عباده بما بين لهم من النعم فى الأحكام الشرعية فقال : ﴿ ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ ، فداء الإنسان النسيان ولو تذكر ما خاب سعيه ولا ضل سؤله ولا زلت قدماه .

وقبل أن ننتقل إلى آية المحيض ، نود هنا أن نذكر بعض الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية ، فقد جاء فى كتاب « ذخيرة الواعظ » للعالم الجليل الشيخ إبراهيم عبد الباقى تحت عنوان (السعادة الزوجية) :

نظم الله تعالى بالشريعة الإسلامية حياة الناس جميعاً ، وجعلها صالحة لمعاشهم ومعادهم إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، وحسبك قوله تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فـلا يضل ولا يشقى ﴾ إلى قـوله : ﴿ أشـد وأبقى ﴾ .

وإن تخلف المسلمين عن ركب الحضارة الزاحف لم يكن إلا من عدم تمسكهم بأمور دينهم وتقاعدهم عن العمل ، ولا أدل على ذلك مما يحدثنا به التاريخ من أن النهضة العلمية التى يفخر بها أبناء الجيل الحاضر قد وضع أساسها الإسلام بتعاليمه الرشيدة ، فكان شعار المسلمين فى العصور الأولى للإسلام . « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ، لهذا اتسعت أرضها وفُخم أمرها وهيب سلطانها ودان لها أعداؤ ها ، ولم يقم على أرض الله ملك فخم ، ولا سلطان أعظم منها ؛ هذا ولئن أصاب المسلمين نكسة فى الأيام الأخيرة ، فقد أخذوا الآن والحمد لله ، يردون اعتبارهم ويتداركون ما فاتهم . نعم لقد قامت فيهم

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٣ ط وزارة الأوقاف .
(٢) سورة الممتحنة آية : ١٠ .
(٣) سورة الأعراف آية : ٥٨

يقظة جديرة بالإعجاب ، فتخلصوا من ذل الاستعمار وصاروا أحراراً فى بلادهم كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، إلا بقية لا تكاد تذكر ، وعما قليل ستتحرر من ربقة الاحتلال .

فهل لهؤلاء الذين يفخرون بعلومهم أن يخبرونا عما أصاب الإنسانية من تدهور الأخلاق وانتشار الفساد وطغيان المادة وإهمال القيم الروحية والحروب القاهرة التى عمت الكرة الأرضية حتى صارت رجوماً من نار ؟

تعالوا بنا لنريكم حكم الشريعة الإسلامية فى الزواج ، لتعلموا علم اليقين أن الفوضى التى ترونها فى المحاكم وغيرها لم تكن إلا من الانحراف عن تعاليم الإسلام . ولنذكر قولا مجملا فيما يجب فى الزواج من تعاليمه . أمر الله بالزواج ليتعاون الاثنان فى تربية الأولاد ، وهذا ضرورى فى الأجناس البشرية ، لأن حضانة الأولاد تحتاج لمدة طويلة ومطالب عدة ، أما فى الحيوان ففصائله لا تحتاج إلا إلى أمها فى البدء لهذا استغنت عن أبيها بخلاف الأجناس البشرية .

فالزواج من أجل نعم الله على الإنسان فيه دنيا ودين ، وهو سكن للزوج وحرث له ، والزوجة أم أولاده ومهوى فؤاده وموضع سره وحرث له : قال رسول الله ﷺ : (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة : إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله)[1] رواه ابن ماجه عن أبى أمامة .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[2] رواه البخارى وغيره .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)[3] رواه مسلم وفى رواية : (إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شىء أفضل من المرأة الصالحة) .

أول الأعمال :

أول عمل يعمله الذى يرغب فى الزواج أن يستشير أقرب الناس إليه فيمن يخطبها ، وإن وافقوا يرسل امرأة أمينة لتتعرف على حالتها لعل فيها عيباً يكون مستتراً ، ثم بعد ذلك يسأل من يختلط بعشيرتها من جيران وأقارب عن أصلها وسلوكها ، ثم ينظرها بحضور محارمها : إلى الوجه والكفين فقط ، ثم بعد هذا يقدم الشبكة غير مغال فيها ، وهى من قبيل الهدايا التى قال الرسول ﷺ فيها : (تهادوا ، تحابوا)[4] وفاتنا أن نذكر قبل الشبكة الاستخارة ، وكيفيتها : « أن يصلى ركعتين من غير المكتوبة ثم يقول : اللهم إنى استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت

(١) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٠ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج١ ص ٥١٨ ط دار الفكر .

علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه) خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاقدره لى ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه) شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله » .

أما الذهاب إلى العرافين والمنجمين وضاربى الودع والرمل ليستكشفوا عندهم سر الزواج الخطير أفيه خير فيقدمون عليه أم ضر فيحجمون عنه ؛ فهذا دجل وتضليل ، وفى هذا يقول الأديب :

لعمرك ما تدرى الطوارق بـالحصى ولا زاجرات الطير مـا الله صانـع ؟

وهذا بعد قوله تعالى : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ : (الطيرة شرك . الطيرة شرك . الطيرة شـرك . وما منا الا وقد وقع فى قلبه شىء من ذلك ـ ولكن الله يذهبه بالتوكل)[2] .

فإذا ما انشرح صدره إلى الزواج يستأذن من ولى أمرها أن يرى كفيها ووجهها بحضرة محرم ، ويتفق على المهر المناسب من غير غلو فيه ، ولا فيما وراءه من شبكة وغيرها ، وكما لا يفوته أن يتفق مع أهلها أن تزف إليه ليفض بكارتها وحده بينه وبينها .

نتائج إهمال هذه الأمور :

[أولاً] : من الناس من يستبدل النظر إلى خطيبته بمعاشرتها مدة ، حتى يتعرف على سلوكها قبل زفافها إليه ، ولكن دلت التجارب أن هذه المخالطة تنتهى إلى فضائح تجلب عاراً للعائلة لا يمحى وتكسد سوق الزواج لها ، ولم ينج من هذه المأساة الخلقية إلا القليل ، وحسبنا فى ذلك ماترويه عناوين الصحف صباحاً ومساءً مما يندى له الجبين وتقشعر منه الأبدان .

[ثانياً] يتغالى بعض الناس فى الحجاب فلا يسمح للخطيب أن يرى خطيبته ، ويرى أن هذا من الدين ، وهذا جهل فادح ، إذ أن هذا النظر يكشف عما بينهما من خصائص روحية تارة تتفق وتارة تختلف ، وليس للجمال فيها أى مدخل . يوضح ذلك حديث رسول الله ﷺ : (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف)[3] رواه مسلم وغيره .

وقد أمر رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فقال له : (انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)[4] رواه النسائى وغيره . ومعنى يؤدم بينكما : تدوم المحبة بينكما ، ونتيجة عدم النظر تؤدى غالباً إلى الفشل والطلاق .

[ثالثاً] استبدال النظرة بالصورة الشمسية ، فإنها لا تحقق المعنى المقصـود ، لأن الصورة تخالف الأصل بكثير .

(١) سورة النمل آية : ٦٥
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٣ ط وزارة الأوقاف
(٣) نيل الأوطار للشوكانى جـ ٦ ص ٩٤ ط مصطفى البابى الحلبى
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٨٦ ط دار الفكر

[رابعاً] : التغالى فى المهر والجهاز . ولقد نجم عن ذلك أضرار جمة : منها إحجام الشباب عن الزواج مما كان سبباً فى فساد الشبان وبوار الفتيات ، ومنها الاستدانة ، فيبدأ الزوج حياتـه بالهم الـدائم والعذاب الواصب وتكليف ولى الأمر مالا طاقة له به ، فيظل أبو العروس يقاسى مضض الدين وآلامه ، ويكون معظم الجهاز قد فنى وتبدد .

علام هذا كله ؟ والرسول ﷺ يقول : (خير الصداق أيسره)(١) ، وقال أيضاً (إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة)(٢) . ويقول الله تعالى : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾(٣) .

وهذه الآية لا تدل على الغلوّ فى المهر ، لأن المقصود منها على فرض أن المهر قنطار لا يحل أخذ شىء منه ، وهذا مثل قول الرسول ﷺ : (من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها ، بنى الله له بيتاً فى الجنة)(٤) .

وبدهى أن مفحص القطاة : أى مكان البيضة ، لا يتصور أن يكون مسجداً .

[خامساً] : إزالة البكارة بالإصبع :

هذا الغشاء الرقيق يفضه الرجل وحده من غير عنتٍ ولا مشقة ، ولقد فشت هذه العادة فى الأرياف ، فتراهم يحضرون نساء جاهلات لهذا الغرض ، ويدخل الزوج بحالة تقشعر منها الابدان فيتملكها الخوف ويتمكن منها الرعب من شدة الصدمة . يرتكبون هذه الجريمة النكراء لا من أجل إزالة البكارة التى لا صعوبة فيها ولا مشقة ، ولكن ليحصلوا من وراء هذه على دم البكارة التى لبسها عليهم إبليس وأعوانه من شياطين الإنس فيظهروا بهذا الشرف المزعوم أمام أعدائهم ومن يتربصون بهم الدوائر ، وقد لا يجدون هذا الدم لكون البكارة غوراء أو لأنها زالت بسبب غير الوطء كمرض أو وثبة أو عترة ، فماذا تكون حال الزوجة المسكينة وحال أهلها ولا ذنب عليها ؟ وقد أثبتت التجارب أن البكارة تارة تكون فى زاوية من زوايا الرحم ، فلا تظهر حتى بعد الولادة ، اطلع على مؤلفنا (ارشاد الأمة) تجد الأدلة واضحة ، واسم الأطباء الشرعيين الذين أثبتوا ذلك ، منهم الدكتور محمد عمار أستاذ الطب الشرعى بكلية الطب بجامعة القاهرة . لهذا نجد بعض البلاد يصطحب فيها النساء دماً مستعارا وبعضهم يصطحب آلة حادة يشق بها عضو التناسل يسترون بذلك موقفهم . وأفضل علاج لهذه المأساة هو ما جاء به النبى ﷺ ، فهو البلسم الشافى والطب الواقى ، وذلك بترك الزوج لزوجته تأتنس به ويأتنس بهـا ، وتسكن إليه ويسكن إليهـا ، فتحصل المـودة وتصفو القلوب ، ثم تمر هذه العملية بسلام .

[سادساً] : بدع الولائم :

من البدع التى تنافى قوانين الاقتصاد وشريعة الله ، ما نراه من التبذير فى إعداد الولائم للأغنياء دون

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٦٢٠ ط دار الفكر
(٢) نيل الأوطار للشوكانى جـ ٦ ص ١٤٣ ط مصطفى البابى الحلبى
(٣) سورة النساء آية/ ٢٠
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٨٦ ط دار الفكر

الفقراء ، ولمن لا يحتاجون دون من يحتاجون ؛ وقد ذم الرسول ﷺ هذا الصنيع وعده من شر الأعمال . قال ﷺ : (شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليه الشبعان ويحبس عنه الجائع)[١] رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس ولو أحسنوا هداهم الله ـ لجعلوا ولائمهم عامة ، فشملت الكل ، وعمموا الدعوة ، ولكان خيراً لهم . ومما يزيد الطين بلة أن تقوم طائفة فتغنى بأغنيات يندى لها جبين الفضيلة وتأباها نفس الحر الكريم وتتبرأ منها العزة والكرامة . نعم لا مانع من اللهو البرىء والطربُ الممتع من ذوى صوت حسن أو إلقاء القصائد الفياضة بالمعانى السامية والتى تدعو إلى الأخلاق الفاضلة فلا شىء فيها ، بل هو من المباح فى الأعياد والأفراح والحرب ، وقد أذن فيه رسول الله ﷺ ورخص فيه .

حقوق الزوجة :

أولاً : الإنفاق عليها من غير إسراف ولا تقتير ، لقوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾[٢] .

ثانياً : الكسوة : لقوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾[٣] .

ثالثاً : السكن الشرعى : لقوله تعالى : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾[٤] .

رابعاً : العدل بين الزوجات إذا تعددت : فقد صح حديث رسول الله ﷺ : (من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل)[٥] . والعدل إنما يكون فى النفقة والمبيت وتوابعهما ؛ أما الحب فهو لا يملكه الإنسان كما قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[٦] ، الآية واردة فى الحب . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك)[٧] يعنى القلب ، فإن لم يستطع فواحدة .

خامساً : إرشادها إلى طريق الحق وإبعادها عن مواطن الشر لقوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾[٨] .

سادساً : معاشرتها بالمعروف : لقوله تعالى : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾[٩] .

وجاء فى خطبة الوداع أنه ﷺ قال : (الله الله فى النساء فإنهن عندكم عوان ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله) .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ١٦ ط دار الفكر .
(٢) سورة الطلاق آية : ٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .
(٤) سورة الطلاق آية : ٦ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٤٥ ط وزارة الأوقاف .
(٦) سورة النساء آية : ١٢٩ .
(٧) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٤٥ ط وزارة الأوقاف .
(٨) سورة التحريم آية : ٦ .
(٩) سورة البقرة آية : ٢٣١ .

وفى البخارى وغيره أنه ﷺ قال : (استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمة كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً)(١) .

وقال ﷺ : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى)(٢) .

وأجمع آية فى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾(٣) .

سابعاً : ومن حسن المعاشرة أن يكون باشًا فى وجهها ، فلا يقطب وجهه عند ملاقاتها ، بل يداعبها مداعبة لا تسقط هيبته عندها ، فإن ذلك أطيب لقلبها وأدعى إلى حبها وإخلاصها . قال عمر رضى الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون مع أهله مثل الصبى ، وما أحسن وصف أعرابيه لزوجها : كان ضحوكاً إذا ولج ، سكيتاً إذا خرج ، آكلاً ما وجد ، غير سائل عما فقد .

ثامناً : ألا يفشى سرها ، لقوله ﷺ : (إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه)(٤) رواه مسلم .

تاسعاً : الغيرة عليها ، حماية لها ، وحفظاً لكرامتها . والغيرة من علامات الإيمان ، ومن لا غيرة له لا إيمان له ، ومن الغيرة ألا يصرح بالخلوة معها لأجنبى وان كان أخاً له ، وألا تخرج من البيت لغير الضرورة ، قال على كرم الله وجهه : ألا تستحيون ألا تغارون ، يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها . وقالت فاطمة رضى الله عنها : خير للمرأة ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل .

عاشراً : تعليمها حقوق الزوجية والعفة والأمانة وتدبير المنزل والعقائد الدينية والعبادات والمعاملات .

حادى عشر : احتمال أذاها . فقد كانت أزواج الرسول ﷺ يراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن اليوم والليلة حتى صح أنه آلى منهن شهراً كاملاً .

حقوق الزوج :

أولاً : الولاية والرياسة : يؤدبها ويأخذ على يدها حتى لا تخالفه فى معروف ، قال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾(٥) وقال تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾(٦) والدرجة تقتضى الرياسة ، لأنها حياة اجتماعية ، وكل حياة اجتماعية تحتاج إلى رياسة ، والرجل أجدر بالرياسة ، لأنه أبعد نظراً من المرأة وأقوى إرادة منها وأعلم بالمصلحة وأملك لعواطفه وأقدر على التنفيذ بقوته وماله .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٣٦ ط وزارة الأوقاف.
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٣٥ ط وزارة الأوقاف.
(٣) سورة البقرة آية : ٢٢٨.
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٨٦ ط دار الفكر .
(٥) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٦) سورة البقرة آية : ٢٢٨ .

ثانياً : طاعة الزوج فيما يطلب مما لا معصية فيه ، ومن حقه ألا تخرج إلا بإذنه ، ومن حقه إذا أرادها ، ولو كانت على ظهر بعير أو أمام التنور لا تمنعه ، ومن حقه ألا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه إلا فى الأشياء اليسيرة فيجوز لها إذا غلب على ظنها إرضاؤه ، كذلك من حقه عليها ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه أما الفرض فتصومه ولو بغير رضائه .

ثالثاً : ألا تكلف زوجها ما لا يطيقه ، بل ينبغى لها إذا نزلت به نازلة تواسيه بمالها ، قال تعالى : ﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾(١) .

رابعاً : ألا تدخل أحداً يكرهه زوجها إلى بيته إلا بإذنه ، لقوله ﷺ : (ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً . فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذنّ فى بيوتكم لما تكرهون)(٢) .

خامساً : إظهار البشر له ، فتقابله فرحة مسرورة ملازمة لما يرضيه ، لقوله ﷺ : (خير النساء من إذا نظرت إليها سرّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك)(٣) .

سادساً : أن تصون نفسها وتستر عورتها ، لقوله تعالى : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾(٤) ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾(٦) . ودخلت أسماء رضى الله عنها على رسول الله ﷺ فى ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : (يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه)(٧) .

أعرابيه توصى ابنتها ليلة زفافها :

« أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة العاقل . أى بنية : إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقريب لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشرا : أما الأولى والثانية فاصحبيه بالقناعة وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، أما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن الجوع ملهبة وتنغيص العيش مغضبة . وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله وملاك الأمر حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصى له أمراً ولا تفشى له سراً ، فإنك إن خالفته أوغرت صدره ، وإن أنت أفشيت سره لم تأمنى غدره . ثم إياك والفرح

(١) سورة النساء آية : ٤ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٧ ط وزارة الأوقاف .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٦٢٣ ط ١ دار الفكر .
(٤) سورة الأحزاب آية : ٣٣ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٥٩ .
(٦) سورة النور آية : ٣١ .
(٧) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكى ج ٢ ص ١٠٤ طـ الرابعة .

بين يديه إن كان مهتما ، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً ، وكونى أشد الناس له إعظاماً يكن أشدهم لك إكراماً . وعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت .

وأخرج النسائى عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً قد خضب فاستعدى عليه أهل المرأة عمر ، قالوا حسبناه شاباً . فأوجعه عمر ضرباً وقال : غررت بالقوم .

وروى أيضاً أن بلالاً وصهيباً أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما : من أنتما ؟ فقال بلالٌ : أنا بلال وهذا أخى صهيب ، كنا ضالين فهدانا الله ، وكنا مملوكين فأعتقنا الله ، وكنا عائلين فأغنانا الله ؛ فإن تزوجونا فالحمد لله ، وان تردونا فسبحان الله . فقالوا : بل تزوجان والحمد لله . فقال صهيب لبلال : لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ . فقال : اسكت ، فقد صدقت فأنكحنا الصدق .

أحكام الحيض

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

المفردات : الحيض : لغة السيلان ، يقال حاض السبيل وفاض وشرعاً : دم ذو أوصاف خاصة يخرج من الرحم فى مدة مخصوصة استعداداً للحمل حين المعاشرة الزوجية إبقاء للنوع البشرى . والأذى : الضرر ، واعتزال النساء فى المحيض : ترك غشيانهن فى هذه المدة . والطهر : انقطاع دم الحيض . والتطهر : هو الاغتسال بالماء إن وجد ولم يمنع منه مانع ، أو التيمم خلفاً عنه عند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إن طهرت لأقل من عشرة أيام فلا تحل له إلا إذا اغتسلت ، أو مضى وقت الصلاة والدم منقطع ، وإن طهرت لأكثر مدته ، وهى العشرة ، حلت له ولو لم تغتسل . والحرث : موضع النبت ، أى الأرض التى تستنبت ، شبهت بها النساء لأنها منبت للولد كالأرض للنبات ﴿ أنى شئتم ﴾ أى كيف شئتم من قيام وقعود واضطجاع وإقبال وإدبار ، متى كان المأتى واحداً وهو موضع الحرث .

بعدما بيّن الله تعالى بعض الأحكام المتعلقة بالزواج بالآية السابقة ، ذكر فى هذه الآية أحكاماً أخرى تتعلق أحكاماً بالنساء ، وهو المحيض ، ويتعلق بعضها بالرجال فى المعاشرة الزوجية ، قال تعالى :

﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ ولم يقل ويسألونك عن الحيض ، لأن المحيض لفظ يشمل ثلاثة معان : يشمل الحيض ، ومكان نزوله ، وزمانه وقد أجاب الله تعالى على هذه المعانى الثلاثة فى الآية نفسها . أما عن الحيض فقال تعالى : ﴿ قل هو أذى ﴾ ، وأما عن مكانه فقال تعالى : ﴿ فاعتزلوا النساء فى المحيض ﴾ ، وأما عن زمانه فقال سبحانه : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ . وسوف نذكر هنا الأحكام المتعلقة بالحيض وما ذكره الفقهاء من هذه الأحكام . يقول الإمام أبو حنيفة : ان الحيض دم ينفضه رحم الأنثى البالغة التى لا داء بها ولا حبل ولم تبلغ سن اليأس ، ويحرم به وبدم النفاس : الصلاة والصيام وقراءة آيات من القرآن ومسها إلا بغلاف ، ودخول المسجد ، والطواف ، والجماع ، والاستمتاع إلى ما بين السرة ومنتهى الركبة .

ويقول الفقهاء : إن وقت الحيض لا يبدأ قبل بلوغ الأنثى تسع سنين ، فإذا رأت الدم قبل بلوغها هذه السن لا يكون دم حيض بل دم علة وفساد ، وقد يمتد إلى آخر العمر ، ولم يأت دليل على أن له غاية ينتهى إليها ، فمتى رأت العجوز المسنة الدم فهو حيض .

لونه : يشترط فى دم الحيض أن يكون على لون من ألوان الدم الآتية :

(أ) السواد : لحديث فاطمة بنت أبى حبيش أنها كانت تستحاض ، فقال لها النبى ﷺ : (إذا كان دم الحيض فإنه أسود يعرف ، فإذا كان كذلك فامسكى عن الصلاة ، فإذا كان الآخر فتوضئى وصلى فإنما هو عرق)[١] رواه أبو داود .

(ب) الحمرة : لأنها أصل الدم .

(جـ) الصفرة : وهى ماء تراه المرأة كالصديد يعلوه اصفرار .

(د) الكدرة : وهى التوسط بين لون البياض والسواد كالماء الوسخ ، لحديث علقمة بن أبى علقمة عن أمه مرجانة مولاة عائشة رضى الله عنها قالت : « كانت النساء يبعثن إلى عائشة بالدرجة فيها الكرسف (وعاء تضع المرأة فيه طيبها ومتاعها) فيه الصفرة ، فتقول : لا تعجلن حتى ترين القصة البيضاء » رواه مالك . إنما تكون الصفرة والكدرة حيضاً فى أيام الحيض ، وفى غيرها لا تعتبر حيضاً ، لحديث أم عطية رضى الله عنها قالت : كنا لا نعد الصفرة والكدرة بعد الطهر شيئاً .

(هـ) مدته : لا يتقدر أقل الحيض ولا أكثره ولم يأت فى تقدير مدته ما تقوم به الحجة ، ثم إن كانت لها عادة متقررة تعمل عليها ، لحديث أم سلمة رضى الله عنها : أنها استفتت رسول الله ﷺ فى امرأة تهراق الدم فقال : (لتنظر قدر الليالى والأيام التى كانت تحيضهن وقدرهن من الشهر ، فتدع الصلاة ثم لتغتسل ولتستثفر (أى تشد خرقة على فرجها) ثم تصلى[٢] رواه الخمسة إلا الترمذى ، وإن لم تكن لها عادة متقررة ترجع إلى القرائن المستفادة من الدم ، لحديث فاطمة بنت أبى حبيش المتقدم ، ومنه قول النبى ﷺ : (إذا كان دم الحيضة فإنه أسود يعرف) فدلَّ الحديث على أن دم الحيض متميز عن غيره معروف لدى النساء .

(١) نيل الأوطار للشوكانى جـ ١ ص ٢٣٦ ط الحلبى .
(٢) المصدر السابق .

(و) مدة الطهر بين الحيضتين : اتفق العلماء على أنه لا حد لأكثر الطهر المتخلل بين الحيضتين ، واختلفوا فى أقله ، فقدره بعضهم بخمسة عشر يوماً ، وذهب فريق منهم إلى أنه ثلاثة عشر ، والحق أنه لم يأت فى تقدير أقله دليل ينهض للاحتجاج به .

النفاس :

تعريفه : هو الدم الخارج من قبل المرأة بسبب الولادة ، وإن كان المولود سقطاً .

(مدته) لا حد لأقل النفاس ، فيتحقق بلحظة ، فإذا ولدت وانقطع دمها عقب الولادة ، أو ولدت بلا دم ، وانقضى نفاسها لزمها ما يلزم الطاهرات من الصلاة والصوم وغيرهما ، وأما أكثره فأربعون يوماً لحديث أم سلمة رضى الله عنها قالت : (كانت النفساء تجلس على عهد رسول الله ﷺ أربعين يوماً)[1] رواه الخمسة إلا النسائى ، وقال الترمذى بعد هذا الحديث : قد أجمع أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ والتابعين ومن بعدهم على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يوما إلا أن ترى الطهر قبل ذلك ، فإنها تغتسل وتصلى ، فإن رأت الدم بعد الأربعين فإن أكثر أهل العلم قالوا : لا تدع الصلاة بعد الأربعين .

ما يحرم على الحائض والنفساء :

تشترك الحائض والنفساء مع الجنب فى جميع ما تقدم مما يحرم على الجنب ، وفى أن كل واحد من هؤلاء الثلاث يقال له محدث حدثاً أكبر ، ويحرم على الحائض والنفساء ـ زيادة على ما تقدم ـ أمور

(١) الصوم : فلا يحل للحائض والنفساء أن تصوم ، فإن صامت لا ينعقد صيامها ووقع باطلاً ، ويجب عليها قضاء ما فاتها من أيام الحيض والنفاس فى شهر رمضان ، بخلاف ما فاتها من الصلاة ، فإنه لا يجب عليها قضاؤه دفعاً للمشقة ، فإن الصلاة يكثر تكرارها بخلاف الصوم ، لحديث أبى سعيد الخدرى قال : خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال : (يا معشر النساء تصدقن ، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ، فقلن : ولم يا رسول الله ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن . فقلن : ما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال : أليست شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن : بلى ، قال : فذلك نقصان دينها)[2] رواه البخارى ومسلم .

وعن معاذة قالت : « سألت عائشة رضى الله عنها فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ قالت : كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ . فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة » رواه الجماعة[3] .

(٢) الوطء : وهو حرام بإجماع المسلمين بنص الكتاب والسنة ، فلا يحل وطء الحائض والنفساء حتى

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

تطهر ، لحديث أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها . ولقد سأل أصحاب النبى ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ : (اصنعوا كل شيء إلا النكاح)[1] . وفى لفظ إلا الجماع رواه الجماعة إلا البخارى . قال النووى : ولو اعتقد مسلم حل جماع الحائض فى فرجها صار كافراً مرتداً ، ولو فعله غير معتقد حله ناسياً أو جاهلاً الحرمة أو وجود الحيض فلا إثم عليه ولا كفارة ، وإن فعله عامداً عالماً بالحيض والتحريم مختاراً فقد ارتكب معصية كبيرة يجب عليه التوبة منها . وفى وجوب الكفارة قولان : أصحهما أنه لا كفارة عليه ، ثم قال : النوع الثانى أن يباشرها فيما فوق السرة وتحت الركبة ، وهذا حلال بالإجماع ، والنوع الثالث : أن يباشرها فيما بين السرة والركبة غير القبل والدبر . وأكثر العلماء على حرمته . ثم اختار النووى الحل مع الكراهة ، لأنه أقوى من حيث الدليل . انتهى ملخصاً .

والدليل الذى أشار إليه ما روى عن أزواج النبى ﷺ أن النبى كان إذا أراد من الحائض شيئا ألقى على فرجها شيئاً رواه أبو داود[2] . قال الحافظ إسناده قوى .

الاستحاضة :

١ ــ تعريفها : هى استمرار نزول الدم وجريانه فى غير أوانه .

٢ ــ أحوال المستحاضة : المستحاضة لها ثلاث حالات :

(ا) أن تكون مدة الحيض معروفة لها قبل الاستحاضة ، وفى هذه الحالة تعتبر هذه المدة المعروفة هى مدة الحيض والباقى استحاضة ، لحديث أم سلمة أنها استفتت النبى ﷺ فى امرأة تهراق الدم فقال : (لتنتظر قدر الليالى والأيام التى كانت تحيضهن وقدرهن من الشهر فتدع الصلاة ثم لتغتسل ولتستغفر ثم تصلى)[3] رواه البخارى والشافعى . قال الخطابى : هذا حكم المرأة يكون لها من الشهر أيام معلومة تحيضها فى أيام الصحة قبل حدوث العلة ، ثم تستحاض فتهريق الدم ويستمر بها السيلان ، أمرها النبى ﷺ أن تدع الصلاة من الشهر قدر الأيام التى كانت تحيض قبل أن يصيبها ما أصابها ، فإذا استوفت عدد تلك الأيام اغتسلت مرة واحدة وحكمها حكم الطواهر .

(ب) أن يستمر بها الدم ولم يكن لها أيام معروفة ، إما لأنها نسيت عادتها أو بلغت مستحاضة ، ولا تستطيع تمييز دم الحيض ، وفى هذه الحالة يكون حيضها ستة أيام أو سبعة على غالب عادة النساء ، لحديث حمنة بنت جحش قالت : كنت أستحاض حيضة شديدة كثيرة ، فجئت رسول الله ﷺ أستفتيه وأخبره ، فوجدته فى بيت أختى زينب بنت جحش ، قالت فقلت : يارسول الله إنى أستحاض حيضة كثيرة شديدة ، فما ترى فيها ، وقد منعتنى الصلاة والصيام ؟ فقال : (أنعت لك الكرسُف (تلجمى بالقطن) فإنه يذهب

(١) المصدر السابق ص ٢٤٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

الدم . قالت : هو أكثر من ذلك ، قال : فتلجمى . قالت : إنما أثج ثجاً . فقال : سآمرك بأمرين أيهما فعلت فقد أجزأ عنك من الآخر ، فإن قويت عليهما فأنت أعلم ، فقال لها : إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان فتحيضين ستة إلى سبعة أيام فى علم الله ، ثم اغتسلى حتى إذا رأيت أنك قد طهرت واستنقيت فصلى أربعاً وعشرين ليلة أو ثلاثاً وعشرين ليلة وأيامها ، وصومى ، فإن ذلك يجزئك ، وكذلك فافعلى فى كل شهر كما تحيض النساء وكما يطهرن بميقات حيضهن وطهرهن ، وإن قويت على أن تؤخرى الظهر وتعجلى العصر فتغتسلين ثم تصلين الظهر والعصر جميعاً ، ثم تؤخرين المغرب وتعجلين العشاء ثم تغتسلين وتجمعين بين الصلاتين فافعلى ، وتغتسلين مع الفجر وتصلين فكذلك فافعلى ، وصلى وصومى إن قدرت على ذلك . وقال رسول الله ﷺ : هذا أحب الأمرين إلىّ)[1] . رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

قال الخطابى تعليقا على هذا الحديث : إنما هى امرأة مبتدئة لم يتقدم لها أيام ولا هى مميزة لدمها . وقد استمر بها الدم حتى غلبها ، فرد رسول الله ﷺ أمرها إلى العرف الظاهر والأمر الغالب من أحوال النساء ، كما حمل أمرها فى حيضها كل شهر مرة واحدة على الغالب من عادتهن ، ويدل على هذا قوله : « كما تحيض النساء ويطهرن بميقات حيضهن وطهرهن » . قال (وهذا أصل فى قياس أمر النساء بعضهن على بعض فى باب الحيض والحمل والبلوغ وما أشبه هذا من أمورهن) .

(جـ) ألا تكون لها عادة ، ولكنها تستطيع تمييز دم الحيض عن غيره ، وفى هذه الحالة تعمل بالتمييز ، لحديث فاطمة بنت أبى حبيش : أنها كانت تستحاض فقال لها النبى ﷺ : (إذا كان دم الحيض فإنه أسود يعرف ، فإذا كان كذلك فأمسكى عن الصلاة ، فإذا كان الآخر فتوضئى وصلى فإنما هو عرض)[2] وقد تقدم .

٣ ـ أحكامها : للمستحاضة أحكام نلخصها فيما يأتى :

(ا) أنه لا يجب عليها الغسل لشىء من الصلاة ولا فى وقت من الأوقات إلا مرة واحدة حينما ينقطع حيضها ، وبهذا قال جمهور السلف والخلف .

(ب) أنه يجب عليها الوضوء لكل صلاة لقوله ﷺ فى رواية البخارى : (ثم توضئى لكل صلاة) ، وعند مالك يستحب لها الوضوء لكل صلاة ولا يجب إلا بحدث آخر .

(جـ) أن تغسل فرجها قبل الوضوء وتحشوه بخرقة أو قطنة دفعاً للنجاسة وتقليلا لها ، فإذا لم يترفع الدم بذلك شدت مع ذلك على فرجها وتلجمت واستثفرت ، ولا يجب هذا ، وإنما هو الأولى .

(د) ألا تتوضأ قبل دخول وقت الصلاة عند الجمهور ، إذ طهارتها ضرورية ، فليس لها تقديمها قبل وقت الحاجة .

(هـ) أنه يجوز لزوجها أن يطأها فى حال جريان الدم عند جماهير العلماء ، لأنه لم يرد دليل بتحريم

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

جماعها . قال ابن عباس : للمستحاضة يأتيها زوجها إذا صلت ، الصلاة أعظم . رواه البخارى . يعنى إذا جاز لها أن تصلى ودمها جار ، وهى أعظم مايشترط لها الطهارة ، جاز جماعها . وعن عكرمة بنت حمنة أنها كانت مستحاضة ، وكان زوجها يجامعها . رواه أبو داود . وقال النووى إسناده حسن .

(و) أن لها حكم الطاهرات : فتصلى وتصوم وتعتكف وتقرأ القرآن وتمس المصحف وتحمله وتفعل كل العبادات ، وهذا مجمع عليه .

وحيث قد انتهينا من ذكر أحكام الفقهاء ، ننتقل بعد هذا إلى ماجاء فى تفسير آية المحيض فى كتاب (القرآن والطب) . قال المؤلف :

إن بلاغة القرآن الكريم لاتزال من أكبر معجزاته الخالدة التى حيرت عقول البلغاء ، وأفحمت جهابذة الخطباء ، وأعجزت فطاحل الكتاب والشعراء . نزل القرآن الكريم والعرب لا يشق لهم فى البلاغة غبار ، فتحداهم بقوله : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾[1] ، فعجزوا ولجأوا إلى الطعن والنزال حين خذلهم المقال ، واستعانوا ببذاءة اللسان حين خانهم البيان ، فلزمتهم الحجة كما لزمت المصريين حين خذل سحرة فرعون .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾[2] ، كيف أن اللفظ اليسير قد حوى المعنى الكبير ؛ ثم انظر إلى آية المحيض فى جزالة لفظها وسلامة تركيبها كم تحوى من معان سامية ، تنظر إليها من أى جهة فتبهر بصرك وتأخذ عليك عقلك ، فلرجل اللغة فيها مقالات ، وللفقيه جولات ، وللطبيب عجائب وحالات .

وعندما أصل إلى قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ أقف مشدوها ، وقد أسرنى بديع النظم ، وأخذنى جلال المعنى ، وسحرتنى دقة البيان . إن لفظ ﴿ أذى ﴾ ، هذا اللفظ المتواضع فى هذه الآية المعجزة سوف نرى كم يضم من المعانى ، وكم يحوى من الأغراض .

ووالله لقد حاولت أن أجد كلمة تستطيع أن تقوم مقامها أو تحمل حملها فأعيانى البحث ، وسنرى كيف أن أمثال إثم ونجس وضرر . . الخ ، لا تفسر المعنى الطبى الذى تؤديه كلمة ﴿ أذى ﴾ ، وسنرى كيف أن هذه الكلمة فى هذه الآية درة من دررها ومعجزة من معجزاتها .

حكم المحيض عند اليهود :

إن وطء الحائض يحرمه الدين اليهودى تحريماً باتًا ، وقد جاء فى كتبهم : (ولا تقترب إلى امرأة فى نجاسة طمثها لتكشف عورتها) لاويين ١٧-١٩ . بل لم يقتصر الحكم على تحريم الوطء فقط ، بل تعداه إلى الحكم على نجاسة كل ماتمسه الحائض من فراش أو متاع أو ثياب ، بل كل من لمسها من الناس يصير كذلك نجساً ، ويحكم بنجاسة من لامس الحائض سبعة أيام يصير أثناءها منجساً لكل من مسه من الأشياء أو مسه

(١) سورة البقرة آية : ٢٣ .   (٢) سورة البقرة آية : ١٧٩ .

من الناس مما هو مفصل فى سفر اللاويين بالأصحاح الخامس عشر حيث يقول : (وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دماً فى لحمها فسبعة أيام تكون فى طمثها وكل من مسها يكون نجساً ، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء ، وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام ، وكل فرش يضطجع عليه يكون نجساً ، وهذا هو الحكم فى اليهودية .

حكمه عند المسيحيين :

أما المسيحيون فإنجيلهم لاينقض هذا الحكم ، بل ينص على أن جميع أحكام التوراة واجب العمل بها ؛ فقد جاء فى كتابهم أن عيسى عليه السلام صرح بأنه ما جاء لينقض الناموس الإسرائيلى ، بل ليكمله . كما جاء فى إنجيلهم على لسان المسيح : (لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض ، بل لأكمل ، فإنما الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكمل الكل) متى ٥ ـ ١٧،١٨ . بالرغم من ذلك فإن المسيحيين عموماً لا يرون فى وطء الحائض إثماً .

حد من وطأ الحائض فى الإسلام :

وللخطورة التى تترتب على وطء الحائض أجمع المسلمون على اعتباره محرماً ، عملا بالآية الشريفة . ولو اعتقد مسلم حله كان كافراً ، وإنى أعلم أن كثيرا من المسلمين لايعرفون من الإسلام إلا اسمه ، لايتورعون عن مخالفة أوامر الله تعالى ، بل تراهم يقلدون غير المسلمين تقليداً أعمى لا سبيل فيه للتروى ولا للعقل فيه مجال ، ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[١] ، بل يريدون أن يحوروا كلام الله تعالى حسب أهوائهم المضلة ويفسروه كما يتراءى لعقولهم الطائشة .

والحمد لله أن هذه الفئة قليلة ، هتك الله سترها ووقى المسلمين شرها ، وإلا فما حكمك على دعى فى العلم يحسب أن نهاية المعرفة ترك الدين والتنفير من أحكامه ، ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[٢] .

والإسلام يرى أن من يباشر امرأته بالجماع فى المحيض ، وكان ناسيا أو غير عالم بوجود الحيض ، لا إثم عليه ولا كفارة ؛ أما إذا كان متعمداً ، فقد ارتكب معصية . نص الشافعى على أنها كبيرة ووجبت عليه التوبة . قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾[٣] .

(١) سورة النساء آية : ١٤٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٦ .
(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٥ ، ١٣٦ .

توجيه النهى للرجال :

والحكمة العظيمة فى توجيهه سبحانه وتعالى النهى إلى الذكور دون الإناث مع اشتراكهما جميعاً فى كل مايترتب على هذا الفعل من الويلات ، وفيما يجره من الأذى والأهوال ، هى لما عرف عن النساء من ضعف الإرادة وقلة الحيلة وخور العزيمة ، ولكون هذا الأمر يكاد يكون فى أيدى الرجال دونهم ، ولكون امتناع أحد الطرفين هو ذاته الامتثال إلى التحريم والاذعان له ، والحكمة كلها فى تكليف أقوى الجنسين وأقدرهما على ضبط النفس ومقاومتها ، والتغلب على العاطفة الجنسية وعدم الاستسلام لها ؛ قال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾[١] .

دورة الحيض :

وليس يهمنا هنا البحث فى فسيولجيا الحيض ، بل يكفى أن نذكر أن الطمث حالة طبيعية تمر بدورتها بنات حواء عامة ، وهذه الدورة تقبل فى كل شهر قمرى حيث تستغرق عادة من ثلاثة أيام إلى أربعة عشر يوما ؛ ويبتدىء الحيض من السنة الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة من سنى الحياة ، وذلك فى بلادنا المعتدلة الحرارة ، ويستمر الحال هكذا مدة ثلاثين سنة إلى خمس وثلاثين ،ومعنى ذلك أن حياة المرأة التناسلية تنتهى حين تبلغ الأنثى سن الخامسة والأربعين أو الخمسين .

آلام الحيض :

ودورة الحيض ، رغم كونها طبيعية ، إلا أنها تسبب للنساء آلاماً شتى ، فإنهن يجدن عادة فى زمن الحيض انحرافاً فى مزاجهن ، ويشعرن بتعب عام فى أجسامهن ، ويقاسين فى بعض الأحيان آلاماً شديدة فى أصلابهن ، ويعانين حدة فى طبعهن إلى غير ذلك من الآلام التى تعتبر فى ذاتها أعراضاً للطمث . والطمث ، ولو أننا لا نستطيع أن نسميه مرضا بالاصطلاح العلمى ، حالة لا تقل عن المرض خطورة ، من حيث الآلام التى قد تحدثها ، والضعف الجسمانى الذى يترتب عليها ، والأمراض التى تكون الأنثى أثناءها عرضة لها ؛ وهذه الحالة أشبه بالحمل ، قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ﴾[٢] أى ضعفاً على ضعف كلما كبر حجم الجنين ، ولكن الحيض ، فوق ما يسببه من الضعف ، يسبب للأنثى متاعب قد تبلغ حداً لا يطاق وآلاماً لا تحتمل ؛ خلاف ما تتعرض له من المضاعفات التى سنذكر أمثلة لها .

كثيراً ما تتضاعف أعراض الحيض السالفة الذكر وتشتد وطأتها حتى تعانى منها المرأة آلاماً مبرحة وتعبا شديداً يزيد فى أيامه الأولى ، وقد تشعر الحائض بمغص شديد تصحبه عادة أعراض (هستيرية) قد تنتهى بالإغماء . وإنى أشير إلى هذه الحالة لأن المرأة هى المخلوق الوحيد الذى يقاسى كل هذا العناء وينوء وحده تحت أهوال هذا العبء ؛ ولعل عسر الطمث أكثر الأمراض شيوعاً بين بنات حواء وأشدها ملازمة لهن ، ولعل الواجب يقتضى اعتزال الحائض لما تعانيه وتكتمه أو تبديه من الآلام ، هينها وشديدها ، هذا الأمر هو

---

(١) سورة النساء آية : ٢٤ .
(٢) سورة لقمان آية : ١٤ .

بعض ما حوته كلمة ﴿ أذى ﴾ من المعانى المتشعبة ، بل هناك قذارة الدم ورداءة الموضع ، مما يدعو الرجل المهذب أن يكون عفيفاً لا يستعبده هواه ولا تذله نفسه .

عرضة الحائض للأمراض :

إن الجهاز التناسلى للمرأة هو فى الواقع أهم أعضائها ، وإننا نستطيع أن نقرر أن الحالة الطبيعية لها هى الحمل والرضاع ، والحيض يمتنع أثناء هذين الزمنين لاحتياج الجسم إلى المدخر من المواد الغذائية ، فيما عدا ذلك يأتى الطمث حتى يتوازن نظام الوارد والمنصرف ، فإذا حصل أى خلل فى الجهاز التناسلى كالالتهابات مثلاً ، اختلفت دورة الحيض وترتب على ذلك عسر الطمث ، وهو ماأشرنا إليه . وسنرى فيما يلى كيف أن الوطء فى الحيض من الوسائل القوية فى إحداثه :

إن المرأة أيام الحيض معرضة لكثير من العلل التى تؤثر تأثيراً ليس مقصوراً على صحتها العامة فقط ، بل على حياتها التناسلية ، ولا يفوتنى أن أذكر أن اضطرابات الحيض أو البرد أثناء دورة الطمث أو الإفراط فى الشهوات من أقوى الأسباب المهيئة لالتهابات المبيض التى تكون أقرب نتيجة مباشرة لها هى العقم ، ولو علمت بالأمراض الخطرة التى تتعرض لها الأنثى من الوطء فى الحيض لرحمت نفسك ورحمتها ، ولأمنت شراً يصيبك ويصيبها . ولعل مباشرة المرأة بالجماع أثناء الطمث من أكبر الكبائر ، لأن الضرر لو كان عائداً على الرجل وحده لهان الأمر ولقلنا : أحمق ، يريد بنفسه ضرراً ، ولكنها هى نفسها التى سوف تقاسى الألم الأكبر وتعانى العذاب الطويل . ولا يغيب عن البال أن الضرر لا يقتصر على الرجل والمرأة وحدهما ، بل هو على الهيئة الاجتماعية أشد ويلا وأعظم مصيبة ، فحسبك أنه يسبب قلة النسل ، حتى إذا ما فشا بين الناس قطعه بالكلية ، وعندها تكون الطامة على المجتمع الإنسانى .

الوسط المهبلى وتغيره بالحيض :

إنه فى الأحوال العادية أثناء الصحة يفرز المهبل إفرازاً خاصاً لتليينه ، وهذا الإفراز حمضى فى تفاعله ، وسبب ذلك يرجع إلى احتوائه على حامض اللبنيك ، ويحتوى هذا الإفراز كذلك على جراثيم باسلية عديدة تسمى « باسلات المهبل » ، وبجانب ذلك يعيش نوع من الكائنات الحية الفطرية لا يسبب مرضاً ، ويسمى هذا الفطر « مونيليا كانديدا » ، وهذا الأخير لايمكنه التكاثر مطلقاً إلا فى وجود باسلات المهبل .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الإفراز ، بما يحتويه ، يمنع نموّ الجراثيم الرمية والصديدية . وإذا تغير هذا الإفراز وأصبح قلوياً أو متعادلاً انعدمت فيه باسلات المهبل والمونيليا جميعا ، وحلت محلها جراثيم أخرى فتاكة ، كالجراثيم العفنة والاستافيلوككس (مكرويات البـذور العنبية) ، والاسـتر بتوككس (البـذور السبحية) ، وفى بعض الحالات الجونوككس ؛ وكل هذه جراثيم فتاكة تحدث آفات مهبلية ورحمية ، بل قد يمتد ضررهـا إلى جميع الجهـاز التناسلى ، ولكى نقرب إلى الأذهـان ماهيـة هذه الجـراثيم نضرب مثلاً بالاستربتوككس ، وهو جرثومة مستديرة الشكل أو بيضية ، يبلغ طولها من سبعة من العشرة من الميكرونات

إلى ميكرون واحد وتتصل هذه الجراثيم بعضها ببعض على هيئة سلاسل مختلفة الطول ، وهذه الجراثيم تتحمل الحرارة القوية حتى درجة ٥٤ سنتجرام ، والاستربتوككس هو العامل المعفن فى بعض الالتهابات البوقية ، كالعنق النفاس مثلا ، حيث وجد فى القيح بين الخلايا البشرية . ولقد وجد أن الإستافيلوكس يعمل عمل الإستربتوككس فى هذه الحالة ، ولقد وجد معه كثيراً ، ولو أن وجوده فى القيح يعد نادراً .

ولقد عثر كل من « شيفر » و « منجه » على الاستربتوككس فى المبيض مسبباً التهاباً مبيضياً حاداً ، ومما هو جدير بالذكر أن الإفراز المهبلى العادى له فعل مطهر شديد المفعول ، وهذا الفعل يعود إلى وجود حامض اللينيك الذى تنتجه الباسلات المهبلية ، فتكون جميع أنواع الالتهابات ناجمة عن هجوم الباكتريا وإصابتها للمهبل . والأسباب المهيئة لهذه الالتهابات هى أية حالة تؤثر فى الإفراز ، فتجعله قلوياً أو متعادلاً .

والحالات التى تحدث ذلك أهمها وجود الدم الذى يحول الوسط الحامضى إلى القلوية أو التعادل ، ووجود الدم يحدث طبيعياً أثناء المحيض . ويدعو كذلك إلى تحويل الوسط الحامضى إلى القلوى ، أى مهيج آلى للغشاء المخاطى كوجود أشياء غريبة فى المهبل أو الوطء أثناء الطمث .

أذى وطء المرأة أثناء الحيض :

من هنا يتضح لك أن الحيض ، والوطء أثناءه ، هو أهم الأسباب المهيئة لالتهاب المهبل ، وهذا أكثر أنواع التهاب المهبل شيوعاً ، وفيه تكبر البابلى ، وتأخذ فى الازدياد فى الحجم حتى ينتهى الأمر بتلف الغشاء المخاطى لها ، وينجم عن ذلك نمو نتوءات على جميع سطح المهبل ، وعند هذه الحالة يسمى الالتهاب اسماً خاصاً ، وهذه الالتهابات تحدث آلاما شديدة فى الحوض مع الشعور بثقل فيه ، وفى الوقت نفسه يظهر رشح وترتفع درجة حرارة الأعضاء التناسلية ويحتقن الغشاء المخاطى ، وفى الأحوال الحادة تجد المصابة آلاما مبرحة وتعانى ورماً شديداً ويلتهب الجهاز التناسلى ويحدث رشح شديد وترتفع درجة الحرارة وتزداد ضـربات القلب ، وتظهر أعراض أخرى كثيرة ناشئة عن امتصاص الجسم لمواد سامة .

وأريد أن ألفت النظر إلى مرض غاية فى الخطورة ينشأ عن الالتهاب المهبلى ، هذا المرض يسميه الطب (فجينسمص) ، ويكفى أن تعرف أنه يسبب العقم . ولاشك أن الالتهاب المهبلى هو من أكبر العوامل المسببة للالتهاب الذى يصيب الغشـاء المخاطى للمثـانة ، فيـظهر فيهـا التهاب شـديد ، وتمتـاز إذ ذاك بصلابتها ، وتشعر المريضة بالميل إلى التبول مع قلة ما ينزل منه ، ويصبح البول شديد الكدرة مصحوباً بقيح ومدة وبعض الزلال ، وفى الأحوال الحادة جداً يكون مصحوباً بدماء ، وعند فحص البول بالمجهر تجد فيه كثيراً من البكتريا ، وفى الأحوال المزمنة تشاهد تقرحات فى الغشاء المخاطى للمثانة .

إن الجماع هو من وسائل حمل البكتريا إلى داخل المهبل ، وهذا الأمر لم يعرف فى الطب إلا حديثاً ؛ وقد علمنا أن الوسط المهبلى أثناء الحيض صالح لنموها . فالجراثيم الصديدية التى توجد فى الالتهابات الحادة المختلفة فى أحوال التقيح والتى تكون مصحوبة دائماً بالمدة لا تعيش مطلقاً إلا فى الوسط القلوى ، ولقد وجد

بالتجارب أنك إذا أدخلت بعض أنواع هذه الجراثيم فى المهبل السليم لا تلبث أن تموت فى ساعات قليلة .
وأنواع البكتريا التى ينتظر أن تصيب المهبل هى : الجونوككس ، والاستافيلوككس ، والاستربتوككس ، والباسلس كلاى كميونس . وأنواع مختلفة من الدبلوككس والباكتريا السابروفيتك باسلات الدفتريـد ، وهناك ، كذلك ، أصناف مختلفة من الفطر تصيب المهبل وتسبب مرضاً يسمى (ميكونك فجينيتس) ، وأهم أنواع هذه الفطريات هى أونيديم البيكاتز ولبتوتركس فجينالز . وأريد أن أقول هنا إن الحيض والوطء أثناءه هو من أهم الأسباب المهيئة لتعفن الرحم الذى فضلا عن أنه يسبب العقم ، فهو من أشد الأمراض إيلاما للمرأة ، حيث تقاسى منه آلاما فى الحوض لا تطاق ، فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة والمضاعفات الأخرى الخطرة التى تكون نتيجة ذلك التعفن ، ولعل أهمها إصابة ملحقات الرحم .

منابع العدوى :

والرجل إما أن يكون هو الناقل للعدوى إلى الحائض ، وهو الأكثر وقوعا ، ثم يظهر المرض لوجود الوسط الصالح لنمو الجراثيم المذكورة ، أو تصل هى إليه من الحائض حين تكون العدوى ذاتية ، وذلك لوجود بكتريا مرضية فى المهبل والرحم السليمين فى حالة خمول ، وهذا الخمول لا يلبث أن يتحول إلى نشاط إذا وجد الوسط الصالح لنمو الجراثيم وتكاثرها ، وكل ذلك متوفر طبعاً أثناء الحيض من حيث يصاب الرجل .

ومنابع العدوى كثيرة بالرغم من أن بعض الناس قد يظن خلاف ذلك ، وتلك المنابع تشمل الفتحة التناسلية وجميع الأعضاء التى تحف بها ، كالإست والعجان ، وذلك بسبب إفراز العرق والدهن من غدد كل منها ، وهو ما يؤدى إلى تجمع الجراثيم وامتدادها وسهولة غزوها للأعضاء التناسلية ؛ أما الأوساط الآلية فأولها الجماع ، ثم تأتى بعده الملابس والمناشف وغيرها ، بل الهواء والغبار وكل ما ذهب مذهبهما وسائل لإيصال الجراثيم .

الأذى الذى يصيب الرجل :

من ذلك يتضح جليا أن المهبل أثناء المحيض عرضة لكل ما ذكرت من الجراثيم المعدية التى تصيب الرجل ، فتحدث عنده التهابات مختلفة فى أعضائه التناسلية ، إذ تمتد الجراثيم إلى داخل القناة البولية ، بل قد تصيب المثانة والحالبين ، بل قد يمتد الالتهاب حتى يصيب غدة كوبر والبروستاتا والحويصلتين المنويتين والخصيتين والبربخ . إن الجماع فى المحيض ينذر الرجل بخطر داهم هو فى غنى عنه وعن مضاعفاته لو عفت نفسه ووعى أمر ربه ، فليست إصابة القناة البولية بالأمر الهين أو الخطب اليسير ، بل هذه الإصابة هى التى تجر ما لا طاقة له به من الآلام والمضاعفات إذا ما ولجت هذه القناة أحدثت التهاباً شديداً يتعذر معه التبول الذى يحدث فى بعض الأحيان آلاماً لا تطاق ومتاعب لا تحتمل ، وهذا الالتهاب يصحبه عادة إفراز مدًىٌّ شديد يلوث عند اشتداد الحالة بالدماء ، ولا يخفى أن ذلك يكون مصحوباً كذلك بأعراض عامة مختلفة فى جميع أجزاء الجسم كالحمى والقشعريرة ، وذلك بجانب ما يطرأ من الضعف العام والانحـطاط فى جميع

الأعضاء . أما إذا امتد الالتهاب إلى المجرى الخلفى ، فهناك تكون الطامة الكبرى ، حيث يكثر القيح الذى تتخلله خيوط من الدماء ، ويصعب التبول وتتضاعف مع ذلك الآلام ويشتد الضعف وتقل الشهية للطعام ، ويسير هذا الحال بجانب الحمى وسرعة ضربات القلب وإجهاده . . . إلخ . . ولأسباب شتى يزمن المرض وتصحبه مضاعفات عامة فى غاية الحدة والخطورة ، فمن ذلك التهاب الحشفة والقلفة مما قد يؤدى إلى حدوث الغنغرينة فيها ، وذلك يكون خاصة فى حالة الانكماش أو الاختناق ، مما يدعو إلى وجوب القيام بعملية البتر حتى لا يتسمم سائر البدن .

وإذا علمت أن مجرى البول ملتصق الجدران حتى أنه لا يظهر بمظهر القناة إلا إذا سرت فيه أجسام غريبة ، كالبول مثلا ، إذا علمت ذلك سهلت عليك معرفة كيفية امتداد الجراثيم المرضية إلى سائر الجهاز التناسلى . وفى المجرى البولى توجد فتحتان لقناتى غدة (كوبر) ، من حيث تصاب الغدة المذكورة فتحدث الآلام الشديدة سواء أكان ذلك عند التبول أو التبرز ، ويحس المصاب بألم كبير عند العجان ، وهو الموضع الذى بين الخصيتين والشرج ، وقد ينتهى الأمر بتقرح الغدة وامتلائها بالقيح . وتوجد فتحات كثيرة لغدد البروستاتا فى الجزء البروستاتى من القناة البولية ، وعند إصابة هذه الغدد تتشنج المثانة ويختل فعلها ، فتشتد الآلام ويصير البول مصحوبا بمدة ودم ، وقد ينتهى الأمر بتقيح البروستاتا مما يستدعى تدخل الجراح ، وهذه العملية من الخطورة بمكان ، ولا يخفى أن حالة المريض إذ ذاك يرثى لها وتعتريه الحمى ، وعند ذلك يختل نظام القلب ، وعند إصابة الحويصلتين المنويتين يشتد الألم فى العجان ويتضاعف هذا الألم عند التبول أو التغوط كما يحدث نفس الأمر عند المشى أو عند مجرد الجلوس ، وعند امتداد الإصابة إلى البربخ والخصيتين يعانى المصاب آلاما متشعبة ، إذ قد يصاب البربخ بالورم حتى يبلغ حجمه بيضة الدجاجة ، وقد ينسد الحبل المنوى الذى قد يستمر انسداده مدى الحياة ، وفى هذه الحالة يتألم المريض عند الوقوف ، وقد تعتريه نوبات هستيرية ، كل هذه الحالات لا ينجو من إحداهامن ركب رأسه وأتى هذا العمل الشائن الذى حكم الشرع بضرره وخطورته وحذر من ويلاته ومصائبه ونهى عن إلقاء النفس بين مخالبه .

ولقد عرف الطب هذا الخطر الداهم للبشر واهتدى إلى أصل أمراضه وعلله ، وقد أشرت إلى كل ذلك إشارة أظن أنها كافية لإعطاء المرء فكرة عامة صحيحة عن مبلغ الأذى الذى ينجم عن الوطء فى المحيض . ليس عدم إصابة رجل وطأ امرأته مرة وهى حائض دليلاً على عدم وجود الأذى ، والعاقل هو الذى يتجنب الشىء الذى يتحتم وصول الضرر إليه منه ، ولكن كثيراً من الناس ، لضعف عقولهم واستهتارهم ، لا يبالون بالضرر حتى يصيبهم . ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[1] . وكيف يتعامى الإنسان عن آيات ربه ويتغافل عنها ؟ ولقد نبهه إلى سبيل الأمراض والعلل وحذره من الوقوع فى حبائل الرذيلة والفساد وأمره بالمحافظة على جسمه وحثه على تهذيب نفسه وتطهيرها من أدران القبائح والمساوىء حتى يصبح رجلاً كاملاً صحيح الجسم والنفس سعيداً فى الدنيا وسعيداً فى الآخرة ؛ وهل ترى السعادة فى الدنيا غير سلامة الجسم

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .

وطهارة الروح وصفاء النفس ؛ الأمر الذى يدعو إليه الدين الإسلامى قال تعالى : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴾[١] . إن الالتهاب البسيط فى القناة البولية هو الذى يسبب كل هذه المضاعفات التى ذكرتها ، وكيف لا ؟ وهذا الالتهاب سببه الجراثيم الفتاكة التى سميتها آنفاً ، وليس ببعيد أن يمتد الالتهاب فى الحالبين وقاعدة الكليتين ، حيث يمتنع نزول البول فى الحالة الأولى ، فيترتب عليه التسمم الدموى (يوريميا) ، أما فى الحالة الثانية فالموت هو أقرب النتائج لها .

وإن إصابة البربخ ، فضلاً عن كونها تنشأ عن امتداد الإصابة من القناة البولية ، فهى نتيجة مباشرة كذلك للجماع فى المحيض ، ويجب ألا يغيب عن البال أن كثيراً جداً من أحوال العقم تتسبب عن هذه الإصابة التى تنذر العالم بشر مستطير وتهدد كيانه بخطر داهم .

مما تقدم يستطيع القارىء اللبيب أن يلم بالأذى المتشعب الذى عناه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ ، ذلك الأذى الذى يحمل بنى آدم ، رجالاً ونساء ، ما لا طاقة لهم به من الآلام والأمراض ، بل ذلك الأذى الذى يترتب عنه عقم المرأة وعقم الرجل جميعاً ، وهو ما يهدد العالم بالفناء والزوال .

وإنى لأظن أنه كاف للمرء أن يذكر الله له ضرر الشىء ليتحاشاه ويتجنبه ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾[٢] . وكيف لا يكون فاسقا من يعصى أمر ربه ويسلك سبيل الغواية الذى حذره منه بعد أن تبين له ضرره وشاهد بعينى رأسه خطورته . قال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾[٣] .

المنع وتقوية الإرادة :

ولا يخفى أن من حكم تحريم المباشرة أثناء الطمث تعويد الرجل على الصبر على بعد المرأة مدة من الزمن ، إذ أن الرجل كثيراً ما تدعوه أعماله الخاصة إلى السفر والتغيب عن أهله مدداً مختلفة ، ففى التحريم رحمة به وتقوية لعزيمته ، ولعل ذلك كحكمة الصيام فى تدريب المرء على الصبر على الجوع واحتمال قلة الطعام أو عدمه فى سفره وترحاله وما قد يلاقيه فى أثناء صيامه ، والمنع فى الحالتين تعويد للجسم على احتمال الطوارىء حتى لا يفاجأ البدن بما لم يتدرب عليه ، ولا تؤخذ النفس على غرة منها .

وطء الحيض لا إنبات فيه :

هنالك نقطة أخرى أريد الإشارة إليها إشارة لا تتعدى الحصر ، ولو أنها لها أهمية خلقية كبيرة ، وهى أن الوطء فى ذاته لم يخلقه سبحانه وتعالى لمجرد الشهوة البهيمية ، بل خلقه لغاية هى أسمى بكثير من ذلك ، ألا وهى النسل وحفظ كيان العالم والعمل على عدم فنائه وبوآره . وكلنا يعلم ، فضلاً عما تقدم ، أن الوطء

(١) سورة النساء آية : ١٣٤ .
(٢) سورة النساء آية : ٨٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ٩٩ .

فى المحيض لا يعقب ولا يحدث حملاً مطلقاً ، بل هو كواضع الشىء فى غير موضعه وكبذر البذور فى أرض قاحلة جرداء لا تنبت زرعاً ولا تأتى بثمر ؛ وحسبك قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ ، والحرث مكان الإنبات ، وليس فى وقت الحيض تلقيح أو نسل ؛ ولا يظن أحد أن هذا وحده سبب كاف للنهى عن هذا الفعل ، بل هو ، كما ذكرت ، يعطيه مظهر الحيوانية وعدم التعفف وقلة العقل لما بينته من آلام المحيض وقذارة الدم وأضرار الوطء أثناء الطمث ا . هـ .

ويعد بيان الجانب الطبى فى دم الحيض وما احتواه من أذى ، نقف خاشعين أمام قول الله تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ، وكيف اقتضت الحكمة الإلهية أن تختتم آية المحيض بالتوبة والطهر ، ذلك لأن الله يعلم ما بالإنسان من ضعف الإرادة أمام نداء الغرائز ، وأن هناك من ضعفاء الإرادة من ينهزم أمام نداء الشهوة ، فيباشر فى الحيض أمام ضعف عزيمته ، فأراد ربك ألا يقنط أحد من رحمته ، ففتح باب التوبة لكل من هوى فى سحيق الرذيلة ومضمار الجريمة فلا يأس من رحمة الله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[1] . وكما أنه تعالى يحب التوابين فإنه يحب المتطهرين ، سواء أكان المقصود بالطهارة هنا الطهارة الحسية بالغسل والوضوء أم الطهارة المعنوية كطهارة النفس من الذنوب والمخالفات ، وطهارة القلب من الشحناء والبغضاء ، وسبحان من زكى عقائد المؤمنين فقال فى أول سورة المؤمنون ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ ، وطهر قلوبهم فقال : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ ، وطهر ألسنتهم فقال : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ وطهر أموالهم فقال : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ ، وطهر أعراضهم فقال : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ ، وطهر معاملتهم فقال : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ ووصفهم بالالتزام فى العبادة فقال : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ وحكم لهم حكمه الكريم الذى يفيض رحمة وكرما ويشع نوراً وبهاء وجلالاً وجمالاً وكمالاً فقال : ﴿ أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وما أدراك ما الفردوس ، إنه أعلى الجنات ، سقفه عرش الرحمن جل جلاله .

ونختتم الكلام عن المحيض بما جاء فى كتاب «الإسلام والطب الحديث» قال المؤلف : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ .

إفرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة فى الجسم ، مثل الهضم أو التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته إلخ . وهذا النوع يسمى (Secretion)، وهو ضرورى للحياة وليس فيه ضرر . ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب افرازه من الجسم إلى الخارج ، وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت فى الجسم أضرت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض ، وهذا النوع يسمى (Excretion) . فهذه الآية الكريمة علمت الإنسان ، قبل أن يعرف شيئاً عن أنواع الإفرازات ، أن المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم . وأما الجزء الثانى من الآية الكريمة : ﴿ فاعتزلوا النساء فى المحيض ﴾

---

(١) سورة النساء الآيتان : ٢٦ - ٢٨ .

فسببه أن الأعضاء التناسلية تكون فى حالة احتقان ، والأعصاب تكون فى حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية ؛ فالاختلاط الجنسى يضرها ، وربما منع نزول الحيض كما يحصل كثيرا من الاضطراب العصبى ، وقد يكون سببا فى التهاب الأعضاء التناسلية ، من النساء وقت المحيض . ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ ، المقصود بهن الزوجات ، والحرث هو مكان الزرع والغرس والنسل . وفى التعبير بالحرث إشارة لطيفة إلى حسن اختيار الزوجة ، فالمكان الطيب ينبت النبات الطيب ، ومن هنا وجب التخير للنطفة ، فإن العرق دساس ، ومن حق الولد على والده أن يستنجب أمه ، إذ البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً .

إيـاك تجنى سكـراً مـن حنـظل   فـالشىء يـرجـع فى المـذاق لأصله

كما أن فى كلمة الحرث إشارة إلى مكان المباشرة ، ومن هنا فإن الله تعالى قال بعد ذلك : ﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ ، ليعلم البشرية أنه لا يؤتى النساء إلا فى هذا المكان الذى حدده الله بالحرث ، ولو شاء لقال : فأتوا نساءكم أنى شئتم ، فحتى يقطع أقاويل الجاهلين العابثين فإنه حدد مكان الحرث للإتيان . قال ﷺ : (ملعون من آتى امرأة فى دبرها)(١) ، وقال : (ملعون من عمل بعمل قوم لوط)(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أنى شئتم ﴾ ، أى على أى وضع وكيفية ، بشرط أن يكون من حيث أمركم الله وبينه لكم فى قوله نساؤكم حرث لكم . قال جل شأنه : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ ، أى قدموا العمل الصالح ليكون لكم ذخراً يوم العرض على الله ، قال تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾(٣) . ثم أمر تعالى بتقواه فقال : ﴿ واتقوا الله ﴾ ، أى احذروا مخالفته فى ما أمركم به ، فعليكم بالتزام ما أمر واجتناب ما نهى . ثم قال سبحانه : ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ ، فلا مفر من لقائه ، فنفذوا أحكامه ومنها ما جاء فى هذه السورة مما سبق بيانه ، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم . ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، بشرهم بالجنة ونعيمها .

الأيمان

وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٣٩ ط دار الفكر .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٣٩ ط دار الفكر .
(٣) سورة المزمل آية : ٢٠ .

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

المفردات : العرضة كالغُرفة : المانع المعترض دون الشىء ، والمراد من الأيمان ، الأمور المحلوف عليها ، كما جاء فى الصحيحين من قوله عليه الصلاة والسلام : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه) . واللغو : ما يقع فى حشو الكلام من الأيمان من غير قصد ولا روية كقول الإنسان : أى والله ، ولا والله ، فهذا ونحوه يسبق إلى اللسان عادة ولا يقصد به عقد اليمين ، فلا يؤاخذ الله به بفرض كفارة ولا بعقاب حتى لا يكون فى ذلك حرج على المؤمنين . والإيلاء : لغة الحلف ، وشرعا حلف الرجل ألا يقرب امرأته إما لمدة معينة أو غير معينة كأن يقول : والله لا أقربك أربعة أشهر ، أو لا أقربك ، والتربص : الانتظار ، وفاءوا : أى رجعوا إلى نسائهم ، وعَزموا الطلاق : أى صمّموا فى قصده وعزموا ألا يعودوا إلى ملامسة نسائهم .

فى الآيات السابقة حذَّرنا الله تبارك اسمه من الوقوع فى أشياء حرَّمها علينا ، كقرب الحائض فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ ، وفى هذه الآيات حذَّرنا جلَّ شأنه من الوقوع فى أشياء أخرى تتعلق بالأيمان ، فقال : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ، ومعنى عرضة أى مانعا من فعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فقد اقتضت رحمة الله الحكيم أن يزيل الموانع والعوائق من طريق البر ، إذ أن صنائع المعروف تقى مصارع السوء . وصاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكئا . فاصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله . فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديَّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تَدين تُدان .

ازرع جميلا ولو فى غير موضعه … فلن يضيع جميل أينما زرعا
إن الجميل وإن طال الزمان به … فليس يحصده إلا الذى زرعا

ولو كان المانع من فعل الخير حلفا ، فإن الله عظمت حكمته يأمر بفعل الخير ويكفر الحالف يمينه حتى لا تكون اليمين مانعة من البر والتقوى والإصلاح .

قال ﷺ : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه)[1] .

ولما حلف أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أن يمنع العطاء عن مسطح ، بعد ما خاض مع الخائضين فى حادثة الإفك ، أنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ، كما أنزل : ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾[2] .

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر .
(٢) سورة النور آية : ٢٢ .

قال أبو بكـر : والله إنى أحب أن يغفر الله لى فـأعطاه وأجـزل له العـطاء وكان مسـطح من ذوى القربى . . . قال ﷺ : (أفضل الصدقة ، الصدقة على ذى الرحم الكاشح)[١] ، أى الذى يضمر السوء والحقد والبغضاء ، ذلك لأن فى التصدق عليه هدفين من أسمى الأهداف : أولهما أن المتصدق يجاهد نفسه ، وجهاد النفس فى أعلى مراتب الجهاد ؛ فالنفس هنا تقول : لا تعطه فإنه يضمر لك السـوء ، والله تعالى يقول : اعطه لأغفر لك ، فإن أطعت ربك وعصيت نفسك وأعطيته فأنت ممن قال الله فيهم : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[٢] .

والهدف الثانى أنك بالعطاء تطفىء غيظ قلبه وتحول سوء نفسه إلى محبة ووفاء ، فتكون قد أصبت الهدفين ، وبهما تنال الرضا من الله ، ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ﴾[٣] .

وهناك من الأحاديث مايفيد اتباع الخير وترك الشر ولو كان هناك حلف . قال ﷺ : (إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها)[٤] .

وقال أيضا صلوات ربى وسلامه عليه لعبد الرحمن بن سمرة : (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسـأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك)[٥] .

وقال ﷺ : (لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ولا فى معصية الله ولا فى قطيعة رحم ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليدعها وليأت الذى هو خير فإن تركها كفارتها)[٦] .

قوله تعالى : ﴿ والله سميع عليم﴾ ، أى سميع لأقوالكم وأيمانكم ، عليم بنياتكم وما فى قلوبكم . وفى تلك الآية يتجلى جانب الإنسانية فى الإسلام ، فالإسلام خير كله وبر كله وإصلاح كله . (ألا أدلكم على ما هو خير من الصلاة والصدقة والصيام والحج ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين ، فإن قطيعة ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن أقول تحلق الدين)[٧] . ولقد نهى الإسلام نهيا قاطعا وحذّر تحذيرا شديد اللهجة من الإيقاع بين الناس وإفساد الصلات بينهم . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾[٨] ، فسماه الله تعالى فاسقا ولو كان صادقا فى نقل ما يوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، فإن كان كاذبا فقد سماه الله تعالى مشاءً بنميم ، وخرطه فى سلك المنحرفين عن طريق الجادة . قال تعالى : ﴿ ولا تطع كل حـلاف

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ١٩٠ ط دار الفكر .
(٢) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .
(٣) سورة الليل الآيات : ١٩ - ٢١ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩٠ ط الشعب .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩٠ ط الشعب .
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩١ ط الشعب .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٧٢ ط وزارة الأوقاف .
(٨) سورة الحجرات آية : ٦ .

مهين * همّاز مشّاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم ﴾[1] . قال ﷺ : (لا يدخل الجنة نمّام)[2] . وقال : (شر الناس منزلة يوم القيامة من يخاف لسانه أو يخاف شره)[3] ، وقال : (ألا أخبركم بشراركم ؟ قلنا : بلى . قال : من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنبا . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من يبغض الناس ويبغضونه)[4] .

فأنعم بالإسلام وأكرم به وأعظم بتعاليمه :

لو أن إنسانا تخير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يدا	هى أنت بل أنت اليد البيضاء
دين يُشيد آية فى آية	لبناته السورات والأضواء
الحق فيه هو الأساس وكيف لا ؟	والله جلّ جلاله البنّاء

ومن بيان أحكام الإيمان قوله جل شأنه : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ ، والمقصود باللغو ما يجرى على الألسنة من غير قصد ، كقول الحالف : نعم والله ولا والله . قالت عائشة رضى الله عنها : إن رسول الله ﷺ قال : (اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته كلا والله وبلى والله)[5] .

وليمين اللغو وجوه نذكرها فيما يلى :

فمن تلك الوجوه ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : هو الشىء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه .

وقيل : هو الرجل يحلف على الشىء ثم ينساه .

وقال زيد بن أسلم : هو قول الرجل أعمىَ الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا أخرجنى الله من مالى ، وإن لم آتك غدا فهو هذا .

وعن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وأن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة .

وفى حديث مرسل ـ عن الحسن بن أبى الحسن ـ قال : مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون ـ يعنى يرمون ـ ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، فقام رجل من القوم فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله ، فقال الذى مع النبى ﷺ للنبى ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله ، قال : (كلا ، أيمان الرماة لغو ، لا كفارة فيها ولا عقوبة)[6] .

وعن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألنى عن القسمة فكل مالى فى رتاج الكعبة ! فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك !

(١) سورة القلم الآيات : ١٠ - ١٢ .
(٢) رياض الصالحين للامام النووى ص ٣٩٣ ط دار التراث العربى .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٧ ط دار الفكر .
(٤) المصدر السابق .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩١ ط الشعب .
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩٢ ط الشعب .

كفر عن يمينك وكلم أخاك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يمين عليك ولا نذر فى معصية الرب عز وجل ، ولا فى قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك)[١] .

قال الإمام مالك فى الموطأ : أحسن ما سمعت فى ذلك أن اللغو حلف الإنسان على الشىء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه . والذى يحلف على الشىء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحدا ويقتطع به مالا ، فهذا أعظم من أن تكون له كفارة .

قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ ، أى من القصد والنية ، ويشمل ذلك نوعين من الأيمان : اليمين المنعقدة ، أن يحلف على شىء سيفعل ثم لا يفعل . وإنما سميت يمين الغموس لأنها تغمس حالفها فى النار ، لأنه تعمد الكذب على الله ، وتسمى الكاذبة والفاجرة ، وكثيرا ما تقع من شاهد الزور أمام القاضى حتى قال بعض الفقهاء : إنها أعظم من الكفارة فلا كفارة له .

أما اليمين المنعقدة إذا حنث فيها حالفها فلها كفارة ، جاء بيانها فى سورة المائدة . فعلى الحالف أن يراعى ثلاثة أمور : ألا يحلف إلا بالله ، وألا يحلف إلا للضرورة ، وأن يكون صادقا إذا حلف . قال تعالى : ﴿واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾[٢] . أما الذى يحلف بما شاء وبمن شاء فهو الله وحده ، لأنه خالق الأشياء ، يحلف بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، ويحلف بالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين . ويحلف بالعاديات والصافات والمرسلات والنازعات . كما يحلف بحياة سيد الكائنات محمد ﷺ فيقول : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون﴾[٣] .

قال تعالى : ﴿ والله غفور حليم ﴾ ، حيث تجاوز عن أيمان اللغو مغفرة منه وحلما ، وحيث فتح باب التوبة وشرع الكفارات أمام الأيمان التى فيها كسب للقلوب وقصد ونية ، فهو الغفور الذى يستر الذنوب ويخفيها ، والحليم الذى يتجاوز عن السيئات .

مازلت أُعرف بالإساءة دائما	ويكون منك الصفح والغفران
لم تنتقصنى إن أسأت وزدتنى	حتى كأن إساءتى إحسان
منك التفضل والتكرم والرضا	أنت الإله المنعم المنّان

***

يا من له علم الغيوب ووصفه	ستر العيوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى	كرما فليس عليه ثمّ جناح
تولى الجميل على القبيح تكرما	أنت الإله الواحد الفتاح

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩٣ ط الشعب .
(٢) سورة المائدة آية : ٨٩ .
(٣) سورة الحجر آية : ٧٢ .

وهذه أحكام تتعلق بالأيمان ورد ذكرها فى أحاديث الرسول ﷺ :

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)(١) وعنه رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول : « لا والكعبة » فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حلف بغير الله ، فقد كفر أو أشرك)(٢) .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان)(٣) . قال : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقا من كتاب الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ﴾(٤) .

وعن أبى أمامة إياس بن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة . فقال له رجل : وإن كان شيئا يسيرا يارسول الله ؟ قال : وإن كان قضيبا من أراك)(٥) .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)(٦) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب)(٧) .

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)(٨) .

قال الفقهاء فى الأيمان : جمع يمين وهى فى الشرع : تحقيق الأمر أو توكيده بذكر اسم الله تعالى أو صفة من صفاته . أو هو عقد يقوى به الحالف عزمه على الفعل أو الترك . واليمين والحلف والإيلاء والقسم بمعنى واحد . واليمين لا يكون إلا بذكر الله أو صفة من صفاته : سواء أكانت صفات ذات أم صفات أفعال كقوله : والله وعزة الله وعظمته وكبريائه وقدرته وإرادته وعلمه . وكذا الحلف بالمصحف أو القرآن أو سورة أو آية منه .

وفى القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾(٩) . ويقول : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ﴾(١٠)

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كانت يمين النبى ﷺ : (لا ومقلب القلوب)(١١) . وعن أبى

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ١ ص٢٩٧ ط دار الفكر .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٥٩٦ دار الفكر .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر .
(٤) سورة آل عمران آية/٧٧ .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٣٠٠ ط دار الفكر .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى جـ١ ص ٥٩١ ط دار الفكر .
(٧) المصدر السابق .
(٨) المصدر السابق جـ٢ ص ٧٥٦ .
(٩) سورة الذاريات الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .
(١٠) سورة المعارج الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .
(١١) نيل الأوطار للشوكانى جـ٨ ص ١٨٨ .

سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا اجتهد فى الدعاء قال : (والذى نفس أبى القاسم بيده)[1] .

ايم الله وعمر الله وأقسمت عليك : قسم :

ايمُ الله يمين ، لأنها بمعنى : والله - أو : وحق الله . ويمين الله يمين عند الأحناف والمالكية لأن معناها أحلف بالله .

الحلف بأنه غير مسلم ، أو الحلف بالبراءة من الإسلام :

من حلف بأنه يهودى أو نصرانى أو أنه برىء من الله أو من رسوله ﷺ ، إن فعل كذا ففعله . روى أبو داود والنسائى عن بريدة عن أبيه أن النبى ﷺ قال : (من حلف فقال : إنى برىء من الإسلام فإن كان كاذبا فهو كما قال ، وإن كان صادقا فلن يرجع إلى الإسلام سالما)[2] وعن ثابت بن الضحاك أن النبى ﷺ قال : (من حلف بغير ملة الإسلام فهو كما قال)[3]

شرط اليمين وركنها: يشترط فى اليمين : العقل والبلوغ والإسلام وإمكان البر ، والاختيار ، فإن حلف مكرها لم تنعقد يمينه . وركنها : اللفظ المستعمل فيها .

حكم اليمين : حكم اليمين أن يفعل الحالف المحلوف به فيكون بارا . أولا يفعله فيحنث وتجب الكفارة .

أقسام اليمين : تنقسم الأيمان أقساما ثلاثة : اليمين اللغو ــ اليمين المنعقدة ــ اليمين الغموس .

١ ــ **اليمين اللغو وحكمها :** يمين اللغو : هى الحلف من غير قصد اليمين ، كأن يقول المرء : والله لتأكلن أو لتشربن أو لتحضرن . ونحو ذلك لا يريد به يمينا ولا يقصد به قسما ، فهو من مسقط القول . فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : أنزلت هذه الآية ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ . فى قول الرجل : لا والله . وبلى والله . وكلا والله .

٢ ــ **اليمين المنعقدة وحكمها :** اليمين المنعقدة هى اليمين التى يقصدها الحالف ويصمم عليها ، فهى يمين متعمدة مقصودة وليست لغوا يجرى على اللسان بمقتضى العرف والعادة . وقيل : اليمين المنعقدة هى أن يحلف على أمر من المستقبل أن يفعله . وحكمها : وجوب الكفارة فيها عند الحنث .

يقول الله تعالى : **﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم ﴾** . ويقول : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾[4]

(١) فقه السنة للشيخ سيد سابق جـ٣ ص ١٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣ .
(٤) سورة المائدة آية : ٨٩ .

٣ ـ اليمين الغموس وحكمها : واليمين الغموس وتسمى أيضا الصابرة ، وهى اليمين الكاذبة التى تهضم بها الحقوق أو التى يقصد بها الغش والخيانة . وهى كبيرة من كبائر الإثم ، ولا كفارة فيها ، لأنها أعظم من أن تكفر ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى نار جهنم ، وتجب التوبة منها . ورد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب عليها ضياع هذه الحقوق .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾[١] .

روى أحمد رضى الله عنه وأبو الشيخ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (خمس ليس لهن كفارة : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، وبهت مؤمن ، ويمين صابرة يقطع بها مالا بغير حق)[٢] وروى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : (الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)[٣] . وروى أبو داود عن عمران بن حصين أن النبى ﷺ قال : (من حلف على يمين مصبورة كاذبا فليتبوأ بوجهه مقعده من النار)[٤] .

لاحنث مع النسيان أو الخطأ :

من حلف ألا يفعل شيئا ففعله ناسيا أو خطأ فإنه لا يحنث لقول الرسول ﷺ : (إن الله تجاوز لى عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[٥] . والله يقول : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾[٦]

يمين المكره غير لازمة :

لا يلزم الوفاء باليمين التى يكره المرء عليها ، ولا يأثم إذا حنث فيها للحديث المتقدم ، ولأن المكره مسلوب الإرادة ، وسلب الإرادة يسقط التكليف . ولهذا ذهب الأئمة الثلاثة إلى أن يمين المكره لاتنعقد .

كفارة اليمين :

تعريف الكفارة : الكفارة صيغة مبالغة من الكفر ، وهو الستر ، والمقصود بها هنا الأعمال التى تكفر بعض الذنوب وتسترها حتى لا يكون لها أثر يؤخذ به فى الدنيا ولا فى الآخرة .

والذى يكفر اليمين المنعقدة إذا حنث فيها الحالف : ١ ـ الإطعام ، ٢ ـ الكسوة ، ٣ ـ العتق ، على التخيير ، فمن لم يستطع فليصم ثلاثة أيام مرتبة ترتيبا تصاعديا ، أى تبدأ من الأدنى للأعلى فالإطعام أدناها ، والكسوة أوسطها والعتق أعلاها .

جواز الحنث للمصلحة :

الأصل أن يفى الحالف باليمين . ويجوز له العدول عن الوفاء ، إذا رأى فى ذلك مصلحة راجحة .

---

(١) سورة النحل آية : ٩٤ .
(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٢٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٢١ .
(٤) مصبورة : أى ألزم بها وحبس عليها وكانت لازمة من جهة الحكم .
(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق حـ ٢ ص ٢٣ .
(٦) سورة الأحزاب آية : ٥ .

يقول تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ ، أى لا تجعلوا الحلف بـالله مانعـا لكم من البر والتقـوى والإصلاح . ويقـول عز وجـل : ﴿ قد فـرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾[1] . أى شرع الله لكم تحليل الأيمان بعمل الكفارة . روى أحمد والبخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها ، فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك)[2]

أقسام اليمين باعتبار المحلوف عليه :

وعلى هذا يمكن تقسيم اليمين باعتبار المحلوف عليه إلى الأقسام الآتية :

١ ــ أن يحلف على فعل واجب أو ترك محرم . فهذا يحرم الحنث فيه ، لأنه تأكيد لما كلفه الله به من عبادة .

٢ ــ أن يحلف على ترك واجب أو فعل محرم . فهذا يجب الحنث فيه لأنه حلف على معصية كما تجب الكفارة .

٣ ــ أن يحلف على فعل مباح أو تركه . فهذا يكره فيه الحنث ويندب البر .

٤ ــ أن يحلف على ترك مندوب أو فعل مكـروه . فالحنث منـدوب ، ويكره التمـادى فيه وتجب الكفارة .

٥ ــ أن يحلف على فعل مندوب أو ترك مكروه ، فهذا طاعة لله ، فيندب له الوفاء ويكره الحنث .

الإيلاء

قوله تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ .

بعدما بين الله جل ذكره أحكام الأيمان فى الآيات السابقة ، ذكر هنا حكما خاصا يتعلق بيمين الرجل ألا يقرب زوجته ، وهذا ما يسمى بالإيلاء ، وله أحكام يذكرها الفقهاء فيما يلى :

تعريفه : الإيلاء شرعا هو الامتناع باليمين من وطء الزوجة . وقد كان الرجل فى الجاهلية يحلف على ألا يمس امرأته السنة والسنتين والأكثر من ذلك بقصد الإضرار بها ، فيتركها معلقة ، لا هى زوجة ، ولا هى مطلقة . فأراد الله ـ سبحانه ـ أن يضع حدًا لهذا العمل الضار ، فوقّته بمدة أربعة أشهـر ، يتروى فيهـا الرجل ، علّه يرجع إلى رشده ، فإن رجع فى تلك المدة أو فى آخرها بأن حنث فى اليمين ولامس زوجته وكفّر عن يمينه فبها وإلا طلق .

مدة الإيلاء : اتفق الفقهاء على أن من حلف ألا يمس زوجته أكثر من أربعة أشهر كـان موليـا ، واختلفوا فيمن حلف ألا يمسها أربعة أشهر ، فقال أبو حنيفة وأصحابه : يثبت له حكم الإيلاء . وذهب الجمهور ومنهم الأئمة الثلاثة إلى أنه لا يثبت له حكم الإيلاء ، لأن الله جعل له مدة أربعة أشهر وبعـد انقضائها : إما الفىء وإما الطلاق .

---

(١) سورة التحريم آية : ٢ .

(٢) نيل الأوطار للشوكانى جـ٨ ص ١٩٨ .

حكم الإيلاء : إذا حلف ألا يقرب زوجته فإن مسها فى الأربعة الأشهر انتهى الإيلاء ولزمته كفارة اليمين . وإذا مضت المدة ولم يجامعها ، فيرى جمهور العلماء أن للزوجة أن تطالبه إما بالوطء وإما بالطلاق . فإن امتنع عنهما فيرى مالك أن للحاكم أن يطلق عليه دفعا للضرر عن الزوجة . ويرى أحمد والشافعى وأهل الظاهر أن القاضى لا يطلق وإنما يضيق على الزوج ويحبسه حتى يطلقها بنفسه . وأما الأحناف فيرون أنه إذا مضت المدة ولم يجامعها فإنها تطلق طلقة بائنة ، بمجرد مضى المدة . ولا يكون للزوج حق المراجعة لأنه أساء فى استعمال حقه بامتناعه عن الوطء بغير عذر ، ففوت حق زوجته وصار بذلك ظالما لها . ويرى الإمام مالك أن الزوج يلزمه حكم الإيلاء إذا قصد الإضرار بترك الوطء وإن لم يحلف على ذلك ، لوقوع الضرر فى هذه الحال كما هو واقع فى حالة اليمين .

الطلاق الذى يقع بالإيلاء :

والطلاق الذى يقع بالإيلاء طلاق بائن لأنه لو كان رجعيا لأمكن للزوج أن يجبرها على الرجعة ؛ لأنها حق له ، وبذلك لا تتحقق مصلحة الزوجة ولا يزول عنها الضرر ، وهذا مذهب أبى حنيفة . وذهب مالك والشافعى وسعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن إلى أنه طلاق رجعى ، لأنه لم يقم دليل على أنه بائن ، ولأنه طلاق زوجة مدخول بها من غير عوض ولا استيفاء عدة .

عدة الزوجة المولى منها :

ذهب الجمهور إلى أن الزوجة المولى منها تعتد كسائر المطلقات لأنها مطلقة ، وقال جابر بن زيد : لا تلزمها عدة إذا كانت قد حاضت فى مدة الأربعة أشهر ثلاث حيضات ، قاله ابن رشد ، وقال بقوله طائفة ، وهو مروى عن ابن عباس ، وحجته أن العدة إنما وضعت لبراءة الرحم ، وهذه قد حصلت لها البراءة .

أحكام تتعلق بالأسرة

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

المفردات : التربص : الانتظار . والقروء : واحدها قُرء (بضم القاف وفتحها) ، يطلق تارة على حيض المرأة وأخرى على طهرها ، ومن ثم قال الحنفية والحنابلة : المراد به الحيض : وقال المالكية والشافعية : المراد

به الطهر ، وما فى أرحامهن يشمل الولد والحيض . والبعولة واحدهم بعل ، وهو الزوج ، والمراد بالدرجة هنا ما جاء فى قوله : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾[1] .

هذه آية جامعة لأحكام عظيمة تقوم عليها حياة الأسرة ، فبعدما بين الله تعالى حكم الإيلاء وقال : ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾[2] ؛ بين هذا أن المطلقة لا يحل لها أن تتزوج من آخر إلا بعد انقضاء عدتها ، وعلى المطلقة أن تتربص بنفسها ، أى تنتظر حتى تحيض ثلاث مرات إن كانت من ذوات الحيض . ولله تعالى حكمة بالغة فى وجوب العدة . قال الفقهاء : وحكمة مشروعية العدة معرفة براءة الرحم حتى لا تختلط الأنساب بعضها ببعض ، وتهيئة فرصة للزوجين لإعادة الحياة الزوجية إن رأيا أن الخير فى ذلك . كذلك التنويه بفخامة أمر النكاح ؛ حيث لم يكن أمراً ينتظم إلا بجميع الرجال ، ولا ينفك إلا بانتظار طويل ، ولولا ذلك لكان بمنزلة لعب الصبيان ، ينظم ثم يفك فى الساعة . إن مصالح النكاح لا تتم حتى يوطنا أنفسهما على إدامة هذا العقد ظاهراً ، فإن حدث حادث يوجب فك النظام لم يكن بد من تحقيق صورة الإدامة فى الجملة بأن تتربص مدة تجد لتربصها بالا وتقاسى لها عناء .

ولنأخذ الآن فى بيان أحكام العدة : فقد عرفها الفقهاء بأنها مأخوذة من العد والإحصاء : أى ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام : والأقراء ، وهى اسم للمدة التى تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن الزواج بعد وفاة زوجها أو فراقه لها : وكانت العدة معروفة فى الجاهلية ، وكانوا لا يكادون يتركونها ، فلما جاء الإسلام أقرها لما فيها من مصالح ، وأجمع العلماء على وجوبها لقول الله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ .

وقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس : (اعتدّى فى بيت ابن أم مكتوم) .

وقد بين الفقهاء أنواعها فقالوا العدة أنواع : ١ - عدة المرأة التى تحيض هى ثلاث حيضات . ٢ - عدة المرأة التى يئست من الحيض وهى ثلاثة أشهر . ٣ - عدة المرأة التى مات عنها زوجها وهى أربعة أشهر وعشرا ما لم تكن حاملاً . ٤ - عدة الحامل أن تضع حملها . ونفصل أحكام العدة فيما يلى :

الزوجة إما أن تكون مدخولا بها أو غير مدخول بها .

عدة الزوجة غير المدخول بها : والزوجة غير المدخول بها إن طلقت فلا عدة عليها لقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾[3] .

فإن كانت غير مدخول بها وقد مات عنها زوجها فعليها العدة كما لو كان قد دخل بها لقوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾[4] ، إنما وجبت العدة عليها وإن لم يدخل بها وفاءً للزوج المتوفى ومراعاة لحقه .

---

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢٢٦، ٢٢٧ .
(٣) سورة الأحزاب الآية : ٤٩ .
(٤) سورة البقرة الآية : ٢٣٤ .

عدة المدخول بها : وأما المدخول بها فإما أن تكون من ذوات الحيض أو من غير ذوات الحيض . فإن كانت من ذوات الحيض فعدتها ثلاثة قروء لقول الله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ ، والقروء جمع قرء والقرء : الحيض ، ورجح ذلك ابن القيم ، فقال : إن لفظ القرء لم يستعمل فى كلام الشارع إلا للحيض ولم يجىء عنه فى موضع واحد استعماله للطهر ، فحمله فى الآية على المعهود المعروف من خطاب الشارع أولى بل يتعين ، فإنه قد قال به ﷺ وهو المعبر عن الله وقد بلغه قومه وبه نزل القرآن ، فإذا أورد المشترك فى كلامه على أحد معنييه ؛ وجب حمله فى سائر كلامه عليه إذا لم يثبت إرادة الآخر فى شىء من كلامه البتة ، ويصير هو لغة القرآن التى خوطبنا بها وإن كان له معنى آخر فى كلام غيره ، وإذا ثبت استعمال الشارع للقرء فى الحيض علم أن هذا لغته ، فيتعين حمله عليها فى كلامه ، ويدل على ذلك ما فى سياق الآية من قوله تعالى :

﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ﴾ ،وهذا هو الحيض والحمل عند عامة المفسرين . والمخلوق فى الرحم إنما هو الحيض الوجودى وبهذا قال السلف والخلف ولم يقل أحد أنه الطهر . وأيضاً فقد قال سبحانه :

﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾[1] فجعل كل شهر بإزاء حيضة ، وتعليق الحكم بعدم الحيض لا بعدم الطهر والحيض .

وقال فى موضع آخر : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾[2] ، معناه لاستقبال عدتهن لا فيها ، وإذا كانت العدة التى يطلق لها النساء مستقبلية بعد الطلاق ، فالمستقبل بعدها إنما هو الحيض ، فإن الطاهر لا تستقبل الطهر إذ هى فيه وإنما تستقبل الحيض بعد حالها التى هى فيها .

أما عدة غير الحائض . فهى ثلاثة أشهر ، ويصدق ذلك على الصغيرة التى لم تبلغ والكبيرة التى لم تحض سواء أكان الحيض لم يسبق لها أم انقطع حيضها بعد وجوده ، لقول الله تعالى : ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾[3] .

وتنتهى عدة الحامل بوضع الحمل سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها لقول الله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾[4] .

أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرا ما لم تكن حاملاً لقول الله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾[5] ، وإن طلق امرأته طلاقاً رجعياً ثم مات

---

(١) سورة الطلاق الآية : ٤ .
(٢) سورة الطلاق الآية : ١ .
(٣) سورة الطلاق آية : ٤ .
(٤) سورة الطلاق آية : ٤ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢٣٤ .

عنها وهى فى العدة ، اعتدت بعدة الوفاة لأنه توفى عنها وهى زوجته .

أما انقضاء العدة فيحدث فيما يلى : إذا كانت المرأة حاملاً فإن عدتها تنقضى بوضع الحمل ، وإذا كانت العدة بالأشهر فإنها تحتسب من وقت الفرقة أو الوفاة حتى تستكمل ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر وعشرا ، وإذا كانت بالحيض فإنها تنقضى بثلاث حيضات ، وذلك يعرف من جهة المرأة نفسها .

قـولـه تعـالى :﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن مـا خلق الله فى أرحـامهن إن كنَّ يؤمن بـالله واليـوم الآخر ﴾ . المراد بما خلق الله فى أرحامهن : الحيض والولد كما سبق بيانه ، وتعليق ذلك على الإيمان بالله واليوم الآخر ، لأن هذا الأمر مرجعه إلى إيمان المرأة ومدى خشيتها من الله وخوفها من حسابه ، فعليها أن تكون صادقة فى شأن عدتها ، لا تنقص ولا تزيد ولا تكذب ابتغاء النفقة أو تعجيل الزواج بغير المطلق ، ومن هنا فقد كان الإسلام حريصاً على إبقاء الحياة الزوجية حيث جعل للزوج الذى طلق زوجته طلاقا رجعياً الحق فى أن يراجعها ما دام ذلك فى العدة . قال تعالى : ﴿ وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ . ومما يشجع على ردها فى العدة أن الشرع الحكيم ألزمها أن تقضى العدة فى بيت الزوجية . قال الفقهاء : يجب على المعتدة أن تلزم بيتها (بيت الزوجية) حتى تنقضى عدتها ، ولا يحل لها أن تخرج منه ولا يحل لزوجها أن يخرجها منه ، ولو وقع الطلاق أو حصلت الفرقة وهى غير موجودة فى بيت الزوجية ، وجب عليها أن تعود إليه بمجرد علمها :

يقول تعالى : ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربّكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾(١) .

ومن حرص الإسلام على السعادة الزوجية أنه ناشد الرجال أن تتوفر إرادتهم على الإصلاح ، قال تعالى : ﴿ إن أرادوا إصلاحاً ﴾ وقال : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾(٢) . كما أوصى الزوجات بحسن المعاشرة حيث قال تعالى : ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾(٣) . وقد نظم الإسلام الحقوق والواجبات بين الزوجين ، فلكل حقوق وعلى كل واجبات ، فمن حق المرأة الإنفاق عليها ، ومن واجباتها التربية والتدبير لأولاد الرجل ، والحرص على ماله بحيث تحفظه فى عرضها وماله . « إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى عرضها ومالك » . وقد بلغ من عناية المسلمين بهذه الحقوق وتلك الواجبات أن ابن عباس كان يقول : إننى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى ، ومن ثم جـاء قولـه تعالى : ﴿ ولهن مثـل الذى عليهن بالمعروف ﴾ ، أى لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ، وتلك عدالة الإسلام النظيفة التى لا تعرف الظلم ولا تهضم الحقوق . أما قوله جل شأنه :﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ فيفسره ، قوله عز وجـل :

---

(١) سورة الطلاق آية : ١ .
(٢) سورة النساء الآية : ١٩ .
(٣) سورة النساء آية : ٣٤ .

﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾[1] ومهما قال الكتاب السوفسطائيون الذين يهرفون بما لا يعرفون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فإن الله تعالى أقام الوزن بالقسط ولم يخسر الميزان . فهل من حق المرأة أن تكون قيمة على زوجها وقد خلق الله الرجال أقوى جسما وعقلاً ؟ فأى الفريقين أحق بقيادة البيت ؟ لقد خلق الله المرأة أكثر حنانا وعطفا ، وتلك خاصية التربية تحققها على أكمل الوجوه ، فإذا كان الرجل أقوى عقلاً وجسماً فهو الحقيق بالقيام على شئون البيت الخارجية ، وإذا كانت المرأة أكثر حنانا فهى الجديرة بالتربية والتدبير ورعاية الأولاد . والمسئولية فى الإسلام موزعة توزيعاً حكيماً عادلاً ، قال ﷺ : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها)[2] . أما ما يردده هؤلاء المتغربون الذين صنعت رؤ وسهم فى عواصم الشرق الملحد والغرب المنحل ، فليس هذا تشريفاً أو تكريماً للمرأة ، إنما هو تدمير وتحطيم لها عندما تزاحم الرجال فى أعمال لا شأن لها بها ، وعندما تغادر بيتها وتسلم أطفالها للحاضنات . . إنها بذلك تكون كالطفل الذى يحمل السلاح فى يده ، فيجنى به عليه وعلى غيره ، أما مكانها الصحيح اللائق برسالتها فهو الذى قال فيه الحكيم الخبير : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾[3] .

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

تلك عدالة الاسلام ، فليست المساواة أن تزاحم المرأة الرجال فى الأعمال ووسائل المواصلات ، وتكشف ما أمر الله تعالى بستره ، إنما العدالة والمساواة فى الحقوق والواجبات ، فلكل من الرجل والمرأة حقوق وعلى كل واجباته . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾[4] . ومن الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء أن يقال إن هذه الآيات خاصة بأمهات المؤمنين ، وهن نساء رسول الله ﷺ ، ونحن نقول : إن الخطاب فى هذه الآيات موجه إلى نساء المؤمنين وإلا فهل نساء المؤمنين غير مأمورات بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وذكر الله المتمثل فى آياته وسنة رسوله ؟ وهل نساء المؤمنين غير منهيات عن التبرج فى قوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)[5] . أما قوله تعالى : ﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾[6] ، فإن المقصود بلستن هنا ، الثواب والعقاب المتمثل فى قوله جل جلاله : ﴿ يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريماً ﴾[7] ، جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾ ، فقد جاءت لستن بعد الثواب والعقاب ، وإلا فكان المنطق يقتضى أن تأتى الآية : ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ بعد تمام الأوامر والنواهى . وقد بين الله تعالى ذلك الأمر بياناً شافياً وهو يحذر من التبرج قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٩ ط دار الفكر .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٣ .
(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٤ .
(٥) سورة الأحزاب الآية : ٣٣ .
(٦) سورة الأحزاب الآية : ٣٢ .
(٧) سورة الأحزاب الآيتان : ٣٠، ٣١ .

المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[١] ، فعطف نساء المؤمنين فى الحكم على أزواج النبى الأمين حتى يقطع المعاذير والحجج الواهية على الذين يمضغون الهواء ويحاولون أن يفتلوا من الرمال حبالاً ، يدعون أنهم بذلك أنصار المرأة ، والله يعلم أنهم أعداؤها ومحطموها ومدمروها ، إنهم أقزام يحاولون أن يطاولوا السماء وأن يمدوا إلى الشمس يدا شلاء ، فالسماء والإسلام صنوان ، والشمس وتعاليم الله متلازمان فى الوضوح والصفاء والنقاء والسمو الروحى . وتبارك الله إذ يختم آية الأحكام المتعلقة بالأسرة فيقول : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ . فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز الذى شرع من الأحكام ما فيه عزة الزوجين وكرامة الأسرة ، حكيماً يضع الأمور فى نصابها ، ويقيم المعايير إقامة لا عوج فيها ولا التواء .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا

من الذى شرع هذه الاحكام ؟
﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[٢] ، ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[٣] .

أحكام تتعلق بالطلاق

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ ۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

ومن أحكام الحياة الزوجية أحكام تتعلق بالطلاق ، وهو أبغض الحلال إلى الله تعالى كما أخبر بذلك الصادق المعصوم . وقد شرع الله الطلاق ليكون دواء لداء استعصى علاجه ؛ فشريعة الإسلام شريعة عالمية ، فلابد أن يتوافر فى صيدليته كل الأدوية . وقد جعل الله الزواج شركة رأسمالها المودة والرحمة ، وجعله آية من آياته ونعمة من نعمه ، قال جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤] وقد صحح النبى ﷺ مفاهيم قوم ظنوا أن ترك الزواج مقربة إلى الله فقال : (أما إنى لأتقاكم وأخشاكم لله لكنى أقوم وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى)[٥] . لكن قد يطرأ على الحياة الزوجية ما يعكر صفوها فتتراكم

(١) سورة الأحزاب آية : ٥٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٤٠ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٦ .
(٤) سورة الروم آية : ٢١ .
(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ صـ١١ .

الغيوم فى سمائها ، عندئذ يعالج الإسلام تلك المنغصات علاجاً حكيماً فيقول : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيرا ﴾[1] فهذه مراتب وأحوال عندما يقع النشوز من المرأة . . تعالج بالوعظ فيذكرها بالله ويذكرها بأقوال رسول الله ﷺ ويذكرها بأولادهما وبالأيام التى مضت وبالنعم التى أنعم الله بها عليهما وأن الحياة لا تخلو من كدر ولكن الله تعالى جعل مع الضيق فرجاً ومع الصبر نصراً ومع كل شدة مخرجاً ومع العسر يسرا ، فالليل مهما طال فلابد له من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر .

وعليه فى وعظه أن يخوفها من ألسنة السوء وقالة الحاسدين المبغضين ، فإن لم يجد الوعظ طريقه إلى قلبها فليهجرها فى المضاجع ، بحيث لا يفارق المكان الذى تنام فيه إلى مكان آخر ، لأن الله يقول فى المضاجع ولم يقل اهجروهن من المضاجع ، وذلك حتى يستطيع أن يروض سلاح كبريائها الذى تدل به عليه وهو الإغراء بالجنس ، ففى ذلك تهدئة لثورتها إذا ما أرادت أن تضع زوجها فى اليم مكتوفا وتقول له إياك إياك ان تبتل ، فإن لم يؤثر فيها الهجر ، بأن كانت باردة ، فعليه أن يؤدبها بالضرب الخفيف ، فإن من الطباع طباعاً تقرعها العصى ، كما أن هناك طباعاً تكفيها المقالة . وقد يكون الضرب أهون بكثير من الذهاب إلى المحاكم وساحات القضاء حيث تذاع أسرار البيوت فتلوكها الألسنة ويحدث هناك فجور فى الخصومة ، فيرمى كل من الزوجين الآخر بماليس فيه ؛ وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليا كبيرا ﴾[2]

هذا إن كان النشوز من جانب المرأة ، أما إن كان من جانب الرجل ، فقد بين الله سبيل الإصلاح فى قوله : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾[3] فقد يكون الرجل من الذين يصلحهم المال إن كانت زوجته ذات مال فلا بأس أن تطفىء غضب قلبه ببذل شىء من مالها ، فقد طبعت النفوس على الشح وجبلت على البخل إلا ما رحم ربى ، فبذل المال أهون من تحطيم صرح الزوجية وتركه قاعاً صفصفا تنعق فوقه البوم والغربان بعد ما كان روضة غناء ، تصدح فوق أشجارها بلابل السعادة . أما إن كان النشوز من الزوجين كليهما فإن الله جلت قدرته بيّن سبيل الإصلاح فى قوله : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان علياً خبيراً ﴾[4] .
وما أجمل ما كان يفهمه عمر بن الخطاب من كتاب الله ، فقد كان محدثاً ملهماً نافذ البصيرة عميق الفهم قوى الحجة عبقرى الفؤاد صائب الرأى ثاقب الفكر . حدث أن أرسل حكمين ليصلحا بين زوجين ولكنهما عادا ولم يصلحا ، فعلاهما بدرته ، أى عصاه ، قالا : يا أمير المؤمنين وما ذنبنا إذا لم يصطلحا ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لو كان فى نيتكما أن يصطلحا لأصلح الله بينهما ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ . وما أمس حاجة المسلمين فى هذا العصر الذى تقطعت فيه أواصر المحبة وتمزقت

---

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٢) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٣) سورة النساء آية : ١٢٨ .
(٤) سورة النساء آية : ٣٥ .

فيه وشائج الألفة ، وما أمس حاجتهم إلى المصلحين الذين طهرت قلوبهم من الحقد وأيديهم من الرشوة وثيابهم من الدنس ، الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[١] .

فإذا لم يجد الوعظ والهجر والضرب سبيلاً إلى قلب المرأه الناشز ، ولم يجد الصلح وبذل المال سبيلاً إلى قلب الزوج الناشز ، ولم يجد التحكيم سبيلاً إلى قلب كل منهما ، فهل يترك الإسلام الموقف بينهما جامداً متحجراً كالماء الراكد حتى يعتدى كل منهما على الآخر للتخلص منه إما بالقتل أو الضرب المبرح أو إذاعة الأسرار التى حرم الله نشرها ، قال ﷺ : (إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة والمرأة تفضي إلى الرجل ثم ينشر كل منهما حديث الآخر[٢]) . إن الإسلام لا يعرف السلبية ، بل هو إيجابى فى الخير دائماً ، هل يترك الزوجين متنازعين متنافرين متناحرين ، إن هذه سلبية قاتلة ، إن الإسلام فى علاج مشاكل الدنيا كالنسيم الهادىء يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالحرارة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾[٣] ، فتأمل هذا التعبير العظيم الذى يعبر عن الطلاق بالتفرق ليشعر كل من الزوجين بمرارة الفرقة ، وعندئذ يحن كل منهما إلى الآخر فيكون الوفاق ويقع الإصلاح . وقد بلغ من حساسية الإسلام فى تلك المواقف أنه لا ينتظر وقوع البلاء ، بل إنه بمجرد الخوف من شبح المشكلة يدعو إلى إصلاحها قبل أن يصير الشرر ناراً عظمى فيقول تعالى فى حق تعدد الزوجات : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٤] ، مجرد الخوف ، ويقول : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾[٥] ، ويقول : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما ﴾[٦] ، ويقول : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾[٧] ، وعندما يعين الطلاق علاجا لداء استعصى علاجه قال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ ، أى مرة بعد مرة ، فقد يأتى الله بالفرج الذى قال فيه : ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾[٨] ثم يقول تعالى : ﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾[٩] ولحكمة أرادها الله يقول فى سورة الطلاق : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾[١٠] ، ويقول جلت قدرته : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾[١١] . ويقول عظمت حكمته : ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾[١٢] ويقول وسعت رحمته فى نفس السورة :

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .
(٢) حديث شريف .
(٣) سورة النساء آية : ١٣٠ .
(٤) سورة النساء آية : ٣ .
(٥) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٦) سورة النساء آية : ٣٥ .
(٧) سورة النساء آية : ١٢٨ .
(٨) سورة الطلاق آية : ١ .
(٩) سورة الطلاق آية : ١ .
(١٠) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .
(١١) سورة الطلاق الآيتان : ٤ ، ٥ .
(١٢) سورة الطلاق آية : ٧ .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا ﴾[١] .

هذا هو الإسلام وتلك عظمته ، ما أمر بشىء وقال العقل ليته ما أمر ، وما نهى عن شىء وقال العقل ليته ما نهى .

وللطلاق أحكام نبينها فيما يلى :

قال الفقهاء فى تعريف الطلاق : هو حل رابطة الزواج وإنهاء العلاقة الزوجية ، ثم يعقب الفقهاء بقولهم : إن استقرار الحياة الزوجية غاية من الغايات التى يحرص عليها الإسلام ، وعقد الزواج إنما يعقد للدوام والتأبيد إلى أن تنتهى الحياة ليتسنى للزوجين أن يجعلا من البيت مهداً يأويان إليه وينعمان فى ظلاله الوارفة وليتمكنا من تنشئة أولادهما تنشئة صالحة .

ومن أجل هذا كانت الصلة بين الزوجين من أقدس الصلات وأوثقها ، وليس أدل على قدسيتها من أن الله سبحانه سمى العهد بين الزوج وزوجته بالميثاق الغليظ فقال : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظا ﴾[٢] .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين هكذا موثقة مؤكدة ، فإنه لا ينبغى الإخلال بها ولا التهوين من شأنها ، وكل أمر من شأنه أن يوهن من هذه الصلة ويضعف من شأنها فهو بغيض إلى الإسلام لفوات المنافع وذهاب مصالح كل من الزوجين . فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق)[٣] ، وأى إنسان أراد أن يفسد ما بين الزوجين من علاقة فهو فى نظر الإسلام خارج عنه وليس له شرف الانتساب إليه ؛ يقول الرسول ﷺ : (ليس منا من خبب[٤] امرأة على زوجها)[٥] .

وقد يحدث أن بعض النسوة يحاول أن يستأثر بالزوج ويحل محل زوجته ، والإسلام ينهى عن ذلك أشد النهى ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها[٦] وتنكح ، فإنما لها ما قدر لها)[٧] . والزوجة التى تطلب الطلاق من غير سبب ولا مقتض حرام عليها رائحة الجنة فعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : (أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس ، فحرام عليها رائحة الجنة)[٨] . وقد كان الطلاق فى الجاهلية كما ذكرته أم المؤمنين عائشة قالت : كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهى امرأته إذا راجعها وهى فى العدة ، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته : والله لأطلقك فتبينى منى ولا آويك أبداً ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضى راجعتك . فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت حتى جاء النبى ﷺ فأخبرته فسكت النبى ﷺ حتى نزل القرآن : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً من كان طلق ومن لم يكن طلق .

---

(١) سورة الطلاق آية : ١١ .
(٢) سورة النساء آية : ٢١ .
(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٢٤١ .
(٤) خَبب : أفسد .
(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٢٤٣ .
(٦) أى لتخل عصمة أختها من الزواج ولتحظى بزوجها .
(٧) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٢٤٣ .
(٨) المصدر السابق .

وقد جعل الإسلام الطلاق من حق الرجل وحده ، لأنه أحرص على بقاء الزوجية التى أنفق فى سبيلها من المال ما يحتاج إلى إنفاق مثله أو أكثر منه إذا طلق وأراد عقد زواج آخر . وعليه أن يعطى المطلقة مؤخر المهر ومتعة الطلاق ، وأن ينفق عليها فى مدة العدة . ولأنه بذلك وبمقتضى عقله وحكمته يكون أصبر على ما يكره من المرأة فلا يسارع إلى الطلاق لكل غضبة يغضبها أو سيئةٍ منها يشق عليه احتمالها ، وقد تكون المرأة أسرع منه غضباً وأقل احتمالاً وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقاته مثل ما عليه ، فهى أجدر بالمبادرة إلى حل عقدة الزوجية لأدنى الأسباب أو لما لا يعد سبباً صحيحاً إن أعطى لها هذا الحق . والدليل على صحة هذا التعليل الأخير أن الإفرنج لما جعلوا طلب الطلاق حقاً للرجال والنساء على السواء كثر الطلاق عندهم فصار أضعاف ما عند المسلمين .

مسائل تتعلق بالطلاق

من يقع منه الطلاق ؟ اتفق العلماء على أن الزوج العاقل البالغ المختار هو الذى يجوز له أن يطلق وأن طلاقه يقع . فإذا كان مجنوناً أو صبياً أو مكرها فإن طلاقه يعتبر لغوا لو صدر منه . لأن الطلاق تصرف من التصرفات التى لها آثارها ونتائجها فى حياة الزوجين ، ولابد من أن يكون المطلق كامل الأهلية حتى تصح تصرفاته . وإنما تكتمل الأهلية بالعقل والبلوغ والاختيار ، وفى هذا يروى أصحاب السنن عن على كرم الله وجهه عن النبى ﷺ أنه قال : (رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل)[١] ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (كل طلاق جائز إلا طلاق المغلوب على عقله)[٢] ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما ــ فحين يكرهه اللصوص فيطلق ــ فليس بشىء (البخارى) .

الطلاق قبل الزواج

لا يقع الطلاق إذا علقه على التزوج بأجنبية كأن يقول : إن تزوجت فلانة فهى طالق ، لما رواه الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : (لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك)[٣] ، قال الترمذى : حديث حسن وهو أحسن شىء روى فى هذا الباب وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم .

الإشهاد على الطلاق

ذهب جمهور الفقهاء من السلف والخلف إلى أن الطلاق يقع بدون إشهاد ، لأن الطلاق من حقوق الرجل ولا يحتاج إلى بينة كى يباشر حقه ، ولم يرد عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة ما يدل على مشروعية الإشهاد ، وذلك لأن الطلاق حق من حقوق الزوج وقد جعله الله بيده ولم يجعل الله لغيره حقاً فيه ، قال

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٣ .

تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ ، وقال جل جلاله : ﴿ إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ .

قال ابن القيم : فجعل الطلاق لمن نكح لأن له الإمساك وهو الرجعة .

وعن ابن عباس قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال يا رسول الله : سيدى زوجنى أمته ، ويريد أن يفرق بينى وبينها ! قال : فصعد رسول الله ﷺ المنبر فقال : (يا أيها الناس : ما بال أحدكم يزوج عبده أمته ثم يريد أن يفرق بينهما إنما الطلاق لمن أخذ بالساق) .

وخالف فى ذلك فقهاء الشيعة الإمامية فقالوا : إن الإشهاد شرط فى صحة الطلاق ، واستدلوا بقول الله سبحانه فى سورة الطلاق : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ﴾ .

فذكر الطبرى : أن الظاهر أنه أمر بالإشهاد على الطلاق وأنه مروى عن أئمة أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ، وأنه للوجوب وشرط فى صحة الطلاق[1] .

وبعد بيان تلك المسائل المتعلقة بالطلاق ننصح لكل مسلم أن يملك نفسه عند الغضب ، فإن الله تعالى جعل لكل ضيق فرجاً ولكل شدة مخرجاً ، وقد حدث أن أحد الصالحين ابتلى بزوجة ناشز فقيل له ما ضر لو طلقتها ؟ فقال : أخشى أن أطلقهافيبتلى بها غيرى ، ومعاذ الله أن أكون سبباً فى أذى عباد الله . قالوا فماذا أنت صانع ؟ قال : أصبر وأحتسب . فأيما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله مثلما أعطى أيوب على بلائه ، وأيما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثلما أعطى آسيا امرأة فرعون . وعلى المسلم أن يتأدب بأدب الإسلام ، إذا طلق فلا يفشى سراً كان بالأمس قد خفى ، ولا ينكر عيشاً قد تقادم عهده ، فإن حسن العهد من الإيمان . لما طلق « قتادة » زوجته قيل له : لم طلقتها ؟ فقال : العاقل لا يذيع سر أهله .

قوله تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ . فمن طلق مرتين فإن الإسلام يؤدب أتباعه ويصحح سلوكهم الأخلاقى . فبعد التطليق يقال للمطلق إما أن تراجعها قبل انقضاء عدتها وتمسكها بالمعروف لا ضرر ولا ضرار ، وصاحب المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكأً ، والبر لا يبلى ، ومن زرع الخير حصده خيراً ، ولن يضيع جميل أينما زُرع ، والحياة الزوجية احترام وتخلق ومودة ورحمة : ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[2] .

والمعروف هو ما تعارف الناس عليه من الحق والخير والجمال . فمن لم يُمسك بمعروف فعليه التسريح بإحسان ، والإحسان مرحلة فوق العدل ، قال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ والله تعالى إن يُثبنا فبمحض الفضل ، والفضل إحسان ، وإن يعاقب فبمحض العدل ، والعدل حق ، فمن لم يعاشر بالمعروف فليفارق بإحسان .

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٢) سورة النساء آية : ١٩ .

ومعنى تسريحها بإحسان ، أى ينتظر الرجل حتى تنتهى عدة المطلقة فيعطيها حقها كاملاً غير منقوص ، قال تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾[1] وليذهب كل لما يسر الله له .

إذا شئت أن تحيـا سليمـاً من الأذى وحظك موفـور وعـرضـك صـين
لسـانك لا تـذكر بـه عـورة امـرىء فـكلك عـورات ولـلنـاس ألسـن
وعينـك إن أبـدت إليـك مسـاوئـاً فصنهـا وقل يـا عـين للنـاس أعـين
فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفـارق ولكن بـالـتى هى أحـسن

قال تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ .

أقام الإسلام الميزان بالقسط ولم يخسر الميزان ، فالعدل لحمة الإسلام ، والحق سداه ، ومن وجوه هذه العدالة أن الله تعالى نهى الأزواج عن أن يضيقوا على زوجاتهم حتى لا يضطروهن أن يفتدين أنفسهن بدفع شىء من المال للرجال ، كما نهى الزوجات أن يطلبن الطلاق لغيرما حاجة ، قال النبى ﷺ : (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غيرما بأس فحرام عليها رائحة الجنة)[2] . قال الفقهاء : الحياة الزوجية لا تقوم إلا على السكن والمودة والرحمة وحسن المعاشرة وأداء كل من الزوجين ما عليه من حقوق ، وقد يحدث أن يكره الرجل زوجته أو تكره هى زوجها ، والإسلام فى هذه الحال يوصى بالصبر والاحتمال ، وينصح بعلاج ما عسى أن يكون من أسباب الكراهية ، قال الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[3] . وفى الحديث الصحيح : (لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقا رضى خلقاً آخر)[4] .

إلا أن البغض قد يتضاعف ويشتد الشقاق ويصعب العلاج وينفد الصبر ويذهب ما أسس عليه البيت من السكن والمودة والرحمة وأداء الحقوق ، وتصبح الحياة الزوجية غير قابلة للإصلاح ، وحينئـذ يرخص الإسلام بالعلاج الوحيد الذى لابد منه .

فإن كانت الكراهية من جهة الرجل فبيده الطلاق ، وهو حق من حقوقه ، وله أن يستعمله فى حدود ما شرع الله . وإن كانت الكراهية من جهة المرأة ، فقد أباح لها الإسلام أن تتخلص من الزوجية بطريق الخلع ، بأن تعطى الزوج ما كانت أخذت منه باسم الزوجية لينهى علاقته بها ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ . وفى أخذ الزوج الفدية عدل وإنصاف ، إذ أنه هو الذى أعطاها المهر وبذل تكاليف الزواج والزفاف وأنفق ، وهى التى قابلت هذا كله بالجحود وطلبت الفراق ، فكان من الإنصاف أن ترد عليه ما أخذت .

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٠ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٤٥٤
(٣) سورة النساء آية : ١٩ .
(٤) فقه السنة للشيخ سابق جـ ٢ ص ٢٩٤ .

وإن كانت الكراهية منهما معاً : فإن طلب الزوج التفريق فبيده الطلاق وعليه تبعاته ، وإن طلبت الفرقة فبيدها الخلع وعليها تبعاته كذلك .

قيل إن الخلع وقع فى الجاهلية ، ذلك أن عامر بن الظرب زوج ابنته ابن أخيه عامر بن حارث ، فلما دخلت عليه نفرت منه ، فشكا إلى أبيها فقال : لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك ، وقد خلعتها منك بما أعطيتها .

الخـلع

تعريفه : والخلع الذى أباحه الإسلام مأخوذ من خلع الثوب إذا أزاله ، لأن المرأة لباس الرجل والرجل لباس لها قال الله تعالى : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ .

ويسمى الفداء ، لأن المرأة تفتدى نفسها بما تبذله لزوجها ، وقد عرفه الفقهاء بأنه : « فراق الرجل زوجته ببدل يحصل عليه » . والأصل فيه ما رواه البخارى والنسائى عن ابن عباس قال : « جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقالت : (يا رسول الله ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ولكنى أكره الكفر فى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . فقال : رسول الله ﷺ اقبل الحديقة وطلقها تطليقة)[1] .

ألفاظ الخلع : والفقهاء يرون أنه لا بد فى الخلع من أن يكون بلفظ الخلع أومشتق منه أو لفظ يؤدى معناه ، مثل المبارأة والفدية ، فإذا لم يكن بلفظ الخلع ولا بلفظ فيه معناه كأن يقول لها : أنت طالق فى مقابل مبلغ كذا ، وقبلت ، كان طلاقا على مال ولم يكن خلعاً .

وناقش ابن القيم هذا الرأى فقال : « ومن نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها ، يعد فسخاً بأى لفظ كان حتى بلفظ الطلاق » .

وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، ونقل عن ابن عباس ، ثم قال ابن تيمية : « ومن اعتبر الألفاظ ووقف معها واعتدها فى أحكام العقود ، جعله بلفظ الطلاق طلاقاً » .

ثم قال ابن القيم مرجحاً هذا الرأى : « وقواعد الفقه وأصوله تشهد أن المرعى فى العقود حقائقها ومعانيها لا صورها وألفاظها » ومما يدل على هذا أن النبى ﷺ ، أمر ثابت بن قيس أن يطلق امرأته فى الخلع تطليقة ، ومع هذا أمرها أن تعتد بحيضة ، وهذا صريح فى أنه فسخ ، ولو وقع بلفظ الطلاق ، وأيضاً فإنه ـ سبحانه ـ علق عليه أحكام الفدية بكونه فدية ، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ ، ولم يعين الله ـ سبحانه ـ لها لفظاً معينا . وطلاق الفداء طلاق مقيد ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق ، كما لا يدخل تحتها فى ثبوت الرجعة والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٢٩٥ .

العوض فى الخلع : الخلع - كما سبق - إزالة ملك النكاح فى مقابل مال ، فالعوض جزء أساسى من مفهوم الخلع ، فإذا لم يتحقق العوض لا يتحقق الخلع ، فإذا قال الزوج لزوجته : خالعتك ، وسكت لم يكن ذلك خلعا ؛ لأنه إن نوى الطلاق كان طلاقاً رجعياً ، وإن لم ينو شيئاً لم يقع به شىء لأنه من ألفاظ الكناية التى تفتقر إلى النية .

كل ما جاز أن يكون مهراً جاز أن يكون عوضاً فى الخلع :

ذهب الشافعية إلى أنه لا فرق فى جواز الخلع بين أن يخالع على الصداق أو على بعضه أو على مال آخر ، سواء كان أقل من الصداق أم أكثر ، ولا فرق بين العين والدين والمنفعة ، وضابطه : أن كل ما جاز أن يكون صداقاً جاز أن يكون عوضاً فى الخلع لعموم قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ، ولأنه عقد على بضع فأشبه النكاح ، ويشترط فى عوض الخلع أن يكون معلوما متمولاً مع سائر شروط الأعواض ، كالقدرة على التسليم واستقرار الملك وغير ذلك ، لأن الخلع عقد معاوضة ، فأشبه البيع والصداق ، وهذا صميم فى الخلع الصحيح . أما الخلع الفاسد فلا يشترط العلم به ، فلو خالعها على مجهول كثوب غير معين أو على حمل هذه الدابة ، أو خالعها بشرط فاسد ، كشرط ألا ينفق عليها وهى حامل ، أو لا سكنى لها ، أو خالعها بألف إلى أجل مجهول ونحو ذلك ، بانت منه بمهر المثل .

أما حصول الفرقة ، فلأن الخلع إما فسخ أو طلاق ، فإن كان فسخاً فالنكاح لا يفسد بفساد العوض ، وكذا فسخه ، إذ الفسوخ تحكى العقود ، وإن كان طلاقا فالطلاق يحصل بلا عوض ، وما له حصول بلا عوض.فيحسن مع فساد العوض ، كالنكاح ، بل أولى لقوة الطلاق وسرايته .

أما الرجوع إلى مهر المثل ، فلأن قضية فساد العوض ارتداد العوض الآخر ، والبضع لا يرتد بعد حصول الفرقة ، فوجب رد بدله ، ويقاس بما ذكرنا ما يشبهه ، لأن ما لم يكن ركناً فى شىء لا يضر الجهل به كالصداق .

ومن صور ذلك ما لو خالعها على ما فى كفها - ولم يعلم - فإنها تبين منه بمهر المثل ، فإن لم يكن فى كفها شىء ففى الوسيط أنه يقع طلاقاً رجعياً ، والذى نقله غيره أنه يقع بائناً بمهر المثل ، أما المالكية فقالوا : يجوز الخلع بالغرر كجنين ببطن بقرة أو غيره ، فلو نفق الحمل فلا شىء له وبانت .

وجاز بغير موصوف وبثمرة لم يبد صلاحها وبإسقاط حضانتها لولده وينتقل الحق له . وإذا خالعها بشىء حرام كخمر أو مسروق علم به فلا شىء له وبانت وأريق الخمر ورد المسروق لربه ، ولا يلزم الزوجة شىء بدل ذلك حيث كان الزوج عالماً بالحرمة - علمت هى أم لا - أما لو علمت هى بالحرمة دونه فلا يلزمه الخلع .

الزيادة فى الخلع على ما أخذت الزوجة من الزوج :

ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يجوز أن يأخذ الزوج من الزوجة زيادة على ما أخذت منه ، لقول الله

تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ، وهذا عام يتناول القليل والكثير . روى البيهقى عن أبى سعيد الخدرى قال : « كانت أختى تحت رجل من الأنصار فارتفعا إلى رسول الله ﷺ فقال : أتردين حديقته ؟ قالت : وأزيد عليها ، فردت عليه حديقته وزادته »(١) .

ويرى بعض العلماء : أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ منها أكثر مما أخذت منه . لما رواه الدارقطنى بإسناد صحيح أن أبا الزبير قال : « إنه كان أصدقها حديقة ، فقال النبى ﷺ : أتردين عليه حديقته التى أعطاك ؟ قالت : نعم وزيادة ، فقال النبى ﷺ : أما الزيادة فلا ولكن حديقته . قالت : نعم »(٢) .

وأصل الخلاف فى هذه المسألة خلاف فى تخصيص عموم الكتاب بالأحاديث الآحادية . فمن رأى أن عموم الكتاب يخصص بأحاديث الآحاد . قال : لا تجوز الزيادة ، ومن ذهب إلى أن عموم الكتاب لا يخصص بأحاديث الآحاد رأى جواز الزيادة .

وفى « بداية المجتهد قال » : « فمن شبهه بسائر الأعواض فى المعاملات رأى أن القدر فيه راجع إلى الرضا ، ومن أخذ بظاهر الحديث لم يجز أكثر من ذلك ، فكأنه رآه من باب أخذ المال بغير حق » .

الخلع دون مقتض :

والخلع إنما يجوز إذا كان هناك سبب يقتضيه ؛ كأن يكون الرجل معيباً فى خَلقه ، أو سيئاً فى خُلقه ، أو لا يؤدى للزوجة حقها ، وأن تخاف المرأة ألا تقيم حدود الله فيما يجب عليها من حسن الصحبة وجميل المعاشرة كما هو ظاهر الآية ، فإن لم يكن ثمة سبب(٣) يقتضيه فهو محظور : لما رواه أحمد والنسائى من حديث أبى هريرة : (المختلعات هنَّ المنافقات) وقد رأى العلماء الكراهة .

الخلع بتراضى الزوجين :

والخلع يكون بتراضى الزوج والزوجة ، فإذا لم يتم التراضى منهما فللقاضى إلزام الزوج بالخلع ، لأن ثابتاً وزوجته رفعا أمرهما للنبى ﷺ ، وألزمه الرسول بأن يقبل الحديقة ويطلق كما تقدم فى الحديث .

الشقاق من قبل الزوجة كاف فى الخلع :

قال الشوكانى : وظاهر أحاديث الباب أن مجرد وجود الشقاق من قبل المرأة كاف فى جواز الخلع ، واختار ابن المنذر أنه لا يجوز حتى يقع الشقاق منهما جميعا ، وتمسك بظاهر الآية ، وبذلك قال طاوس والشعبى وجماعة من التابعين ، وأجاب عن ذلك جماعة ، منهم الطبرى ، بأن المراد أنها إذا لم تقم بحقوق الزوج كان ذلك مقتضياً لبغض الزوج لها ، فنسبت المخالفة لذلك . . ويؤيد عدم اعتبار ذلك من جهة الزوج أنه ـ ﷺ ـ لم يسأل ثابتاً عن كراهته لها عند إعلانها بالكراهة له .

(١) فقه السنة للشيخ سابق جـ ٢ ص ٢٩٨ .
(٢) فقه السنة للشيخ سابق جـ ٢ ص ٢٢٨ .
(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٢٦١

حرمة الإساءة إلى الزوجة لتختلع :

يحرم على الرجل أن يؤذى زوجته بمنع بعض حقوقها حتى تضجر وتختلع نفسها ، فإن فعل ذلك فالخلع باطل والبدل مردود ولو حكم به قضاء .

وإنما حرم ذلك حتى لا يجتمع على المرأة فراق الزوج والغرامة المالية ، قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾(١) .

ولقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا ﴾(٢) .

ويرى بعض العلماء نفاذ الخلع فى هذه الحالة مع حرمة العضل ، وأما الإمام مالك فيرى أن الخلع ينفذ على أنه طلاق ويجب على الزوج أن يرد البدل الذى أخذه من زوجته .

جواز الخلع فى الطهر والحيض :

يجوز الخلع فى الطهر والحيض ولا يتقيد وقوعه بوقت ، لأن الله ـ سبحانه ـ أطلقه ولم يقيده بزمن دون زمن ، قال الله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ولأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أطلق الحكم فى الخلع بالنسبة لامرأة ثابت بن قيس من غير بحث ولا استفصال عن حال الزوجة ، وليس الحيض بأمر نادر الوجود بالنسبة للنساء .

قال الشافعى : (ترك الاستفصال فى قضايا الأحوال مع قيام الاحتمال ينزل منزلة العموم فى المقال ، والنبى ـ ﷺ ـ لم يستفصل هل هى حائض أم لا ؟ ولأن المنهى عنه الطلاق فى الحيض من أجل ألا تطول عليها العدة . وهى ـ هنا ـ التى طلبت الفراق واختلعت نفسها ورضيت بالتطويل)(٣) .

هل الخلع طلاق أم فسخ ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن الخلع طلاق بائن لما تقدم فى الحديث من قول رسول الله ﷺ : (خذ الحديقة وطلقها تطليقة)(٤) ولأن الفسوخ إنما هى التى تقتضى الفرقة الغالبة للزوج من الفراق مما ليس يرجع إلى اختياره ، وهذا راجع إلى الاختبار فليس بفسخ .

وذهب بعض أهل العلم ، منهم أحمد وداود من الفقهاء وابن عباس وعثمان وابن عمر من الصحابة ، إلى أنه فسخ ، لأن الله تعالى ذكر فى كتابه الطلاق فقال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ ، ثم ذكر الافتداء ثم قال :

---

(١) سورة النساء آية : ١٩ .
(٢) سورة النساء آية : ٢٠
(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٢٠٠
(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٢٩٥

﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ﴾[١] ، فلو كان الافتداء طلاقاً لكان الطلاق الذى لا تحل له فيه إلا بعد زواج هو الطلاق الرابع . ويجوّز هؤلاء أن الفسوخ بالتراضى قياساً على فسوخ البيع كما فى الإقالة .

قال ابن القيم : والذى يدل على أنه ليس بطلاق أنه سبحانه وتعالى رتب الطلاق بعد الدخول الذى لم يستوف عدده ثلاثة أحكام كلها منتفية عن الخلع .

أحدها : أن الزوج أحق بالرجعة فيه .

الثانى : أنه محسوب من الثلاث ، فلا تحل بعد استيفاء العدد إلا بعد دخول زوج وإصابته .

الثالث : أن العدة فيه ثلاثة قروء .

وقد ثبت بالنص والإجماع أنه لا رجعة فى الخلع ، وثبت بالسنة وأقوال الصحابة أن العدة فيه حيضة واحدة ، وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين ووقوع ثالثة بعده ، وهذا ظاهر جداً فى كونه ليس بطلاق .

وثمرة هذا الخلاف تظهر فى الاعتداد بالطلاق ، فمن رأى أنه طلاق احتسبه طلقة بائنة ، ومن رأى أنه فسخ لم يحتسبه ، فمن طلق امرأته تطليقتين ثم خالعها ، ثم أراد أن يتزوجها فله ذلك وإن لم تنكح زوجاً غيره ، لأنه ليس له غير تطليقتين والخلع لغو .

ومن جعل الخلع طلاقاً قال : لم يجز له أن يرتجعها حتى تنكح زوجاً غيره ، لأنه بالخلع كملت الثلاث .[٢]

هل يلحق المختلعة طلاق ؟

المختلعة لا يلحقها طلاق ، سواء قلنا بأن الخلع طلاق أو فسخ ، وكلاهما يصير المرأة أجنبية عن زوجها ، وإذا صارت أجنبية عنه فإنه لا يلحقها الطلاق . وقال أبو حنيفة : المختلعة يلحقها الطلاق ، ولذلك لا يجوز عنده أن ينكح مع المبتوتة أختها .

عدة المختلعة : ثبت من السنة أن المختلعة تعتد بحيضة ، ففى قصة ثابت أن النبى ﷺ قال له : (خذ الذى لها عليك وخل سبيلها . قال : نعم فأمرها رسول الله ﷺ أن تعتد بحيضة واحدة وتلحق بأهلها) . رواه النسائى بإسناد رجاله ثقات . وإلى هذا ذهب عثمان وابن عباس ، وأصح الروايتين عن أحمد ، وهو مذهب إسحق بن راهويه واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وقال من نظر هذا القول وجده مقتضى قواعد الشريعة ، فإن العدة إنما جعلت ثلاث حيض ليطول زمن الرجعة ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة فى مدة العدة ، فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود براءة رحمها من الحمل ، وذلك يكفى فيه حيضة كالاستبراء .

وقال ابن القيم : هذا مذهب أمير المؤمنين عثمان بن عفان وعبد الله بن عمر والربيع بنت معوذ

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٠ .

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

وعمها ـ رضى الله عنهم ـ وهو من كبار الصحابة ، فهؤلاء الأربعة من الصحابة لا يعرف لهم مخالف منهم ، كما رواه الليث بن سعد عن نافع مولى ابن عمر : أنه سمع الربيع بنت معوذ بن عفراء ، وهى تخبر عبد الله ابن عمر أنها اختلعت من زوجها على عهد عثمان بن عفان فجاء عمها إلى عثمان فقال له : إن ابنة معوذ اختلعت من زوجها اليوم أفتنتقل ؟ فقال عثمان : لتنتقل ولا ميراث بينهما ولا عدة عليها ، إلا أنها لا تنكح حتى تحيض حيضة ، خشية أن يكون بها حبل . فقال عبد الله بن عمر : فعثمان خيرنا وأعلمنا .

ونقل عن أبى جعفر النحاس فى كتاب « الناسخ والمنسوخ » أن هذا إجماع من الصحابة . ومذهب الجمهور من العلماء أن المختلعة عدتها ثلاث حيض إن كانت ممن يحيض ا . هـ .[1] .

وهكذا يقيم الإسلام الحلول الواقعية على أساس من الحق والعدل والخير ، فما من داء إلا وله فى الإسلام دواء ، وما من مشكلة إلا ولها فى ضوء الإسلام حل .

قوله تعالى : ﴿ **تلك حدود الله فلا تعتدوها** ﴾ ، المراد بالحدود تعاليم الإسلام من أوامر ونواه التى تشمل أحكامه ، ومعنى لا تعتدوها أى لا تتجاوزوها بالمخالفة ، فلله تعالى فرائض فأدوها ، ولـه حدود فلا تعتدوها ، وله حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها وإنما قال هنا ﴿ **فلا تعتدوها** ﴾ لأن الآية فيها أمر يجب التزامه كقوله تعالى : ﴿ فإمسـاك بمعروف أو تسـريح بإحسان ﴾ ، والأمر يقتضى عدم الاعتداء ، وإنما قال فى آية الصيام : ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾[2] لأن الآية فيها نهى فى قوله تعالى : ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾[3] ، والنهى يقتضى عدم القرب ، وهذا كتاب الله ﴿ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ **ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ ،[4] أى من يتجاوز أحكام الله بالمخالفة فقد انخرط فى سلك الظالمين ، فهو ظالم لنفسه باقتراف المعصية ، ظالم لغيره بتجاوز العدل ، فلا يلومن إلا نفسه .

الطلقة الثالثة

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

أى إنه إذا طلق رجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أى حتى يطأها زوج آخر فى نكاح صحيح . فلو تزوجت ولم يدخل بها الزوج الثانى فإنها لا تحل للأول . فعن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها

(١) المصدر السابق ص ٣٠٥ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٨٧
(٣) سورة البقرة آية : ١٨٧
(٤) سورة هود آية : ١

فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى الأول قال : (لا . . حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك)[١] .

والمقصود من الزوج الثانى أن يكون راغباً فى المرأة قاصداً لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج .

والمراد بالعسيلة الجماع ، روى الإمام أحمد بإسناده عن أمنا عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ألا إن العسيلة الجماع)[٢] : ومن هنا فلا يشترط إنزال المنى ، فإن كان قصد الزوج الثانى أن يحلها للأول فهذا هو المحلل الذى وردت الأحاديث بذمه ولعنه .

روى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : (لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله)[٣] . وروى ابن ماجه بإسناده عن عقبة بن عامر قال . قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال . « هو المحلل » لعن الله المحلل والمحلل له)[٤] .

وعن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل فقال : (لا . . إلا نكاح رغبة لا نكاح دلة ولا استهزاء بكتاب الله ، ثم يذوق عسيلتها)[٥] .

قال الحاكم فى مستدركه : حدثنا أبو العباس الأصم عن عمر عن نافع عن أبيه أنه قال : (جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول ؟ فقال : لا . . إلا نكاح رغبة ، وكنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ) . ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد[٦] .

قوله تعالى : ﴿ فإن طلقها) ، أى الزوج الثانى بعد الدخول بها ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا ﴾ أى المرأة والزوج الأول ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ أى يتعاشرا بالمعروف ، كما قال تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف ﴾[٧] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ [٨] .

قوله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ ، المقصود بالحدود ، كما ذكرنا ، الأحكام والتعاليم والشرائع ، والله تعالى يبين لعباده كما قال جل شأنه : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾[٩] .

---

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٢٧٨
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤١٠ ط الشعب .
(٣) ابن كثير جـ ١ ص ٤١١ ط الشعب .
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٤١٢ .
(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٤١٢ .
(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٤١٣ .
(٧) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .
(٨) سورة النساء آية : ١٩ .
(٩) سورة النساء آية : ٢٦ .

وقوله تعالى : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ ، لأن العلم أساس المعرفة ، والمعرفة الصحيحة ينبنى عليها العمل الصحيح ، فمن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين .

مسألة :

اختلف الأئمة ، رحمهم الله ، فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم تزوجت بآخر فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها ، ثم تزوجها الأول ، هل تعود إليه بما بقى من الثلاث ، كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وهو قول طائفة من الصحابة رضى الله عنهم ، أو يكون الزوج الثانى قد هدم ما قبله من الطلاق ؟ فإذا عادت إلى الأول تعود لمجموع الثلاث كما هو مذهب أبى حنيفة وأصحابه ، رحمهم الله ، وحجتهم أن الزوج الثانى إذا هدم الثلاث فإنه يهدم ما دونها بطريق الأولى والأحرى .

ولسائل أن يقول : ما الحكمة فى الزواج الثانى والدخول بها فيه إذا طلق الرجل امرأته ثلاثا ؟ ونقول : إن فيه تأديبا للزوج الأول الذى لم يضع الأمور فى نصابها ، فقد جعل الله الطلاق من حقه فطلق مرة ، ولم يصبر فطلق الثانية ، ولم يتخذ جانب الحكمة فطلق الثالثة ؛ إنه بذلك ضيع فرصة منحه الله إياها ، فإذا ما رغب فيها بعد الثالثة فإنه عندئذ لابد أن يعرف قيمة الزوجة ، فبناء عليه يجب أن يصونها وألا يتخذ آيات الله هزوا ، فجعل الله الزواج الثانى تأديباً له وتهذيباً ، والله عزيز حكيم ، يريد لعباده الخير حتى تسير سفينة الحياة فى جو معتدل .

آداب إسلامية

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

المفردات : يقال بلغ البلد : إذا وصل إليه ، ويقال أيضاً بلغه إذا شارفه ودنا منه ، يقول الرجل لصاحبه : إذا بلغت مكة فاغتسل بذى طوى ، يريد دنوت منها ، لأن ذى طوى قبلها . والأجل يطلق على المدة كلها وعلى آخرها ، فيقال لعمر الإنسان أجل وللموت الذى ينتهى به أجل ، والمراد هنا زمن العدة . والمراد بالإمساك المراجعة ، والمعروف ما ألفته العقول واستحسنته النفوس شرعا وعرفا وعادة ، والمراد

بالتسريح ترك المراجعة حتى تنقضى عدتها . والضرار : الضرر والاعتداء : الظلم . وآيات الله : هى آيات أحكام الطلاق والرجعة والخلع ونحو ذلك . وهزوا : أى مهزوءًا بها بالإعراض عنها والتهاون فى المحافظة عليها لقلة الاكتراث بالنساء وعدم المبالاة بهن . ونعمة الله هى الرحمة التى جعلها بين الزوجين . وما أنزل عليكم من الكتاب أى من آيات أحكام الزوجين التى تحفظ لكم الهناءة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة والحكمة هى سر تشريع الأحكام وبيان ما فيها من منافع ومصالح .

جاء فى تفسير هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال : كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها ثم يفعل ذلك ليضارها ويعضلها ، فأنزل الله هذه الآية .

وعن السدى قال : نزلت فى رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار ، طلق امرأته حتى انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة ثم راجعها ثم طلقها مضارة لها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ .

إن الاسلام بتعاليمه السمحة يطارد الظلم أيا كان موقعه ، إنه وهو يبين لنا أحكام الطلاق يرشدنا أن المرأة إذا طلقت وقرب انتهاء عدتها فعلى الرجل إما الإمساك بمعروف وإما التسريح بإحسان ، وليس بعد المعروف والإحسان إلا الإضرار بها ، وذلك إذا راجعها قبل انتهاء عدتها ، يريد إطالة العدة والإضرار بها كلما قربت العدة على الانتهاء راجعها ثم طلقها . إن الله تعالى لا يحب الظلم ، ومن ثم فإنه يؤكد الأمر بالإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان فيقول : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ ، ويحكم على من فعل هذا بأنه قد ظلم نفسه ، والظلم عاقبته وخيمة ، وهو ظلمات يوم القيامة ، فالنساء لا يكرمهن إلا كريم ، وكان رسول الله ﷺ خير الناس لأهله ؛ ولا يهينهن إلا لئيم . وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً .

لا تـظلمن إذا مـا كنت مقتـدراً ... فـالظلم تـرجـع عقباه إلى النـدم

تنـام عينـك والمـظلوم منتبـه ... يـدعـو عليـك وعـين الله لم تنم .

قال ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . .)[١] ، وقال ﷺ : (استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت لتقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ ، المراد بالآيـات هنا آيـات الطلاق التى بـين فيها أحكامه ، يدل على ذلك سياقها ، أى لا تطلقوا ثم تراجعوا ثم تطلقوا ، وكأن الحياة الزوجية مسرح أعد للهزل ، قال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ النعمة هنا لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٣] ومن أخص هذه النعم نعمة الزوجية التى قال فيها جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم

(١) الترغيب والترهيب حـ ٣ ص ٢٧٧ ط الشعب .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى حـ ١ ص ١٥٤ ط دار الفكر
(٣) سورة إبراهيم آية : ٣٤ .

مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] وقال ﷺ : ﴿ يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للطرف وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[2] وما أراد الرسول بذلك إلا تهذيب الغرائز وتنظيم الدوافع وتصليح السلوك . وقد حذر النبى ﷺ من الانحراف حيث قال : (اتق المحارم تكن أعبد الناس)[3] وقال : (شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم)[4] وقد ورد أن رجلاً من الصالحين ماتت زوجته ، فلما فرغ من دفنها مر بقوم كان له بهم صداقة ، فتزوج منهم ودخل فى نفس الليلة ، فقيل له فى ذلك فقال : خشيت أن ألقى الله عزباً .

ألست معى أن الزواج نعمة عظمى من نعم الله على عباده ؟ فاذكروا هذه النعمة بالشكر ، واذكروا ما أنزل الله عليكم من الكتاب وما فيه من إرشاد وتوجيه وتأديب وتهذيب ، وما فى السنة من بيان وتفصيل وتوجيه وتشريع ، فقد اشتمل كل منهما على أصول العقائد وشعائر العبادات ومبادىء الأحكام وقواعد النظام ومناهج السلوك وتصحيح الفكر المنحرف ما لو أخذتم به لنلتم السعادة فى الدنيا والآخرة .

والله تعالى يعظكم بهذه الأحكام .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ . دليل قاطع وبرهان ساطع على أن أساس الحياة الزوجية هو تقوى الله ، ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم [5] . قيل لمحمد بن كعب القرظى وكان غنياً وقد حضرته الوفاة ماذا تركت لأولادك فقال ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى . قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدا ﴾[6] إن التقوى هى السلاح الأقوى ، هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ ، هذا لإيقاظ الهمم ، فليعلم العبد أن الله تعالى مطلع على سره وعلانيته ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛ فليحذر أن يراه الله على معصية ، وليجتهد أن يراه الله دائماً على طاعة .

لا تعضلوا النساء

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

(١) سورة الروم آية : ٢١
(٢) الترغيب والترهيب حـ ٣ ص ٢٩ ط الشعب
(٣) الجامع الصغير للسيوطى حـ ١ ص ٢٤ ط الشعب .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى حـ ١ ص ٧٦ ط الشعب .
(٥) سورة التوبة آية : ١٠٩
(٦) سورة النساء آية ٩

المفردات : البلوغ : الانتهاء . والأجل هنا آخر المدة المضروبة لانقضاء العدة لأقربها كما فى الآية التى قبلها ، لأن الإمساك بالمعروف والتسريح لا يتأتى بعد انقضاء العدة ، إذ انقضاؤ ها إمضاء للتسريح ، فلا محل معه للتخيير ، والتخيير يستمر إلى قرب الانقضاء ، والمذكور هنا النهى عن العضل وإجازة النكاح ، وهذا لا يكون إلا بعد انقضاء العدة ، ومن ثم أثر عن الشافعى أنه قال : دل السياق على افتراق البلوغية والعضل : الحبس والتضييق والعظة : النصح والتذكير بالخير على وجه يرق له القلب ويبعث على العمل . والزكاء : النماء والبركة .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضى عدتها ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤ ها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعوها . وكذا روى العوفى عنه عن ابن عباس أيضاً وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعى والزهرى والضحاك : أنها أنزلت فى ذلك وهذا الذى قالوه ظاهر من الآية ، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها ، وأنه لابد فى النكاح من ولى كما قاله الترمذى وابن جرير .

قال ﷺ : (لانكاح إلا بولى مرشد وشاهدى عدل)[1]

وفى هذه المسألة اختلاف بين العلماء .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار الحزنى وأخته ، فقال البخارى رحمه الله فى كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية عن معقل بن يسار قال : كانت لى أخت تخطب إلى . وقال البخارى : وعن الحسن أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل ، فنزلت : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ، ذلك الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ إنما يتعظ به وينتفع ويأتمر به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، حيث يعلم أن فى عضل النساء ومنعهن من الزواج ظلم ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر يعلمون أنهم غداً بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيعرضون ، ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[2] .

قال ﷺ : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض)[3] ، وسنة رسول الله التيسير فى الزواج ، حتى قال لأحد الصحابة يريد الزواج : (التمس ولو خاتماً من حديد ، قال : لا أجد ، قال : تزوجها بما تحفظ من القرآن)[4] وقال (إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة)[5] ويقول : (من يمن المرأة يسر نكاحها وحسن خليقتها)[6] . قوله تعالى : ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ أى ما بينته لكم من الأحكام أعظم بركة وأطهر سلوكاً ، ثم يقول تعالى : ﴿ والله يعلم وأنتم

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .
(٢) سورة الشعراء آية : ٢٢٧ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٥٦ دار الفكر .
(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ١٥٦ .
(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ١٥٨ .
(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ١٥٨ .

لا تعلمون ﴾ أى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[1] أين الخير من الشر ، إذ هو غيب لا يعلمه إلا الله ، فنفذوا أحكامه وطبقوا شرائعه وأقيموا دولة الإسلام في بيوتكم تقم على أرضكم ، فإن الذى شرع هذه الأحكام هو الذى علم ما يكون وعلم ما كان وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

أحكام تتعلق بالرضاعة

* وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

المفردات : -الحول والعام يقعان على صيفه وشتائه كاملين ، والسنة تبتدىء من أى يوم عددته من العام إلى مثله ، والمولود له : هو الوالد ، والتكليف : الإلزام ، والوسع ضد الضيق ، وهو ما تتسع له القدرة ولا يبلغ آخر مداها ، والطاقة آخر درجات القدرة ، فليس بعدها إلا العجز التام مأخوذة من آخر طاقة ، (فتلة) من الطاقات التى يتألف منها الحبل ، والمضارة : مشاركة كل من الوالدين للآخر فى الضرر ، فتفيد أن كل إضرار من أحدهما للآخر بسبب الولد إضرار بنفسه ، إذ هذا يستلزم ضر الولد ، وكيف نحسن تربية ولد بين أبوين هم كل منهما إيذاء الآخر وضرره ، والفصال : الفطام ، لأنه يفصل الولد عن أمه ويفصلها منه ، فيكون مستقلا فى غذائه دونها ، والتشاور والمشاورة : استخراج الرأى من المستشارين ، ولاجناح عليهما : أى لا حرج ، واسترضعت المرأة الطفل : أى اتخذتها مرضعاً له ، ما آتيتم : أى مـا ضمنتم ، والتزمتم بالمعروف : أى على الوجه المتعارف المستحسن شرعاً وعادة .

بعد بيان الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية من حيض وإيلاء وعدة ورجعة وطلاق وأدب وتخلق بخلق الإسلام ، بعد هذا كله ذكر سبحانه وتعالى أحكاما هنا تتعلق تعلقا وثيقا بالحياة الزوجية ونظام الأسرة . ألا وهى أحكام الرضاعة : فغذاء الطفل بعد الولادة أمر من الأمور التى اهتم بها الشارع الحكيم ؛ فبعد أن كان الطفل فى رحم الأم جنينا يتغذى بغذاء الأم ويتنفس بتنفسها أصبح بعد ولادته فى حاجة إلى غذاء ، فكانت الرضاعة غذاءً له وهو لا يستغنى عن الغذاء ، فأرشد الله تعالى الوالدات أن يرضعن أولادهن ، وهذا أمر فى

(١) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

صورة الخبر ، ويبن سبحانه أن مدة الرضاعة حولان كاملان وذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة ، والأم هى أولى الناس برضاعة أولادها ، لأنها لا تغذيه لبنا فحسب إنما تغذيه عطفا وحنانا وقدرات عقلية وخلقية ونفسية ، فقد نرى الطفل إذا بكى وحملته غير أمه ازداد بكاءً ، فإذا ما حملته أمه استراح وكف عن البكاء ، فما الذى أعلمه أنها أمه ؟ إنه يعرفها بدقات قلبها ، لذا فإن الإسلام يحيط الأولاد بعناية فائقة ، وتزداد عنايته بهم وهم فى المهد ، ذلك لأن المهد ، هو النواة الأولى التى ينمو الطفل على أساسها وقد عنى الإسلام أيضا بالجانب الصحى للطفل حيث أوصى برضاعته وجعل أولى الناس بالرضاعة الأمهات ، لأنها أعظم الناس به رحمة وأكثرهم به عناية وأحفظهم له أمانة .

وقد اشتملت آيات الكتاب العزيز على الصحة الغذائية ، ومنها آية الرضاعة ، كما اشتملت أيضا على الصحة الوقائية ، فحرم الإسلام الميتة والدم ولحم الخنزير ، كما حرم الخمر ؛ كما اشتملت على الطب الاجتماعى ، فشرع الإسلام الزواج وجعله نعمة ينعم الله بها على عباده . قال عزَّ من قائل : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[1] . لما اشتملت الآيات على الطب النفسانى ، قال تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[2] .

وبالإضافة إلى هذه العناية فقد بين الإسلام خطوط التربية وفق مراحل النمو ، فأمر بأن تكون التربية على الوجه التالى : جاء فى الأثر : لاعبه سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا .

وللفقهاء أحكام تتعلق بالرضاعة لابد من معرفتها قالوا :

قال الشيخ السيد سابق : المحرمات بسبب الرضاع : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهن : الأم ، البنت ، الأخت ، العمة ، الخالة ، بنات الأخ ، وبنات الأخت . وهى التى بينها الله تعالى فى قوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾[3] وعلى هذا فتنزل المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على المرضع ، هى وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب . فتحرم :

١ ـ المرأة المرضعة ، لأنها بإرضاعها تعد أما للرضيع
٢ ـ أم المرضعة لأنها جدة له .
٣ ـ أم زوج المرضعة ـ صاحب اللبن ـ لأنها جدة كذلك .
٤ ـ أخت الأم ، لأنها خالة الرضيع .
٥ ـ أخت زوجها ـ صاحب اللبن ـ لأنها عمته .
٦ ـ بنات بنيها وبناتها ، لأنهن بنات إخوته وأخواته .
٧ ـ الأخت سواء أكانت أختا لأب وأم ، أم أختا لأم ، أم أختا لأب .

(١) سورة الروم آية : ٢١ .
(٢) سورة الزمر آية : ٥٣ .
(٣) سورة النساء آية : ١٢٣ .

الرضاع الذى يثبت به التحريم :

الظاهر أن الإرضاع الذى يثبت به التحريم هو مطلق الإرضاع ، ولا يتحقق إلا برضعة كاملة ، وهى أن يأخذ الصبى الثدى ويمتص اللبن منه ولا يتركه إلا طائعا من غير عارض يعرض له . فلو مص مصة أو مصتين ، فإن ذلك لا يُحَرِّم لأنه دون الرضعة ولا يؤثر فى الغذاء . قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ : (لاتحرم المصة ولا المصتان) ، رواه الجماعة إلا البخارى .

وللعلماء فى هذه المسألة عدة آراء نجملها فيما يأتى :

١ ــ إن قليل الرضاع وكثيره سواء فى التحريم أخذاً بإطلاق الإرضاع فى الآية ، ولما رواه البخارى ومسلم عن عقبة بن الحارث قال : تزوجت أم يحيى بنت أبى إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : « قد أرضعتكما » ، فأتيت النبى ﷺ فذكرت له ذلك فقال : (وكيف قيل ؟ دعها عنك) فترك الرسول ﷺ السؤال عن عدد الرضعات ، وأمره بتركها دليل على أنه لا اعتبار إلا بالإرضاع ، فحيث وجد اسمه وجد حكمه . ولأنه فعل يتعلق به التحريم ، فيستوى قليله وكثيره كالوطء الموجب له . ولأن إنشاز العظم ، وإنبات اللحم يحصل بقليله وكثيره وهذا مذهب « علىٍّ و ابن عباس والحسن البصرى وأبى حنيفة » .

٢ ــ إن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات متفرقات لما رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن عائشة قالت : « كان فيما نزل من القرآن » عشر رضعات معلومات يحرِّمن ؛ ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ « وهن فيما يقرأ من القرآن » . وهذا مذهب عبد الله بن مسعود ، وإحدى الروايات عن عائشة والشافعى .

٣ ــ إن التحريم يثبت بثلاث رضعات فأكثر ، لأن النبى ﷺ قال : (لا يحرم المصة ولا المصتان) . وهذا صريح فى نفى التحريم بما دون الثلاث فيكون التحريم منحصرا فيما زاد عليهما . وإلى هذا ذهب أبو عبيد وأبو ثور ، وابن المنذر ورواية عن أحمد .

لبن المرضعة يحرم مطلقا :

التغذية بلبن المرضعة محرم ، سواء أكان شربا أو وجورا[١] أو سعوطا[٢] حيث كان يغذى الصبى ويسد جوعه ، ويبلغ قدر رضعة ، لأنه يحصل بالإرضاع من إنبات اللحم ، وإنشاز العظم ، فيساويه فى التحريم .

اللبن المختلط بغيره : إذا اختلط لبن المرأة بطعام أو شراب أو دواء ، أو لبن شاة أو غيره ، وتناوله الرضيع فإن كان الغالب لبن المرأة حرم وإن لم يكن غالبا فلا يثبت به التحريم . وهذا مذهب الاحناف والمزنى وأبى ثور .[٣]

---

(١) الوجور : أن يصب اللبن فى حلق الصبى من غير ثدى .
(٢) السعوط أن يصب اللبن فى أنفه .
(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٧٤ .

الشهادة على الرضاع :

شهادة المرأة الواحدة مقبولة فى الرضاع إذا كانت مرضية ، لما رواه عقبة بن الحارث أنه تزوج أم يحيى بنت أبى إهاب.فجاءت أمة سوداء فقالت : « قد أرضعتكما » فلما ذكرت ذلك للنبى ﷺ قال : (وكيف وقد زعمت أنها أرضعتكما ؟ فنهاه عنها .) . احتج بهذا الحديث : طاووس . والزهرى وابن أبى ذئب والأوزاعى ورواية عن أحمد على أن شهادة المرأة الواحدة مقبولة فى الرضاع . وذهب الجمهور إلى أنه لا يكفى فى ذلك شهادة المرضعة لأنها شهادة على فعل نفسها . وقد أخرج أبو عبيد عن عمر ، والمغيرة بن شعبة وعلى بن أبى طالب وابن عباس أنهم امتنعوا عن التفريق بين الزوجين بذلك . ولو فتح هذا الباب لم تشأ امرأة أن تفرق بين زوجين إلا فعلت . ومذهب الأحناف أن الشهادة على الرضاع لابد فيها من شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ولا يقبل فيها شهادة النساء وحدهن ، لقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ﴾[1] . وروى البيهقى : أن عمر رضى الله عنه أتى بامرأة شهدت على رجل وامرأته أنها أرضعتهما . فقال لا ، حتى يشهد رجلان أو رجل وامرأتان .

وعن الشافعى رضى الله عنه : أنه يثبت بهذا ، وبشهادة أربع من النساء لأن كل امرأتين كرجل ، ولأن النساء يطلعن على الرضاع غالبا كالولادة . وعند مالك : تقبل فيه شهادة امرأتين بشرط فشو قولهما بذلك قبل الشهادة .

أبوة زوج المرضع للرضيع :

إذا أرضعت امرأة رضيعا صار زوجها أبا للرضيع وأخوه عمًّا له ، لما تقدم من حديث حذيفة ، ولحديث عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : (ائذنى لأفلح أخى أبى القُعَيس فإنه عمك) . وكانت امرأته أرضعت عائشة رضى الله عنها . وسئل ابن عباس عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما جارية والأخرى غلاما : أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ قال : « لا » اللقاح واحد . وهذا رأى الأئمة الأربعة ، والأوزاعى والثورى . وممن قال به من الصحابة على وابن عباس رضى الله عنهما .

ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من الناس يتساهل فى أمر الرضاع فيرضعون الولد من امرأة ، أو من عدة نسوة ، دون عناية بمعرفة أولاد المرضعة وأخواتها ، ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ، ليعرفوا ما يترتب على ذلك من الأحكام كحرمة النكاح وحقوق هذه القرابة الجديدة التى جعلها الشارع كالنسب فكثيراً ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاعة وهو لا يدرى . والواجب الاحتياط فى هذا الأمر حتى لا يقع الإنسان فى المحظور[2] .

حكمة التحريم بالرضاع :

وأما حكمة التحريم بالرضاعة فمن رحمته تعالى بنا ؛ أن وسع لنا دائرة القرابة بإلحاق الرضاع بها ، وأن بعض بدن الرضيع يتكون من لبن المرضع ، وأنه بذلك يرث منها صفاتها كما يرث ولدها الذى ولدته .

(١) سورة البقرة آية : ٢٦١

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ صـ ٨٠ .

قوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ ، المراد بالمولود له هو الأب ، وإنما عبِّر بهذه الصيغة ليفيد نسبة الولد إلى أبيه . والوالد عليه أن يقوم بـالإنفاق من مـطعم ومشرب وكسـوة بالمعروف ، قال تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ وقال سبحانه : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ﴾ : نهى الإسلام نهياً شديداً عن الضرر أيًا كان نوعه . فمن أصول الإسلام المقررة قوله ﷺ : (لا ضرر ولا ضرار)[2] ، فلا يجوز أن يضر الرجل زوجته : بسبب ولدها وذلك بانتزاعه منها ، كما أنه لا يجوز للمرأة أن تضر زوجها بسبب الولد بأن تطرحه عليه ، فلا ينبغى أن يكون الولد سبباً فى وقوع الضرر بين الزوجين ، وذلك لأن نعمة الزوجية يجب أن تظل صافية بعيدة عن الأكدار ، كما أنه لا يجوز الضرر بسبب الولد ولو زالت الزوجية بالطلاق . وقد بلغ من حرص المسلمين على دفع الضرر أن رجلاً صالحاً تزوج بامرأة ناشز فقيل له : ما ضر لو طلقتها ؟ فقال أخشى أن أطلقها فيبتلى بها غيرى ، فلا يستطيع معها صبراً . فقيل له : فماذا أنت فاعل معها ؟ قال : أصبـر وأحتسب . فأيما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله مثلما أعطى أيوب على بلائه ، وأيما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثلما أعطى آسية امرأة فرعون . وسبحان الذى قال : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ المراد به التزام الأقارب بعدم الضرر وأمرهم بالإحسان والمعروف لأقاربهم.، كما تفيد أن على الوارث النفقة على الأقارب ، فكما أن له الغنم بالميراث فعليه الغرم بالنفقة ، وهذا منطق العدالة . إذ الغنم بالغرم .

قوله تعالى : ﴿ فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ هذا حكم من أحكام رضاعة الطفل ، وهو يبين مدى دقة الإسلام وحساسيته وعنايته بالتربية ، حيث جعل الفصال (أى فطام الطفل) مبنيا على التشاور والاتفاق بين الزوجين ، لا يجوز أن يستبد به أحدهما . قـال تعالى : ﴿ فـإن أرادا ﴾ أى الزوجين ﴿ فصالا ﴾ أى فطاما قبل الحولين برضاهما والتشاور بينهما ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ . قال جل شأنه : ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾[4] .

فانظر إلى آثار رحمة الله بالرضيع حيث نظم له غذاءه ، وهو فى عالم الأجنة ، ثم أمده بلبن الأم بعد الولادة ، ثم جعل فطامه مبنيا على المشورة لا على الاستبداد خشية أن يخطىء الناس الحساب فيأتى بأوخم العواقب .

فإذا كانت المشورة فى فطام الرضيع قد نص عليها القرآن الكريم ، إنها بالأولى والأوجب فى شئون

---

(١) سورة الطلاق آية : ٧ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٤٦ ط دار الفكر .
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٦ .
(٤) سورة الطلاق آية : ٦ .

الأمم والقضايا المصيرية ويرحم الله أمير المؤمنين عمر إذ يقول : « رحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى » . ويرحم الله من قال فى عمر :

يـا رافعاً رايـة الشـورى وحـارسهـا ... جـزاك ربـك خيـرا عن محبيهـا
رأى الجمـاعـة لا تشقى البـلاد بـه ... رغم الخـلاف ورأى الفـرد يشقيهـا

قـولـه تعـالى : ﴿ وإن أردتم أن تسترضعـوا أولادكم فـلا جنـاح عليكم إذا سلمتم مـا آتيتم بالمعروف ﴾ . المراد بالاسترضاع طلب الرضاع . وذلك بدفع الرضيع إلى مرضعـة غير أمـه لسبب من الأسباب . قال تعالى : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾[1] . قال تعالى : ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ ، أى أن تفعلوا هذا إذا سلمتم المرضعة ما التزمتم به من الأجر بالمعروف . وقد شاعت كلمة المعروف فى الحياة الزوجية وأصبحت كالزهرة الناضرة فواحة الشذى طيبة العبير ، لأن الإسلام يدعو إلى تقوية العلاقات تقوية تقوم على الألفة والمودة والمحبة والرحمة لا استبداد فيها ولا تسلط ولا إرهاب ولا تهديد . وكما شاعت كلمة المعروف فى الأحكام الشرعية شاع كذلك الأمر بتقوى الله . قال تعالى فى ختام هذه الآية الكريمة : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ ، أى اتقوه سبحانه فلا تخالفوا أمره ، فهو بصير بأحوالكم عليم بشئونكم ، ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾[2] .

فأيما أسرة قامت على المعروف والتقوى كان العز رائدها والتوفيق حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف . وأيما أسرة ابتليت بالذنوب والانحراف كان الذل رائدها والشقاء حليفها ، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

عدة المتوفى عنها زوجها

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ

(١) سورة الطلاق آية : ٦ .
(٢) سورة الحديد آية : ٤ .

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥)

المفردات : ﴿ يتوفون منكم ﴾ : أى يتوفاهم الله ويقبض أرواحهم ، ﴿ ويذرون ﴾ : أى يتركون والزوج يطلق على الذكر والأنثى كما قال تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ ، وأصله العدد المكوّن من شيئين اتحدا وصارا شيئا واحدا فى الباطن وإن كانا شيئين فى الظاهر ، وسمى به كل من الرجل والمرأة للدلالة على أن من مقتضى الفطرة أن يتحد الرجل بامرأته والمرأة ببعلها ، بتمازج النفوس ووحدة المصلحة حتى يكون كل منهما كأنه عين الآخر . ويتربصن : أى ينتظرن ، ويلغن أجلهن : أى أتممن عدتهن وانتهت مدة التربص والانتظار ، والتعريض فى الكلام أن تفهم المخاطب ما تريد بضرب من الإشارة والتلويح بدون تصريح ، والخطبة (بكسر الخاء) هى طلب الرجل المرأة للزواج بالوسائل المعروفة بين الناس ، والإكنان فى النفس هو ما يضمره مريد الزواج فى نفسه ويعزم عليه من التزوج بالمرأة بعد انقضاء العدة . والقول المعروف : ما لا يستحى منه فى المجاهرة كذكر حسن المعاشرة وسعة الصدر للزوجات إلى نحو ذلك . وعزم الشىء وعزم عليه واعتزمه : إذ صمم على تنفيذه ، والكتاب : بمعنى المكتوب أى المفروض ، وأجله : أى نهايته .

قال الفقهاء وعلماء الحديث فى آية العدة : هذا أمر من الله للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بالإجماع ، ومستنده فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فترددوا إليه مراراً فى ذلك فقال أقول فيها برأيى ، فإن يك صوابا فمن الله ، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً . وفى لفظ ، لها صداق مثلها لاوكس ولا شطط ، وعليها العدة ، ولها الميراث . فقام معقل بن يسار الأشجعى فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً . وفى رواية فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واشق . ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهى حامل فان عدتها بوضع الحمل ، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾[1] .

وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشرا للجمع بين الآيتين ، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى ، لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية المخرج فى الصحيحين من غير وجه أنها توفى عنها زوجها سعد بن خولة وهى حامل فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته ، وفى رواية فوضعت حملها بعده بليال ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو

(١) سورة الطلاق آية : ٤ .

السنابل بن بعكك فقال لها : مالى أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشرا . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج إن بدالى[1] . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة يعنى لما احتج عليه به .

وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً لاحتمال اشتمال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً ، كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما : (إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح) فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم[2] . ولقد سئل سعيد بن المسيب : ما بال العشر ؟ قال : فيها ينفخ الروح ، وقال تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت فى الصحيحين عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمى المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا)[3] وفى الصحيحين عن أم سلمة أن امرأة قالت : يارسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟ فقال : « لا » كل ذلك يقول لا ــ مرتين أو ثلاثا ثم قال : (إنما هى أربعة أشهر وعشرا وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة)[4] .

والغرض من الإحداد ترك الزينة من الطيب ، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى ، وهو واجب فى عدة الوفاة قولاً واحداً ، وذلك لفوات نعمة الزوجية ، فهو وجه من وجوه الوفاء وحسن العهد من الإيمان .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ﴾ ، المراد به الزواج بعد انقضاء العدة والخطاب فى قوله : ﴿ فلاجناح عليكم ﴾ لأولياء أمر المرأة ، أى إذا ما انقضت عدتها فلا إثم عليكم إذا ما تزوجت ، فذلك أمر أحله الشارع ودعا إليه ، قال تعالى : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾[5] ففى الزواج وقاية وعصمة وتعفف ، ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى عالم بدقائق الأشياء ، لا يعلمها إلا هو ، فاحذروا عقابه وارجوا ما عنده من الثواب والأجر .

وبعد الفراغ من بيان أحكام العدة والإحداد على الزوج ، شرع يبين لنا الحكم فى خطبة المتوفى عنها زوجها أثناء العدة . قال تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ أى لا إثم عليكم فى

---

(١) فقه السنة للشيخ . السيد سابق جـ ٢ ص ٢٣٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٠ ط الشعب .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق
(٥) سورة البقرة آية : ١٨٧ .

التعريض بخطبة النساء فى عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح ، قال ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ : التعريض أن يقول إنى أريد التزويج ، وإنى أحب امرأة من أمرها ومن أمرها ـ يعرض لها بالقول بالمعروف ، وفى رواية : وودت أن الله رزقنى امرأة ، ونحو هذا ، ولا ينتصب للخطبة ، وفى رواية : إنى لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله ، ولوددت أن وجدت امرأة صالحة ، ولا ينتصب لها مادامت فى عدتها ، ورواه البخارى تعليقاً فقال : وقال لى طلق بن غنام عن زائدة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ ، هو أن يقول : إنى أريد التزويج ، وإن النساء لمن حاجتى ، ولوددت أن ييسر لى امرأة صالحة . وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى والشعبى والحسن وقتادة والزهرى ويزيد بن قسيط ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة فى التعريض إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة .

قوله تعالى : ﴿ أو أكننتم فى أنفسكم ﴾ ، أى أضمرتم فى أنفسكم من خطبتهن ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾[1] ولهذا قال : ﴿ علم الله أنكم ستذكرونهن ﴾ أى فى أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم فى ذلك ، ثم قال : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سراً ﴾ ، وهو قول الرجل للمرأة فى عدتها : عاهدينى ألا تتزوجى بغيرى .

قوله تعالى : ﴿ إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ﴾ ، أى بأسلوب التعريض والتلويح لا بأسلوب العبارة والتصريح ، وكأن يقول لها : إنى فيك لراغب .

قوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ ، أى لا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنتهى عدتها ، وهذا معنى بلوغ الكتاب أجله ؛ والمراد بالكتاب ما حكم الله به من العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد فى مدة العدة :

وبعد بيان هذه الأحكام المتعلقة بالمتوفى عنها زوجها من العدة والإحداد والخطبة ؛ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ أى كونوا على حذر من مخالفة الله فى أمره ، فلا تضمروا فى أنفسكم إلا ما هو خير ، وإياكم أن تضمروا شراً ، فإن الذى شرع الأحكام يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[2] .

وبعد الوعيد يشرق علينا نور الوعد فيقول تعالى : ﴿ واعلموا أن الله غفور حليم ﴾ إنه سبحانه وتعالى يعلم ضعفنا فيقول : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[3] ويقول جل شأنه : ﴿ إن ربك واسع المغفرة

---

(١) سورة الممتحنة آية : ١ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٥٩ .
(٣) سورة النساء الآيتان : ٢٧ : ٢٨ .

هـو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ﴾[1] . جل جلال الله ، يغفر الذنوب ، وهو الحليم لا يعجل العقوبة ، بل يمهل لعل العبد يرعوى ويخجل .

يـارب إن عـظمت ذنـوبى كثـرة فلقـد علمت بـأن عفـوك أعـظم
إن كـان لا يـرجـوك إلا محسـن فبـمـن يـلوذ ويسـتـجـير الآثـم

الطلاق والصداق

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

المفردات : الجناح هنا التبعة (المسئولية) كالتزام بمهر وغيره ؛ والمسيس : اللمس باليد من غير حائل ، ويراد به فى لسان الشرع مايراد بالمماسة والملامسة والمباشرة وهو غشيان المرأة ، والفريضة : المهر ، وفرضها : تسميتها ، والمتعة والمتاع : ما ينتفع به مع سرعة انقضائه ، ومن ثم يسمى التلذذ بالشىء تمتعاً لسرعة انقطاعه ، وأوسع الرجل : إذا صارذا سعة فى المال وبسطة وغنى ، وأقتر : إذا قل ماله وافتقر وأقتر على عياله ، وقتر : إذا ضيق عليهم فى النفقة ، والقدر : (بفتح الدال وسكونها) قدر الإمكان والطاقة ، ومتاعاً : أى حقاً ثابتاً واجباً ، والمعروف : مايتعارفه الناس بينهم ويليق بهم بحسب اختلاف أصنافهم ومعايشهم وبيئاتهم ، والمحسنون : هم الذين يحسنون فى معاملة المطلقات ، والذى بيده عقدة النكاح هو الزوج المالك لعقد النكاح وحله ، وعفوه : تركه ما يعود إليه من نصف المهر الذى ساقه إليها كاملاً تكرماً منه ، والفضل : المودة والصلة .

نحن قد علمنا ان أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق ، وقد شرعه الله سبحانه ليكون دواء لداء استعصى علاجه بعد اتخاذ خطوات عديدة ومتنوعة فى العلاج : فعظوهن ، واهجروهن فى المضـاجع ، واضربوهن ، ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريداً اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيراً ﴾[2] ﴿ وإن أمرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح

(١) سورة النجم آية : ٣٢ .
(٢) سورة النساء آية : ٣٥ .

خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[(١)] إلا أن النفوس قد تكون غير قابلة . لأى حل ، ذلك لأن الشيطان قد يستبد بالنفس فيجعل صاحبها لا يعى ولا يسمع ، وكأن الدنيا قد سدت عليه المنافذ ، عندئذ يكون آخر العلاج الكى ، قال تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً * وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾[(٢)] . . والآية التى بين أيدينا قد اشتملت على أحكام فصلها فقهاء المسلمين تفصيلاً لا يذر ولا يدع حكماً إلا جاء على الوجه الصحيح ؛ قال الفقهاء : أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها ، قال ابن عباس والحسن البصرى : المس النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها ، والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن كان فى هذا إنكسار لقلبها ، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها ، وهو تعويضها عما فاتها بشىء تعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال سفيان الثورى عن ابن عباس : متعة الطلاق أعلاها الخادم ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك ، وإن كان معسراً بثلاثة أثواب . وقال الشعبى : أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب . قال : وكان شريح يمتع بخمسمائة . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أيوب بن سيرين قال : كان يتمتع بالخادم أو بالنفقة أو بالكسوة : قال : ومتع الحسن بن على بعشرة آلاف . ويروى أن المرأة قالت : متاع قليل من حبيب مفارق . وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان فى مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعى فى المذهب الجديد : لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة ، وأحب ذلك إلى أن يكون أقله ما تجزىء فيه الصلاة . وقال فى المذهب القديم : لا أعرف فى المتعة قدراً ، إلا أنى أستحسن ثلاثين درهماً كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما . وقد اختلف العلماء أيضاً : هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التى لم يفرض لها ؟ على أقوال : أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾[(٣)] ، ولقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ﴾[(٤)] ، وقد كان مفروضاً لهن ومدخولاً بهن ، وهذا قول سعيد بن جبير وأبى العالية والحسن البصرى . والقول الثانى : إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا ﴾[(٥)] . القول الثالث : إن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها ، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة ، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة ، وإنما المصابة التى لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التى دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها ، وهذا قول ابن عمر ومجاهد ، ومن العلماء من استحبها لكل

(١) سورة النساء آية : ١٢٨ .
(٢) سورة النساء الآيتان : ١٢٩ ، ١٣٠
(٣) سورة البقرة آية : ٢٤١ .
(٤) سورة الأحزاب آية : ٢٨ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٤٩ .

مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول ، وهذا ليس بمنكور ، وعليه تحمل آية التخيير فى الأحزاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ ، ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾[1] ومن العلماء من يقول إنها مستحبة مطلقا .

قال تعالى : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ . هذه الآية الكريمة اشتملت على حكم المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها وقد سمى لها الزوج مهراً محدداً ، فالحكم أن لها نصف المهر المسمى إلا أن يكون هناك عفو من جهة النساء فيتنازلن عن حقهن فى النصف ، أو أن يكون هناك عفو من جهة الرجال فيتنازلوا عن المهر كله ، والله تعالى يذكر الناس بقوله : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ . قال الشيخ المراغى رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية : إن حصل الطلاق قبل المسيس وقد سمى لهن مهر فلهن نصف المسمى المفروض ويرجع إلى الزوج النصف الثانى ، وهذا جار على ما كان يعمله الناس من سوق المهر كله للمرأة حين العقد لا على ما استحدثوه من تأخير ثلث المهر أو أقل لرغبتهم فى حب الظهور والتفاخر بكثرة المهر ، مع اجتناب إرهاق الزوج بدفعه كله .

وإن مات أحد الزوجين قبل الدخول وجب المهر كله للزوجة إذا مات الزوج ، أو لوارثها إذا ماتت هى ، لأن الموت كالدخول بها يوجب المهر كله إن كان هناك مهر مسمى أو مهر مثلها إن لم يسم لها مهر .

﴿ إلا أن يعفون ﴾ ، أى إلا أن يعفو المطلقات عن أخذ النصف كله أو بعضه ، فتقول المرأة : ما رآنى ولا خدمته ولا استمتع بى ، فكيف آخذ منه شيئاً ؟ فيسقط حينئذ ما وجب عليه ، وحق الإسقاط إنما يكون للمرأة البالغة الرشيدة .

﴿ أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ﴾ ، أى أو يعفو الزوج ويترك ما يعود إليه من نصف المهر الذى ساقه إليها تكرماً منه ، وحينئذ تأخذ الصداق كاملاً ، النصف الواجب عليه والنصف الساقط العائد إليه بالتنصيف وعبر بقوله : ﴿ بيده عقدة النكاح ﴾ ، للتنبيه إلى أن الذى ربط المرأة وأمسك العقدة بيده لا يليق به أن يحلها ويدعها بدون شىء ، بل يستحب له العفو والسماح بكل ما كان قد أعطى ، وإن كان الواجب المحتم نصفه ، وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ ، أى إن من عفا من الرجال والنساء فهو المتقى ، فأحياناً تكون المصلحة فى عفو الرجل عن النصف الآخر ، وأحياناً فى عفو المرأة عن النصف الواجب لها ، لأن الطلاق قد يكون من قبله بلا سبب داع منها ، وقد يكون بالعكس . والمراد بالتقوى هنا ؛ تقوى الله المطلوبة فى كل أمر ، إذ العفو أكثر ثواباً وأجراً . أو المراد تقوى الدين بما يترتب على الطلاق من التباغض ، إذ السماح بالمال يذهب هذا الأثر ويعيد الصفاء إلى القلوب ، وهذا ما بينه سبحانه بقوله : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ ، أى ينبغى لمن تزوج من أسرة ثم طلق ألا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلتهم ، ولكن المسلمين نسوا دينهم أو تناسوا وجروا على عكس هذا فصارت روابط الصهر وسائر أنواع القرابة واهنة ضعيفة ، وإنك لو رأيت ما يجرى بين الأزواج من المخاصمات و المنازعات وما يكيد به بعضهم

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٤١ .

لبعض ، لوجدت أنهم تجافوا أوامر شريعتهم ، وجعلوا إلههم هواهم ؛ فالرجال يتركون نساءهم بلا نفقة حتى يضطررن أحياناً إلى بيع أعراضهن ، أو يذرونهن كالمعلقات ، فلاهم يمسكونهن بمعروف ولا هم يسرحونهن بإحسان حتى يفتدين منهم بالمال .

والمطلقات المعتدات بالإقراء يزعمن أن الحيض قد حُبس عنهن فتمضى السنة أو أكثر منها ولا تنقضى عدتهن بزعمهن ، وما الغرض من هذا إلا إلزام المطلق النفقة طول هذه المدة انتقاماً منه ، ولكن العمل الآن فى المحاكم المصرية على أن نفقة العدة لا تزيد على سنة قمرية (٣٥٤ يوماً) .

وإذا حدث طلاق ، كان بين أسرتى الزوجين حرب عوان ، ونصبت كل منها للأخرى الحبائل والأشراك لتوقعها فى مهاوى الهلاك . فأين هؤلاء من كتاب الله وشرعه ؟ إنهم ليسوا منه فى شىء ، فقد عميت أبصارهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ ، ختم سبحانه الآية بالتذكير باطلاعه تعالى وإحاطة بصره بما يعامل به الأزواج بعضهم بعضاً ترغيباً فى المحاسبة والفضل ، وترهيباً لأهل المخاشنة والجهل لتكون مقرونة بالموعظة التى تغذى الإيمان وتبعث على الامتثال .

الأمر بالمحافظة على الصلاة

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

المفردات : حافظ على الشىء وداوم عليه وواظب عليه : فعله المرة بعد المرة ، وحفظ الصلاة المرة بعد الأخرى : الإتيان بها كاملة الشرائط والأركان بالخشوع والخضوع القلبى ، والصلوات : هى الخمس المعروفة بالبيان العملى من النبى ﷺ والتى أجمع عليها المسلمون من جميع الفرق ، حتى أنَّ من جحدها أو شيئاً منها لا يعد مسلماً ، وقد استنبطوا عددها من آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾[1] ، والصلاة الوسطى : هى إحدى هذه الخمس ، والوسطى إما بمعنى المتوسطة بين شيئين أو أشياء لها طرفان متساويان ، وإما بمعنى الفضلى ، وبكل من المعنيين قال جماعة من العلماء ومن ثم اختلفوا : أى الصلوات أفضل ؟ وأيتها المتوسطة ؟ وأرجح الأقوال أنها صلاة العصر لما رواه الإمام أحمد عن على قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب (شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر . ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا) ثم صلاها بين العشاءين . المغرب

(١) سورة الروم الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

والعشاء[1] وعن سمرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ وسماها لنا إنها هى صلاة العصر)[2] .

والقنوت : الانصراف عن شئون الدنيا إلى مناجاة الله والتوجه إليه لذكره ودعائه ، والرجال : واحدهم راجل ، وهو الماشى ، والركبان : واحدهم راكب .

روى أحمد والشيخان من حديث زيد بن أرقم قال : كنا نتكلم فى الصلاة ، يكلم الرجل منا صاحبه وهو إلى جنبه فى الصلاة حتى نزلت : ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام[3] . وقد جاءت آية المحافظة على الصلاة كواسطة العقد من آيات تتعلق بنظام الأسرة لتفيد آية الصلاة أنها (أى الصلاة) صمام الأمن فى سعادة الأسرة ، فما من بيت يحافظ على الصلاة إلا اتسع لأهله وسكنته الملائكة وطردت منه الشياطين ، لذا فقد أمر رسول الله ﷺ أن يجعل الرجل من صلاته فى بيته ، أى يصلى النوافل فى البيت . قال الصادق المعصوم : (صلاة الرجل فى بيته تطوعاً نور فمن شاء نور بيته) . وقال : (اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً)[4] فالبيت الذى يذكر فيه الله وتقام فيه الصلوات وتقرأ فيه الآيات تتنزل عليه البركات وتحفه الملائكة وتهبط عليه السكينة وتغشاه الرحمة ويذكر الله أهله فيمن عنده ، فالصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، ومن سره أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن سره أن يكلمه الله فليقرأ القرآن . والصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات : رياضة أبدان ، وطهارة أدران ، وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور ، وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يردده المخلوق التوجه إلى الخالق . انظر خلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع وكيف سارت العلية بالرفع ، مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة ، سواء فى عتبة الله ، وإذا كان الله تعالى قد أمر بالمحافظة عليها كلها ، فالمقصود بالمحافظة أداؤ ها بأركانها وشروطها فى وقتها مع حضور القلب وخشوع الجوارح . وقد خص الصلاة الوسطى ، وهى صلاة العصر ، بمزيد من المحافظة ذلك لأن الناس يكونون قد فرغوا من أداء أعمالهم فيميلون إلى الكسل ويخلدون إلى الراحة ، فذكرهم سبحانه بصلاة العصر ، فإن من تركها فقد حبط عمله ، ومن فاتته فكأنما وتر أهله وماله . وقد أمر تعالى بالقنوت فيها ، وهو تفرغ القلب لله بعيداً عن لهو الدنيا وفى صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال لمعاوية بن الحكم حين تكلم فى الصلاة « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس إنما هى التسبيح وذكر الله »[5] . وقد حذر الإسلام من ترك الصلاة وضياع وقتها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٩ ط الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٠ ط الشعب .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٤ ط الشعب .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٤ ط دار الفكر
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٤ ط الشعب .

روى أحمد وأصحاب السنن من حديث بريدة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر)[١] .

وروى أحمد والطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : (من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ؛ ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهانا ولا نجاة يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىّ بن خلف)[٢] .

وروى الترمذى قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة .

ولما كانت الصلاة عماد الدين فإنه لا عذر لأحد فى تركها ، فالمريض يصلى كما يصلى الصحيح ، فهى فرض فى حقه ، ولكن للمريض صلاة بالكيفية التى لا تشق عليه قائماً أو قاعداً أو على جنبه أو مستلقياً ، كما أن الخائف والآمن ، كما أن السليم وصاحب الأعذار ، كل هؤلاء لا تسقط عنهمّ الصلاة ، والخائف من العدو أو من وحش يصلى راكباً أو راجلاً ، ويسقط عنه استقبال القبلة ، ولصلاة الخوف أحكام سوف نعرض لها فى موطنها ، قال تعالى : ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ﴾ ، فإذا ما كان الإنسان فى حالة أمن من العدو والوحش فعليه أن يذكر الله ويشكره بما علمه من الأحكام ما فيه سعادة دنياه وأخراه .

أحكام تتعلق بالطلاق وغيره

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

المفردات : يذرون : أى يتركون زوجات بعد وفاتهم . وصية لأزواجهم : أى وصية من الله لأزواجهم . متاعاً إلى الحول : أى جعل الله لهم ذلك متاعاً مدة الحول . غير إخراج : أى لهن ذلك المتاع وهن مقيمات فى البيت غير مخرجات منه ولا ممنوعات من السكنى فيه .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على أحكام شرعية تتعلق بالزوجات اللاتى توفى أزواجهن ، كذلك تتعلق بأحكام المتعة للمطلقات ، وقد لخص الفقهاء هذه الأحكام فيما يلى :

قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج ﴾ ، أى والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات بعدهم فليوصوا لهن بوصية وليمتعوهن متاعاً إلى آخر

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ١٩٦ ط دار الفكر .
(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ١ ص ٩٢ ، ٩٣ ط دار الكتاب العربى .

الحول غير مخرجات من بيوتهن ، فلا يمنعنهن السكنى فيها . . والخلاصة : أن على الأزواج أن يوصوا لهن بشىء من المال ينفقنه مدة الحول ، ولا يخرجن من البيوت مدة سنة كاملة تمر فيها الفصول الأربعة التى يتذكرن أزواجهن فيها . وهذا الأمر أمر ندب واستحسان لا أمر وجوب وإلزام ، وقد تهاون فيها الناس كما تهاونوا فى كثير من المندوبات .

﴿ فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ﴾ ، أى فإن خرجن من تلقاء أنفسهن فلا إثم عليكم أيها المخاطبون بالوصية فيما فعلن فى أنفسهن من المعروف شرعاً وعادة كالتعرض للخطاب بعد العدة والتزوج ، إذ لا ولاية لكم عليهن ، فهن حرائر لا يمنعن إلا من المنكر الذى يمنع منه كل مكلف .

﴿ والله عزيز حكيم ﴾ ، أى والله عزيز غالب على أمره يعاقب من خالفه ، حكيم يراعى فى أحكامه مصالح عباده .

ومن عزته وقدرته أن يحول الأمم من عادات ضارة إلى عادات نافعة ؛ تقتضيها المصلحة كتحويل العرب من عادتهم فى العدة والحداد ، إذ كانوا يجعلون المرأة أسيرة ذليلة مقهورة فى عقر دارها سنة كاملة ، إلى ما هو خير من ذلك ، وهو إكرامها فى بيت زوجها بين أهله وعدم الحجر على حريتها ؛ إذا أرادت الخروج منه مادامت فى حظيرة الشرع وآدابه .

﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ أى وشرعت المتعة لكل مطلقة على سبيل الوجوب إذا كانت غير مدخول بها وعلى سبيل الاستحسان لغيرها ، والذى يفعل ذلك من أشرب قلبه تقوى الله والخوف من عقابه ، فهو الذى يجود بالمال تطييبا للقلوب وإزالة للضغن .

والخلاصة : أن المطلقات أصناف أربعة :

١ - مطلقة مدخول بها وقد فرض لها مهر ، وهذه لها كل الفروض وهى التى عناها الله سبحانه بقوله : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾[1]

٢ - مطلقة غير مدخول بها ولا مفروض لها ، وهذه يجب لها المتعة بحسب يسار الزوج ولا مهر لها ، وهى التى عناها الله بقوله : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ﴾[2] إلى آخر الآية ، ولا عدة لها .

٣ - مطلقة مفروض لها وغير مدخول بها ولها نصف المهر المفروض ولا عدة لها ، وفيها نزل قوله : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن . . ﴾[3] .

٤ - مطلقة مدخول بها غير مفروض لها ولها مهر مثلها من قريباتها وأسرتها .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ المراد من البيان ذكر الحكم وفائدته ثم قرنه بالموعظة

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٦ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٧ .

وقوله : ﴿ تعقلون ﴾ : أى تتدبرون الأشياء وتذعنون لما أودع فيها من الحكم والمصالح إذعانا يكون له الأثر فى الأعمال .

والمعنى : إن الله جلت قدرته بين لعباده أحكام دينهم على هذا النحو من البيان الذى تقرن فيه الأحكام بعللها وأسبابها وبيان فوائدها ليعدهم بذلك لكمال العقل ؛ حتى يتحروْا الاستفادة من كل عمل وليكونوا على بصيرة من دينهم عالمين بانطباق أحكامه على مصالحهم ، فدينهم هو دين العقل ، وأحكامه تنطبق على مصالح البشر فى كل زمان ومكان .

إحياء الموتى والقتال فى سبيل الله

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

روى ابن عباس أن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل استنفر عسكره للقتال ، فقالوا إن الأرض التى سنذهب إليها موبوءة ؛ فدعنا حتى يزول الوباء ، فأماتهم الله ثمانية أيام حتى عجز بنو إسرائيل عن دفنهم لكثرتهم فأحياهم الله .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد بيان الأحكام التى تتعلق بالأسرة ونظامها وحياتها ، وهذه الآية تتعلق بأحكام الأمم ونظمها وأحكامها ، ولكى تعيش الأمة فى عزة وكرامة لابد لها من الجهاد ، قال تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ؛ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[1] .

قال على رضى الله عنه : بقية السيف هى الباقية : أى هى التى يحيا بها أولئك المجاهدون .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾[2] ويرحم الله سيف الإسلام خالد بن الوليد الذى قال وهو على فراش الموت : وها أنذا أموت على فراشى وقد خضت مائة معركة فى سبيل الله وليس فى جسمى قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو

(١) سورة المائدة الآيات : ٥٤ - ٥٦ .

(٢) سورة النساء آية : ٩٧ .

رمية بسهم ، أموت على فراشى كالبعير ، وقد كنت أود أن أموت شهيداً فى سبيل الله ، فلانامت أعين الجبناء ، يرحمك الله ياسيف الله يا من قال فيك أبو بكر رضى الله عنه : عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ، والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ، إن خالداً سيف سله الله على أعدائه ، ويرحم الله من قال فيك :

غـزا فأبـلى وخيـل الله قـد عقـدت	بـاليمن والنصر والبشـرى نواحيهـا
ولم يجـز بـلدة إلا سـمـعـت بهـا	الله أكبـر تـدوى فى نـواحيـهـا
أتـاه أمـر أبى حـفص فـقـبـلـه	كـما يـقـبـل آى الله تـالـيـهـا
ومـا اعتـرتـه شكـوك فى خليفتـه	ولا ارتضى إمـرة الجـراح تمـويهـا
لـذاك أوصى بـأولاد لـه عمـراً	لـما دعـاه إلى الفـردوس داعيهـا
وقيـل خالفت يـا فـاروق صـاحبنا	فيه وقد كان وقد أعطى القوس باريها
فقـال خفت افتتـان المسلمـين بـه	وفتنـة النفس أعيت من يـداويهـا

ويرحم الله الصديق العظيم إذ يقول : احرص على الموت توهب لك الحياة . إن الإسلام لا يرضى بالذل ولا يقبل الضيم ، وإن الله تعالى قد ساق هذه القصة بأسلوب التعجب ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم تعلم ، ثم ألم ينته إلى علمك أمر هذه الجماعة الذين بلغ عددهم الألوف خرجوا من ديارهم يخافون الموت ويرفضون القتال فأماتهم الله ليعلم الناس أن الآجال بيد الله ، فمن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد . قال جل جلاله : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لايبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا . قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾[2] لقد أمات الله هؤلاء الخائفين من الموت ثم أحياهم بعد موتهم وقد ماتت مع موتهم غرائز الخوف والجبن والحرص على الحياة وهذا فضل من الله على عباده ، يدعوهم لما يحييهم ويحيى فيهم عزة الإيمان ونظافة الإسلام وطهارة الوجدان وإعزاز الجنان .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ فيا أمة الإسلام قاتلوا فى سبيل الله لا لمغنم أو مكانة أو لإظهار الحماس والشجاعة ، إنما من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، وما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ضربت عليهم الذلة . واعلموا أن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ويرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعين ، ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين ويلبسه الله تاج الوقار أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بنياتكم ، فاصدقوا الله فى الجهاد ؛ يصدقكم فى النصر .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٤ .

(٢) سورة آل عمران الأيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ .

القرض الحسن

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٤٥)

يقول الإمام ابن كثير : يحث تعالى عباده على الإنفاق فى سبيل الله ، وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع . وفى حديث النزول أنه يقول تعالى : (من يقرض غير عديم ولا ظلوم) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليطة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله ابن مسعود قال : لمانزلت : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله : وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال أرنى يدك يارسول الله . قال فناوله يده قال : فإنى قد أقرضت ربى عز وجل حائطى قال : وكان حائطه به ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها . قال فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح ؟ قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل وقد روى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً بنحوه . وقوله : ﴿ قرضاً حسناً ﴾ روى عن عمر وغيره من السلف : هو النفقة فى سبيل الله ، وقيل هو النفقة على العيال ، وقيل هو التسبيح والتقديس . وقوله : ﴿ فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾[1] الآية ، وسيأتى الكلام عليها . وقال الإمام أحمد عن أبى عثمان النهدى قال : أتيت أبا هريرة رضى الله عنه فقلت له : إنه بلغنى أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة . قال : وما أعجبك من ذلك قد سمعته من النبى ﷺ يقول : (إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة) . وعن زياد الحصاص عن أبى عثمان النهدى قال : لم يكن أحد أكثر منى مجالسة لأبى هريرة ، فقدم قبلى حاجاً ، قال : وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يأثرون عنه أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة) فقلت : ويحكم والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى فما سمعت هذا الحديث . قال : فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجاً فانطلقت إلى الحج لأجل أن ألقاه فى هذا الحديث فلقيته لهذا فقلت : يا أباهريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأثرونه عنك قال : ما هو ؟ قلت : زعموا أنك تقول إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة . قال : يا أباعثمان وما العجب من ذاك والله يقول : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ويقول : ﴿ وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ﴾ ، والذى نفسى بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة). وفى معنى هذا الحديث مارواه الترمذى وغيره من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : (من دخل سوقاً من الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة) . الحديث .

(١) سورة البقرة آية : ٢٦١ .

وعن ابن عمر قال : لما نزلت : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ إلى آخرها ، قال رسول الله ﷺ : (رب زد أمتى) ، فنزلت : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ، قال : (رب زد أمتى) ، فنزلت : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

وعن كعب الأحبار أنه جاءه رجل فقال : إننى سمعت رجلاً يقول : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مرة واحدة بنى الله له عشرة آلاف غرفة من در ؛ وياقوت فى الجنة أفأصدق بذلك ، قال : نعم أوعجبت من ذلك ؟ قال : نعم وعشرين ألف ألف وثلاثين ألف ألف وما لا يحصى ذلك إلا الله ، ثم قرأ : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ فالكثير من الله لا يحصى[1] . وقوله : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ ، أى أنفقوا ولا تبالوا ، فالله هو الرزاق ، يضيق على من يشاء من عباده فى الرزق ، ويوسعه على آخرين ، له الحكمة البالغة فى ذلك ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة

بنو إسرائيل مع نبى لهم

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

المفردات:الملأ : القوم يجتمعون للتشاور ، ولا واحد له ، سموا بذلك لأنهم يملأون العيون رواء والقلوب هيبة ، والنبى هو شمويل معرب صمويل أو صموئيل ، عسى : كلمة تفيد توقع الحصول وقرب تحققه .

كتب : أى فرض . وطالوت : معرب شاول لقب لطوله ، فقد جاء فى سفر صموئيل الأول من العهد

(١) تفسير القرآن العظيم للأمام ابن كثير جـ ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ط الشعب .

العتيق (فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق) . اصطفاه : أى بما أودع فيه من الاستعداد الفطرى للملك . وبسطة الجسم عظمته .

هذه قصة من قصص القرآن العظيم . وقصص القرآن عبرة وعظة ومدرسة ، حفلت مناهجها بالدروس النافعة ، فبعدما بين الله تعالى حال الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وأمر بالقتال فى سبيل الله ، كما حث على النفقة إذ بالجهاد والنفقة تنهض الأمة وترتفع كلمتها ولا يستطيع العدو أن يقتحم عليها أسوار عزتها المنيعة . بعد ذلك ساق القرآن هذه القصة والعبرة التى يجب على كل عاقل أن يعرفها ، وألا يغتر بالكثرة من الناس ، فقد تختفى وراء عواطف الناس الحقائق المرة ، وأعظم الرجال فى تربية الناس هو سيدنا محمد ﷺ الذى وصف أصحابه ذات يوم فى كلمتين اثنتين فقال : إنكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع ، ذلك لأن الرجال يعرفون بالمواقف ، كما يعرفون بالحق ، لكن المواقف والحق لا تعرف بالرجال ، كما أن القلة إذا كانت صادقة فسوف تكون إيجابية .

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[1] ولابد من اختيار النفوس حتى لا يقع القائد فى شباك اللؤم والخداع ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾[2] وهكذا صفت القلة على قلة ، ولكنهم كانوا صامدين ثابتين ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ قال أحد الشعراء :

تعيرنا أنا قليل عديدنا   فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وديننا   صحيح ودين الآخرين عليل

كما أن هذه القصة صححت مفهوماً خطيراً وهو أن الرجال لا يوزنون بالمال ، إنما يوزنون بالقيم والعلم ، فإذا كان قائداً للجيش يكفى أن يكون قد أوتى بسطة فى العلم والجسم ، والمال ليس عاملاً مؤثراً ، إذ القيادة السليمة تحتاج إلى تخطيط علمى وقوة فى الجسم ، فالمعارك قبل أن تدور فى حومة الوغى دارت على مكاتب القادة تفكيراً وتوجيهاً .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم ينته إلى علمك قصة الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى وفى عصر داود لقد قالوا لنبيهم صموئيل ابعث لنا ملكاً ليقودنا للقتال فى سبيل الله ، فقال لهم نبيهم وكأنه يستشف الحجب وينظر بنور الله : هل أتوقع منكم إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ وهل سيحدث منكم النكوص والعصيان ؟ فقالوا له متعجبين ﴿ ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وآبنائنا ﴾ ومع ذلك ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالفرار والتولى ، وظلموا أممهم بضرب الذلة عليهم والهوان ، فقد قاتلهم أهل فلسطين وقتلوا منهم عدداً كثيراً ولما استجاب

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

لهم نبيهم قال لهم : ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ ، وطالوت هذا من عظماء القوم علماً وجسماً ، ولما كان القوم قد أشربت قلوبهم حب الذهب وعبادة المال ، عجبوا وقالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ﴾ ، ولماذا الأحقية ؟ لأنه ﴿ لم يؤت سعة من المال ﴾ عجيب أمر هؤلاء القوم إنهم كما قال القائل :

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضه إلى من عنده فضه
ومن لا عنده فضه فعنه الناس منفضه

وجاء الرد حكيماً على لسان نبيهم : ﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ﴾ فما أجمل هذا التعبير الرائع : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم ﴾ هل بعد اصطفاء الله العليم بكوامن النفوس ، الخبير بحقائقها ودقائقها يقول قائل : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ وهذا هو الأصل فى أحقيته بالقيادة ، فالذى اختاره هو علام الغيوب ، ثم إنه قد جمع أصول القيادة من عظمة العلم والجسم ، فهو واسع العلم صحيح الجسم .

﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ فلا معقب لحكمه ولا راد لما قضى ، فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته . فهو الواسع العليم ، الواسع الرحمة ، المحيط بعلمه كل شىء . (لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً)[1] .

أحداث القصة

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ

(١) سورة الطلاق آية : ١٢ .

أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

المفردات الآية : العلامة . والتابوت : صندوق وضعت فيه التوراة أخذه العمالقة ثم رد إلى بنى إسرائيل . وفى سفر تثنية الاشتراع : أن موسى لما أكمل كتابة هذه التوراة أمر اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون شاهداً عليكم . ثم كانت حرب بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل على عهد عالى الكاهن انتصر فيها الفلسطينيون وأخذوا التابوت من بنى إسرائيل ونكلوا بهم تنكيلاً فمات عالى كمداً وكان صموئيل أو شمويل قاضياً لبنى إسرائيل من بعده وهو نبيهم الذى طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ففعل وجعل رجوع التابوت إليهم آية لملك طالوت الذى أقامه لهم . والسكينة : ما تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب . وتحمله : أى تحرسه ، وقد جرت عاداتهم بأن من يحفظ شيئاً فى الطريق ويحرسه يقال إنه حمله وإن كان الحامل غيره . وفصل بالجنود : أى فصل عن بلده مصاحبا لهم لقتال العمالقة . والجنود : واحدهم جندى ، وهم العسكر ، وكل صنف من الخلق ، كما جاء فى الحديث « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . والابتلاء : الاختبار والامتحان . والنهر : (بسكون الهاء وفتحها) مكان بين فلسطين والأردن . والشرب : تناول الماء بالفم من موضعه وابتلاعه دون أن يشرب بكفين ولا إناء .

وطعم الشىء : أى ذاقه مأكولاً كان أو مشروباً . والغرفة (بالضم) المقدار الذى يحصل فى الكف بالاغتراف . والغرف : أخذ الماء بالكف ونحوه . والطاقة : أدنى درجات القوة . وجالوت : أشهر أبطال الفلسطينيين أعدائهم . والفئة : الجماعة من الناس قليلاً كان عددهم أو كثيراً . والبراز (بالفتح) الأرض المستوية الفضاء . والإفراغ : إخلاء الإناء مما فيه بصبه .

وثبات القدم : كمال القوة وعدم التزلزل عند المقاومة . وداود : هو داود بن يسى ، وكان راعى غنم وله سبعة إخوة هو أصغرهم .

والحكمة : النبوة ، وعليه نزل الزبور كما قال تعالى : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ وتعليمه مما يشاء : هو صنعة الدروع ، كما قال : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾ . ومعرفة منطق الطير كما

قال : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾[١] وفصل الخصومات لقوله : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾[٢] .

سارت أحداث هذه القصة سيراً رتيباً منسقاً ، وكل حدث أسلم إلى ما بعده ، فأخذت الأحداث يعانق بعضها بعضا فى ترتيب بديع ونسق رتيب ، وكأن القوم لم يقتنعوا بقول نبيهم : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤت ملكه من يشاء ﴾ ، فأراد أن يقيم لهم آية أخرى تدل على صدق ملكه ، وأن الله تعالى هو الذى اصطفاه ، قال تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾أى وقال لهم نبيهم « إن من علامة عناية الله بطالوت عود التابوت إليكم ، وفيه ما تطمئن قلوبكم (وقد كان له عندهم شأن دينى خاص) وفيه بقية من رضاضة الألواح (فتاتها) ، وعصا موسى وثيابه وشىء من التوراة وأشياء توارثها العلماء من أتباع موسى وهارون . وقد أضيف إلى آل موسى وآل هارون لأنه قد تناولته القرون بعدهما إلى وقت طالوت .

وفى صدور هذا القول من النبى دليل على أن بنى إسرائيل لم يقنعوا بما احتج به عليهم من استحقاق طالوت للملك للأسباب المتقدمة ، ومن ثم جعل لهم علامة أخرى تدل على عناية ربه به ، وقد وصف التابوت فى كتب بنى إسرائيل بأوصاف هى غاية فى الغرابة فى كيفية صنعه وجمال منظره وما تحلى به من الذهب ودخل فى تركيبه من الخشب الثمينة .

والسبب فى صنعه أن المصريين الوثنيين حينذاك استعبدوا الإسرائيليين طويلاً ، فملكت قلوب بنى إسرائيل عظمة الهياكل الوثنية وما فيها من الزينة وجمال الصنعة ، فأراد الله أن يشغل قلوبهم عنها بمحسوسات من جنسها تنسب إليه وتذكر به . وقد سمى التابوت أولاً تابوت الشهادة : أى شهادة الله سبحانه ، ثم تابوت الرب ، وتابوت الله ، وقد جاء الإسلام ومنع الزخارف والزينة فى المساجد وبيوت العبادة حتى لا يشغل المصلى شىء منها عن مناجاة ربه . ولكن واأسفاه ، قلد المسلمون أرباب الملل الأخرى فى الزخرف والنقش فى المساجد والمنابر وأقيمت الأضرحة ، ولبس رجال الدين مثل لباسهم ، بل سبقوهم فى كثير من ذلك ، فأصبحت المساجد كأنها هياكل ومعابد للوثنيين ، ونسوا أو تناسوا الحكمة التى من أجلها امتنع المسلمون فى الصدر الأول عن تجميلها وفرشها بالطنافس وعمل الحلى فيها ، وصدق فيهم ما جاء فى الأثر : « لتتبعن سنن من قبلكم باعاً فباعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

﴿ تحمله الملائكة ﴾ . قيل إن البقرتين اللتين حملتا التابوت وجرتا العجلة (العربة) من بعض بلاد فلسطين إلى بنى إسرائيل كانتا تسيران مسخرتين بإلهام الملائكة وحراستهم ، ولم يكن لهما قائد ولا سائق . وقد جرت العادة بأن ما يحدث بإلهام ولا كسب فيه للبشر ، وهو من الخير ، يسند إلى إلهام الملائكة .

وقالوا فى سبب إتيان التابوت : إن أهل فلسطين ابتلوا بعد أخذ التابوت بالفيران فى زرعهم والبواسير فى أنفسهم فتشاءموا منه وظنوا أن إله إسرائيل انتقم منهم ، فأعادوه على عجلة تجرها بقرتان ، ووضعوا فيه صور فيران وصور بواسير من الذهب ، وجعلوا ذلك كفارة لذنبهم .

(١) سورة النمل آية : ١٦ .
(٢) سورة ص آية : ٢١ .

﴿ إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾أى إن فى مجىء التابوت علامة على عناية الله بكم ، واصطفائه لكم هذا الملك الذى ينهض بشئونكم وينكل بعدوكم ، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تتفرقوا عنه ، بل عاونوه ، يرق بكم إلى مراقى السعادة والفلاح . ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ ، أى فلما خرج طالوت من البلد يصحبه هؤلاء الجند قال لهم هذه المقالة .

وقد روى أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا فى النصر ، فسارعوا إلى الجهاد ، فقال لهم طالوت : لا يخرج معى شيخ ولا مريض ولا رجل بنى بناء ولم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة مشتغل بها ، ولا رجل عليه دين ، ولا رجل تزوج امرأة ولم يبن بها ، ولا أبتغى الا الشاب النشيط الفارغ ، فاجتمع إليه ممن اختاره ثمانون ألفاً ، وكان الوقت قيظاً (شديد الحر) ، وسلكوا مفازة فشكوا قلة الماء وسألوا الله أن يجرى لهم نهراً ، فقال لهم : إن الله سيختبر حالكم ويعلم المطيع منكم من العاصى والراضى من الساخط ، وستقابلون نهراً ، فمن شرب منه فليس من أشياعى المؤمنين إلا أن يكون ما يتناوله قليلاً ، وهو غرفة تؤخذ باليد ، ومن لم يذقه فهو الذى يوثق به ويركن إليه عند الشدائد . وحكمة هذا الابتلاء أن يختار المطيع الذى يرجى بلاؤه فى القتال وثباته حين النزال ويبعد من يظهر عصيانه ويخشى فى الوغى خذلانه ، فطاعة الجيش لقائده من أهم أسباب الظفر ، وأحوج القواد إلى ذلك من ولى على قوم وهم له كارهون .

والخلاصة أن مراتب الاختبار ثلاث :

١ - من يشرب فيروى ولا يبالى بمخالفة الأمر وهذا يتبرأ منه .
٢ - من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه وهو مقبول على ما به من نقص فى الجملة .
٣ - من لا يذوق الماء أبداً ، وهذا هو المولى والنصير الذى يوثق به ويعول على جهاده .

﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ لأنهم كانوا قد اعتادوا العصيان وفسد بأسهم وتزلزل إيمانهم ولم يبق منهم من أهل الإيمان والغيرة على الدين إلا النفر القليل . والقليل من ذوى العزائم الصادقة والنفوس التى أشربت حب الإيمان وامتلأت غيرة عليه بفعل مالا يفعله الكثير من ذوى الأهواء المختلفة والنزعات المتقاربة ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾[1] .

﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ أى فلما تخطى طالوت النهر هو ومن آمن معه ، وهم القليل الذين أطاعوه ولم يخالفوه فيما ندبهم إليه ، قال بعض ممن آمن معه من المؤمنين لبعض آخر منهم ، وهم الذين يظنون أنهم ملاقو الله : لا قدرة لنا على محاربة جالوت وجنوده ؛ فضلاً عن أن يكون لنا الغلب عليهم لما شاهدوا من كثرتهم وقوتهم ، فرد عليهم الفريق الثانى لوثوقه بنصر الله وقوة أهل الحق على قلتهم وخذلان أهل الباطل على كثرتهم كما حكى الله عنهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم

(١) سورة الحشر آية : ١٤ .

ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ ، أى قال الذين يستيقنون بلقاء ربهم بالبعث ويتوقعون ما عنده من الجزاء والثواب : كثيراً ما رأينا الجماعات القليلة غلبت الجماعات الكثيرة حين يكتب الله لهم التوفيق بمشيئته وقدرته ، والله لا يذل من نصره وإن قل عدده ، ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته وعدده ، وهذا دليل منهم على ثقتهم بنصر الله وتوفيقه : ﴿ والله مع الصابرين ﴾فهو ينصرهم على عدوهم ويثبتهم عند لقائه . وفى هذا حض على الصبر المؤدى الى الغلبة والثقة بالله عند الشدائد ومدلهمات الحوادث والرجوع إليه إذا فدح الخطب وعظم الأمر ، فهو القادر على النصر والتأييد لمن أخلص له من عباده . ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ، أى ولما ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين لأعدائه الفلسطينيين جالوت وجنوده وشاهدوا ما هم عليه من كثرة العَدد والفدد لجأوا إلى الله يدعونه أن يفرغ على قلوبهم بالصبر ويثبت أقدامهم فى القتال ويملأ نفوسهم ثقة واطمئناناً وينصرهم على أولئك القوم الكافرين عبدة الأوثان الذين أشربوا حب الدنيا ، وامتلأت قلوبهم بالترهات والأباطيل . ولقد راعوا الترتيب الطبيعى فى الدعاء بحسب الأسباب الغالبة ، إذ الصبر سبب الثبات ، والثبات سبب النصر ، وأولى الناس بنصر الله المؤمنون ،﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ ، أى فاستجاب الله دعاءهم فصبروا وثبتوا ونصروا فهزموهم وانتهى أمرهم بالهرب فى المعركة وفاقاً لسنته تعالى فى نصر أهل الحق المؤمنين الصابرين على أهل الباطل الضالين ،﴿ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ .كان جالوت جبار الفلسطينيين طلب المبارزة ، فلم يجرؤ أحد من بنى إسرائيل على مبارزته حتى جعل طالوت مكافأة لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه فى ملكه ، فبرز له داود ، وكان صغير السن ولم يلبس درعاً ولم يحمل سلاحاً ، بل حمل حجارته ومقلاعه الذى كان من عادته أن يقاتل به الذئب والأسد ، فسخر منه جالوت وقال ما خرجت إلا كما تخرج إلى الكلب بالمقلاع والحجارة لأبددن لحمك ولأطعمنه اليوم للطير والسباع ، فرماه داود بمقلاعه فأصاب الحجر رأسه وجاء به فألقاه بين يدى طالوت وانهزم من كان معه ، واشتهر داود بين الناس ، وكان له من الصيت والسمعة ما ورث به ملك بنى إسرائيل وآتاه الله النبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع ومعرفة منطق الطير وعلوم الدين وفصل الخصومات كما قال تعالى : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾[1]

﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ . ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله ، إذ كان من أحوالهم أن يبعث الله إليهم نبياً ، ويملك عليهم ملكاً يأتمر بأمر ذلك النبى ، وكان نبى هذا العصر شمويل والملك طالوت ؛ فلما توفيا صار له الملك والنبوة .

ثم بين سبحانه الحكمة فى الأمر بالقتال الذى استفيد من الآيات السالفة فقال :﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ ،أى ولولا دفع الله أهل البغى والجور والشرور والآثام بأهل الإصلاح والخير لغلب أهل الفساد وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم وصار لهم السلطان فى الأرض . فكان من رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن أذن للمصلحين بقتال البغاة المفسدين ،

(١) سورة ص آية : ٢٠ .

وهو سبحانه جعل أهل الحق حرباً لأهل الباطل وهو ناصرهم ما نصروه وأصلحوا فى الأرض .

وقد نسب عز اسمه الدفع إلى نفسه ، لأنه سنة من سننه فى المجتمع البشرى وعليه بنى نظام هذا العالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ ، أى هذه القصص السالفة من حديث الألوف الذين خرجوا من ديارهم ، وتمليك طالوت ، وإتيان التابوت ، وانهزام الجبابرة ، وقتل داود جالوت ــ آيات لله نقصها عليك على وجه لا يشك فيه أهل الكتاب ، إذ هم يجدونه مطابقاً لما جاء فى كتبهم الدينية والتاريخية ، فأنت من المرسلين لما دلت عليه هذه الآيات ، ولو كنت قد تعلمتها لجئت بها على النهج الذى عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصاص ، ولم تشاهد أزمنة وقوعها حتى تراها رأى العين وقد أشار سبحانه إلى مثل هذه الحجة للدلالة على نبوته ﷺ فقال : ﴿ وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ﴾ (١) .

العبرة من هذه القصص :

١ - إن الأمم إن سيمت الخسف تنتهى أفكارها إلى دفع الضيم ، فتعلم أن لا سبيل إلى ذلك إلا بانضوائها تحت لواء زعيم عادل باسل ، كما وقع من بنى اسرائيل حين نكل بهم أهل فلسطين .

٢ - إن أول من يشعر بالحاجة إلى ذلك هم خواصها وأشرافها ، كما حدث من الملأ من بنى اسرائيل ، ثم تنتقل الفكرة من ذلك إلى عامتهم حتى إذا وصلت إلى حيز العمل نكص ضعفاء العزائم على أعقابهم كما يدل عليه قوله : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ﴾ .

٣ - إن من شأن الأمم الاختلاف فى اختيار الملك ، ومن ثم لجأ الملأ من بنى اسرائيل إلى نبيهم ليختار لهم ملكا . وقد جاء الإسلام وجعل المرجح اختيار أرباب المكانة فى الأمة ، وهم أهل الحل والعقد وعون الحاكم وقوته لاحترام الأمة لهم وثقتها بهم .

٤ - إن الأمم زمن الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة هم أصحاب الجاه والثروة كما يدل على ذلك قول المنكرين لملك طالوت ﴿ ولم يؤت سعة من المال ﴾ مع أن الأجدر بهذا الاختيار أهل الشرف بمعارفهم وعلومهم وأخلاقهم الفاضلة ونفوسهم الكريمة .

٥ - إن الأمم إذا ارتقت فى علومها ومعارفها وحضارتها اختارت ملوكها من سلائل الملوك والأمراء وحافظت على قوانين الوراثة ولم يشذ عن ذلك إلا أصحاب الحكومات الجمهورية التى تختار رئيسها بالانتخاب .

(١) سورة القصص الآيتان ٤٤ ، ٤٥ .

الى القارىء الكريم ..

نحن مدينون لك بعرفان عميق لما قوبل به الجزء الأول من إقبال وترحيب ، كما ندين لك بأعتذار عن تأخرنا فى إصدار الجزء الثانى الذى تعثر طويلا فى المطابع لأسباب لا إرادة لنا فيها .

وقد صدر الجزء الأول من هذا العمل المجيد منذ شهور ، وانطوى الإعلان عنه على وعد بصدور الأجزاء التالية متتابعة مع مطلع كل شهر . وما أن انقضى الشهر حتى انهالت علينا الاستفسارات الملّحة بعضها محمل باللوم والبعض الآخر بالاستنكار ، وكأنك أيها القارىء - وأنت محق - تعدها كبيرة أن نخلف الوعد أو نجهض الوفاء .

واليوم وقد أذن الله وأصبح الجزء الثانى بين يديك ، أدع الله معنا أن يكتب لصدور هذا العمل المجيد الانتظام الشهرى الذى يعفينا من الحرج ويعفيك من الضيق وعناء الانتظار !

ولعل المقام مناسب لنزف إليك بشرى قرب فراغ الداعية الكبير الشيخ عبد الحميد كشك من اتمام « تفسيره » إذ وضعه بين أيدينا حتى الجزء الثالث والعشرين لنتابع النشر : رسالة إيمان ، وتنوير ، ودعوة الى فهم أرحب آفاقا لآيات الله البينات .

وعليه تعالى توكلنا وبه نستعين .

احمد يحيى

(الثمن جنيهان)



مطابع الاهرام التجارية القاهرة - مصر